

كلمة

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد العزيز البشري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يتسق لآلائه ، ويكافئ المزيّد من نعمائه . والصلاة والسلام على من طلع على هذه الأمة ، بأبلغ العظة والحكمة ، وعلى آله وأصحابه ، الذين تخلّقوا بأخلاقه ، وتأدّبوا بأدابه .

وبعد : فإن مما يحير الفكر ، ويبلغ بالنفس إلى منتهى العجب ، هو هذه المصنّفات التي صارت إلينا مما دوّنه العلماء ، والحكماء ، وأصحاب الآداب ، وأهل الفنون من مطلع النهضة العربية الإسلامية إلى بضعة قرون خلت !

هذه المصنّفات الحفيلة بقضايا العلوم ، ودقائق الفنون ، وروائع الآداب . يشتعّبون فيها مذاهب العلماء ، ويثبتون ما رأوا في كل مسألة وما قرروا ، وما استخرجوا في كل معضلة وما استظفروا ، ويتتبعون أصحاب الأدب ، فيُخصّصون آثارهم ، ويتقصّون سيرهم وأخبارهم ، ويتحرّون روائع بدائعهم في أحاديثهم ومحاوراتهم ، وفي أسرارهم ومحاضراتهم ، وفي مناقلاتهم ومناذراتهم . وما انتضحت به قرائحهم من شعر بارع ، ومن نثر رائع ، ومن مثل جامع .

ولقد يتدسّسون في التقصّي إلى مداخلهم ، فيتلقّطون ما عسى أن يقع من هذا وراء الجدر ، أو خلف الستر ، مما يضمن أصحاب المروءات به على الابتذال ، إلا لأصفوة الصحاب وخاصة الآل !

ولقد زخرت كتب العربية بهذا إلى الحد الذي لا أحسب أن أمة قد انتهت فيه منتهى العرب ! .

ومناط العجب أشد العجب في هذا أنهم في كل ماتصروا فيه من التواليف ،
 في نهضة الآداب والعلوم ، إنما كانوا مقطوعى الوسائل ، مبتوى الذرائع : مشقة
 أية مشقة في الأسفار ، وجهد أى جهد في جوب القفار ، في تروى الأخبار ، وتصيد
 العزيز من الكتب والأسفار . وهيات لا يتم للمرء هذا إلا بالشراء أو بالنسخ
 أو بالاستنساخ . ولقد تعلم ما يقتضى هذا وهذا من ركوب الأهوال ، وبذل كرائم
 الأموال ، وطى الأيام والليال . ولقد يبذل كل ذلك في إحراز كتاب واحد ، فما
 بالك بكتب عدة ، وما بالك بتقصى آثار ، ونوادير وأخبار ، تفرقت في مختلف الآفاق
 والأقطار ! . على قلة الغناء في مثوبة المثيب وجوازى الحيز ، إلا أن يكون الجهد
 أجمعه في ابتغاء مرضاة الله تعالى في إثبات شرعه ، أو الخلوص لوجه العلوم والآداب .
 ولو قد عرفت أن الأمام المحدث العظيم محمد بن إسماعيل البخارى ظل على
 متن السفر قرابة ثلاثة أشهر عانى فيها ما عانى من مشاق الارتحال ، واستهدف لما
 استهدف له من مهولات الأهوال ، كل أولئك في رواية حديث واحد لم يصح
 في النهاية عنده فنفاذ ولم يثبت في صحيفه — لو عرفت هذا لقدّرت مبلغ ما ضحى
 به أولئك الرجال العظام للدين ، والعلوم والقنون والآداب جميعا . على أن ما انتهى
 إلينا من هذه الثروات العلمية والأدبية التى استودعوها كتبهم ورسائلهم مما
 لا يكاد يحصره الحد ، أو يتناوله العدّ ! .

ولاشك أن من أعلام أصحاب الأدب الذين ثبتت أسماؤهم على وجه الزمان ،
 وشادت الألسن بذكركم في كل مكان ، هو الامام العالم الأديب الشاعر الكاتب
 أبو إسحق إبراهيم بن على بن تميم ، المعروف بالحضري ، القيروانى المالكي ، المتوفى
 سنة ٤٥٣ هجرية . ولا أحسب امرءاً تعلق بآداب العربية إلّا ردّ النظر في كتابه
 (زهر الآداب) وقاب الفكر فيه ، وقطف من تلك الروضة المطار ، كل ما زكّا
 من ورد وقرنفل وبهار .

والخُصْرَى ، كما يعرفه كل متأدب في العربية رجُل واسع العلم ، عظيم الإطلاع ، نافذ الذوق ، بديع الاختيار . يؤثر في تواليفه إرسال القول ما دعت المناسبة إليه . فيتبع الملحة الظريفة ؛ بالقصيدة البارعة ، ويلحق النادرة الطريفة ؛ بالخطاب القاطع ، فيتحول بقرائنه من فن إلى فن ، ويستدرجه من حديث إلى حديث ، دون أن يتداخله الملل ، أو يحسّ انطواء الزمن ، بتجدد اللذة ، وتغير الفكر على مختلف الصُّوَر .

وهذا كتابه البارِع الجامع : (جمع الجواهر ، في الملح والنوادر) قد نظم فيه ما شاء الله أن ينظم في بابِه مما يعزّ أن تقع عليه في كتاب آخر . فاذا طلبت تفصيلا في موضوعات الكتاب وأسلوب نظمه ، فإليك ما قال المؤلف نفسه في صدر مقدمته :

« فأجبتك إلى ملتصك بكتاب كلّمت نظامه ، وثقلت أعلامه ، بذهب يروق سبك إبريزه ، ويرقّ حوك تطريزه ، من نوادر المتقدمين والمتأخرين ، وجواهر العقلاء والمجانين ، وغرائب السُّعْطِاط والفضلاء ، وعجائب الأجواد والبخلاء ، وطُرُف الجهّال والعلماء ، وتحف المغفلين والفهّماء ، ونف الفلاسفة والحكماء ، وبدائع السؤال والقصاص ، وروائع العوام والخواص ، وفواكه الاشراف والسفلة ، ومنارهِ الطفيليين والأكلة ، وأخبار الخائث والخصيان ، وآثار النساء والصبيان .

وأُتيت به على سبيل الاختصار ، وطريق الاختيار ، وجملته بتنويع الكلام ، كالمائدة الجامعة لفنون الطعام ، إذ همّ الناس مقترقة ، وأغراضهم غير متفقة ، ولا أعلم حقيقة ما تستندره ، ولا محض ما تؤثره ، إذ لا يحيط بذلك إلا أعلام الغيوب ، المطلع على ما في القلوب » .

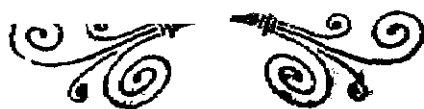
ولا شك أن نشر هذا الكتاب وتناوله سيكون له أثره البعيد في الأدب والمتأدين بما يفسح في ملكاتهم ، ويطبعهم بطول النظر في بلاغاته على ناصح

البيان . إلى ما يُخَصِّر الكاتبين ما يُعوزهم في كل باب من الاستشهاد بمثل سائر ،
وحكمة بالغة ، وقول ماثور ، ونكتة بارعة . وغير ذلك مما يحلو في التصريف ، ويزيد
في حسن البيان .

وإذا كان لنا أن نغبط بظهور هذا الكتاب النفيس وننشره للأيدي فقد
حق علينا أن نمحض الشكر للأستاذ الفاضل ، المجد الدائب ، صديقنا محمد أمين
افندي الخانجي الذي لم يفتأ منذ ثلاثين سنة يُعنى النفس في استخراج كل رائع
من مجفوات كتب الأقدمين في العلوم والآداب ، وينشرها بعد علاجها بالضبط
والتصحيح ، ويجلوها في أحسن الصور من جودة الطبع والورق جميعا .

أسأل الله تعالى أن يُجزل له من الثواب ، ويحسن مكافأته على ما خُدم
العلوم والآداب ؟

عبد العزيز البصري



obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلامُ على نبينا محمد الرسول العربي المبين

وبعد فهذا كتابٌ يتقدّمُ وحده إلى قرائه بفكاهته ودُعابته وملّحه وشعره
الرائق . قد جُمع فيه الحُصْرِيُّ من النوادر ما تفرّق حتى صار كالرّوضة المونقة فيها
راحة النّفس ، ولذّة العين ، وطيبُ النّسمة ، وانفردَ عن أمثاله من كتب الملح
والنواذر بحُسن الاختيار ، ونقاء العبارة ، وبديع الاستطراد من شعر إلى نادرة إلى
تاريخ إلى ترسلٍ

هذا وقد كانت النسخة التي طبع عنها هذا الكتابُ سقيمةً فاجتهد السيد
الفاضل محمد أمين الخانجي ، في تصحيحه جُهدَ الطاقة حتى إذا فرغ من طبعه
أرادني أن استدرّكه عليه بعدَ قراءته فاستخرجتُ الصوابَ لكثير ممّا وقع فيه
وتركتُ شيئاً تعدّاهُ النظر . أو شيئاً منعى من الاجترار عليه استبهاهُ على حتّى
نعود بمون الله إلى طبعه مرّةً أخرى فيخرج مبرّأ من الخطأ ، نقيّاً من العيب ،
والله المستعان ؟

محمود محمد شاكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أضحك وأبكى ، وأمات وأحيا ، فعرفنا بلذة الفرح شدة
الترح ، وبحلاوة الحياة مرارة الوفاة . قال الطائي :

أوما رأيت منازل ابنة مالك رسمت له كيف الزفير رؤسوها
والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذي أدراك كيف نعيمها

إساءة دهر أذكرت حسن فعله ولولا الشرى لم يعرف الشهد زائغهُ
وصلى الله على خير مبعوث ، وأكرم وارث وموروث ، محمد الذي أخرجنا
من الضيق إلى الفسحة ، وبعث إلينا بالحنيفية السمحة ، ليضع عن ولد اسماعيل ،
أغلال بني إسرائيل ، بل ليرفع عن كل من دخل في السلم ، من جملة العرب
والعجم ، ما أضلع حمله وأضلع نقله ، صلى الله عليه صلاة تزلف لديه ، وتصعد
في الكلام الطيب إليه ، وعلى آله وصحبه وسلم .

سألت أطل الله بقاءك ، وحرس إخاءك ، من زكا بسقى مودتك زرعه
ونما ، وعلا برعى محبتك فرعه وسما ، فانتقاد اليك ^(١) قلبه بغير زمام ، وصح فيك
حبه بغير سقام ، أن يجمع لك كتابا في جواهر النواذر ولمح الملح ، وفواكه الفكاهات
ومنازله المضحكات ، ترتاح إليه الأرواح وتطيب له القلوب ، وتفتق فيه الآذان
وتشخذ به الأذهان ، ويطلق النفس من رباطها ، ويميد إليها عادة نشاطها إذا انقبضت
بعد انبساطها . فقد قيل : القلب إذا أكره عى . وقال بكر بن عبد الله المزني :
لا تكدوا هذه القلوب ولا تهملوها . وخير الكلام ما كان عقيب حمام ، ومن
أكره بصره عشى ، وعادوا الفكرة عند نبوات القلوب ، واشحنوها بالمذاكرة ،

(١) في الأصل . إليه .

ولا تياسوا من إصابة الحكمة إذا امتحنتم ببعض الاستغلاق؛ فإن من ادمن قرع الباب ولج . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : انى لأستجيم نفسى ببعض الباطل . ليكون أقوى لها على الحق . وقال الحسن البصرى رحمه الله : حادثوا هذه القلوب فانها سريعة الذبول ، وارعوا هذه الانفس فانها طلعة ؛ وانكم ان لم ترعوها تنزع بكم إلى شر غاية . وقال اردشير بن بابك : إن للقلوب لغة وللنفوس ملأ ؛ ففرقوا بين الحكمين يكون ذلك استجماما . وقال فى حكمة آل داود : لا ينبغي للعاقل أن يخلى نفسه من أربع ؛ من عدة لمعاد ، وإصلاح لمعاش ، وفكر يقف به على ما يصلحه لما يفسده ، ولذة فى غير محرم يستعين بها على الحالات الثلاث . وقال أبو الفتح كشاجم :

عجبي من تعالت حاله	وكفاه الله زلات الطلب
كيف لا يقسم شطرى عمره	بين حالين نعيم وأدب
ساعة يتمتع فيها نفسه	من غذاء وشراب منتخب
ودنو من دُمى هن له	حين يشتاق الى اللعب لعب
فاذا ما زال من ذا حظه	فنشيد وحديث وكتب
ساعة جد وأخرى لعب	فاذا ما غسق الليل انتصب
فقضى الدنيا نهارة حقها	وقضى لله ليلا ما يجب
تلك أعمال متى يعمل بها	عامل يسعد ويرشد ويصب

فأجبتك إلى ملتمسك بكتاب كللت نظامه ، وثقلت أعلامه ، بذهب يروق سبك إبريزه ، ويرق حوك تطريزه ، من نوادر المتقدمين والمتأخرين ، وجواهر العقلاء والمجانين ، وغرائب السقاط والفضلاء ، وعجائب الأجواد والبخلاء ، وطرف الجهال والعلماء ، وتحف المغفلين والفهماء ، وتنف الفلاسفة والحكماء ، وبدائع السؤال والتقصص ، وروائع العوام والخواص ، وقواكه الأشراف والسفلة ، ومنازه الطفيليين والأكلة ، وأخبار الخانيث والخصيان ، وآثار النساء والصبيان .

وأثبت به على سبيل الاختصار ، وطريق الاختيار ، وجعلته بتنويع الكلام ،
كالمائدة الجامعة لفنون الطعام . إذ هم الناس مفترقة ، وأغراضهم غير متفقة . ولا
أعلم حقيقة ما تستندره ، ولا محض ما تؤثره ، إذ لا يحيط بذلك إلا علام الغيوب ،
المطلع على ما في القلوب .

وقد مجتبت أن أهدي إليك ، وأورد عليك ، ما يخرج به قائله في الدين
عن اتباع سبيل المؤمنين . فمن أهل الخلد والاهواء ، من يسرحسوا في ارتقاء .
ويطلب ما يشفي به من دائه ، ويضحك خاصة أودائه ، ويفر به من ضعفت نجمته
ونحفت غريزته ، بما يمكنه ، بالطف ما يمكنه ، ككون الاخوان ، في أصول
الريحان ، إذا قابله بشمه ، قتله بسمه . كما حكى الجاحظ عن الشرقي القطامي ^(١) أن
أبن أبي عتيق لقي عائشة رضى الله عنها على بغلة . فقال : إلى أين يا أماء ؟ فقالت له :
أصاح بين حين تقاتلا ، فقال عزمت عليك إلا ما رجعت ، فما غسانا أيدينا من
يوم الجمل حتى ترجع إلى يوم البغلة . وهذه حكاية أوردها الشرقي ^(٢) لعله ودغله على
وجه النادرة لتحفظ ويضحك منها ، ويتعلق بها من ضعف عمله ، وقل عزمه ،
فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض لعرض أم المؤمنين رضى الله عنها .
ومثل هذا كثير مما لو ذكرته ، لدخلت فيما أنكرته . فقد قيل الراوية أحد
الشاميين ، كما قيل السامع أحد القائلين . وقد قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن
مسعود وقد مر به عمر بن عبد العزيز والقاسم بن محمد بن أبي بكر فلم يسلم عليه :

مساراب الأرض منها خلقتما ومنها المعاد والرجوع إلى الحشر
ولا تعجبا أن ترجعا فتسلما فمأحشى الإنسان شرّاً من الكبر

وقال آخر :

إن كنت لا ترهب ذمى لما تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى إذ أنا منصت فيك لمسموع خنا القائل

فسامع السوء شريك له ومطعم المأكل كولا كالا كل
ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل

وقد رام ابن قتيبة تسهيل السبيل في مثل هذا . فقال : مهما مربك من
كلام تنفر عنه نفسك ، فلا تعرض عنه بوجهك ، فالقول منسوب إلى قائله ،
والفعل عائد إلى فاعله . قلت : وليت شعري ما اللذة فيما يضحك منه ؛ من هو معرض
عنه ، إلا أن يدخل في حد المستهزئين ، وحيز المتلاعبين . نعوذ بالله من الخور
بعد الكور . وأنشد أبو نواس الجواز شعراً من أغانيه ومجونه كفر فيه وقال للجواز :
أين أنت من هذا الطراز ؟ قال : أنا لا أتعرض لمن أعضائي جنده يحرك على منها
ساكناً ، أو يسكن متحركاً فأهلك .

وقد طرد الجواز أصله في التحرز مما تعلق عليه من شناعة ، أو تلزمه فيه
تباعة ، فقال بمدح :

أقول بيتاً واحداً أكتفى بذكره من دون أبيات
إن علي بن أبي جعفر أكرم أهل الأرض من آت
فقد سلم مما كاد يقع فيه أبو الخطاب عمرو بن عامر السعدي وقد أنشد
موسى الهادي :

ياخير من عقدت كفاه حجزته وخير من قلده أمرها مضر
فانقلبت عيناه في رأسه واحمر وجهه ، وقال : إلا من ويحك ؟ ولم يكن أبو
الخطاب مستثنى أحداً ، وإنما جرى على مذهب الشعراء في تفضيل المدوح على
أهل العصر . فلما رأى ما بوجه الهادي من إرادة الايقاع به قال ارتجالاً :
إلا النبي رسول الله إن له فخراً وأنت بذاك الفخر تفتخر
فسرى عنه ووصله .

وقد جعلت ما عملت مدبجاً مدرجاً ، لتأذي النفس بالانتقال من حال إلى

حال ؛ فقد جبلت على محبة التحول ، وطبعت على اختيار التنقل . وقد قيل إن عبد الله بن طاهر لما أسر نصر بن شبيب بن كيسوم ، وأنفذه إلى المأمون ، جلس مجلساً أنصف فيه من وجوه القواد ، ومن أمراء الأجناد ، وضرب الأعناق وقطع الأيدي ، ورد كبار المظالم ، ثم قام وقد دلت الشمس فتلقاه الخدم ، فأخذ هذا سيفه وهذا قباه وهذا إزاره . فلما دخل دعا بنعل رقيقة فلبسها ، ثم رفع ثوبه على عاتقه وتوجه نحو البستان وهو يتغنى :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف غم
قال عيسى بن يزيد : وكنت جريئاً عليه فجذبت ثوبه من عاتقه وقلت له :
أتقعد بالعداة قعود كسرى أو قيصر أو ذى القرنين ، ثم تعمل الساعة عمل علوية
ومخارق ؟ ! فرد ثوبه على عاتقه وهو يقول :

لا بد للنفس إن كانت مصرفة من أن تنقل من حال إلى حال
قال أبو القاسم بن جدار : كأنه ذهب إلى ما فعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قام من بعض مجالسه الجليلة التي كان يدون فيها الدواوين ويمصر الأمصار ويقمع الأعداء ويؤيد الإسلام ، فدخل منزله ثم رفع صوته وهو يقول :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما قضى وطراً منها جميل بن معمر
أقلحته عبد الرحمن بن عوف فاستأذن عليه ، فقيل عبد الرحمن يا أمير المؤمنين بالباب
فلما دخل عليه ، قال : ما صوت سمعته منك آنفاً يا أمير المؤمنين ؟ ! فقال يا أبا محمد
إيها عنك فان الناس إذا خلوا قالوا . وقد قلت :

فرقت في التأليف معتمداً ما كان لو قد شئت يأناف
والعقد ما اختلفت جواهره إلا ليشرق حين يختلف
إن كان الشيء مع نظيره يذهب بنوره ، ويغض من بهائه ، ويخاق من روائه ،
فقد زعموا أن الحجرة كواكب مضيئة مجتمعة فكسف بعضها نور بعض ، فصارت

طريقاً في السماء بيضاء . وقال ابن الرومي :

وبيضاء يخبو درها من بياضها ويدكو بها ياقوتها والزبرجد
إلا أن تدرج الحكاية في الحكايات ، ويتسلسل البيت مع الأبيات ، فيكون
الجمع أزين من القطع ، والتوصيل أحسن من التفصيل ، فأقرنها بأشكالها ،
وأجملها مع أمثالها .

ولاختيار المطايات والمداعبات ، وما انخرط في سلكها من الملح والمرح .
أصول لا يخرج فيها عنها ، وفصول لا يخرج بها منها . وقد يستندر الحار المنضج ،
والبارد المثلج ، لأن إفراط البرد ، يعود به إلى الضد . ولذلك قال أبو نواس :

قل للزهيري إن حدا وشدا أقل وأكثرفأت مهذار
سخت من شدة البرودة حتى صرت عندي كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفى كذلك الثلج بارد حار
وفي كناية ودمنة : لا ينبغي اللجاج في إسقاط ذي الهمة والرأى وإزالته ؛ فانه
إما شرس الطبيعة كالحية إن وطئت فلم تلسع لم يغتر بها فيعاد لوطئها ، وإما سمج
الطبع كالصندل البارد ، وإن أفرط في حكه عاد حاراً مؤذياً . وقالوا : إنما ملح
القرود عند الناس لا إفراط قبحه ، وقد قال ابن الرومي في الحصيان :

معشراً أشبهوا القروود ولكن خالفوها في خفة الأرواح
لأن العبد إن أخصى استرخت معاقده عصبه ، وحدث في طبعه نشاط في
الخدمة . فيحصل بين حالين متضادين لا يطبق المبالغة فيهما فيضيق صدره ، وتثقل
روحه وقد قال أبو تمام :

أمن عى نزل الناس الربى فنجوا وأنتم نصب سبل القنة العرم
أم ذاك من هم جاشت وكم صفة حدا إليها غلو القوم في الهمم
وكان يقال : من التوق ترك الإفراط في التوق ، وإنما الموت المحبب والسقم
المغيب ، أن تقع النادرة فآفة فتخرج عن رتبة الهزل والجد ، ودرجة الحر والبرد ،

فيكون بها جهد الكرب على القلب كما قال أبو بكر الخوارزمي : أثقل من عذاب
الفراق ، كتاب الطلاق ، وموت الحبيب ، وطلعة الرقيب ، وقذح اللبلاب في كف
المريض ، ونظرة النل إلى البغيض . وأشد من خراج بلا غلة ، ودواء بلا علة ،
وطلعة الموت في عين الكافر ، وقد ختم عمره في الكبائر ، وأعظم من ليلة
المسافر ، في عين كانون الآخر ، على إكاف يابس ، تحت مطر وبرد قارس .
ومن أمثال البغداديين : هو أثقل من مغن وسط ، ومن مضحك وسط . وقال ابن
الرومي يهجو احمد بن طيفور :

فقدت يا ابن أبي طافر وأطعمت قعدك من شاعر
فلست بسخن ولا بارد وما بين ذين سوى الفاتر
وأنت كذاك تغنى النفوس تغنية الفاتر الخاطر

ومن شرط المسامر والمناذر: أن يكون خفيف الإشارة ، لطيف العبارة ، ظريفاً
رشيقاً ، لبقاً رقيقاً ، غير قدم ولا ثقل ، ولا عنيف ولا جهول ، قد لبس لكل
حالة لباسها ، وركب لكل آلة أفراسها ، فطبق المفاصل ، وأصاب الشواكل ،
وكان برائق حلاوته ، وفائق طلاوته ، يضع الهناء مواضع النقب ؛ ويعرف كيف
يخرج مما يدخل فيه ، إذا خاف أن لا يستحسن ما يأتيه . كما ذكر عن الفتح بن
خاقان أنه كان مع المتوكل فرمى المتوكل عصفوراً فأخطأه . فقال : أحسنت
يا أمير المؤمنين ، فنظر إليه نظرة منكرة . فقال : إلى الطائر حتى سلم ، فضحك المتوكل
وذكر لبعض ولاية البصرة لما وليها حلاوة الجواز وأن أكثر نوادره على الطعام ،
فأحضره وقدمت المائدة فأتى بنادرة فاخرة وأتبعها بأخرى فلم تستلح . فقال :
لعل الأمير أنكر برد ما أتيت به ؟ وإنما احتذيت حذوه في تقديم البوارد قبل
الحوار .

ولا يجب أن يكون كلما طال كلامه ، انحل نظامه . بل يأتي في آخر ما أحكمه ،
بما ينسى ما تقدمه ، وإلا كان كما ذكر الجاحظ : أن الرشيد أحب أن ينظر إلى

شعيب انقلال كيف يعمل فأدخل القصر وأتى بكل ما يحتاج إليه من آلة العمل ؛
فبينما هو يعمل إذ بصر بالرشيد فهض قائماً . فقال له : دونك وما دعيت له فاني لم
آتلك لتقوم الى ، بل لتعمل بين يدي . فقال : وأنا أصلحك الله لم آتلك ليسوء
أدبي ؛ وإنما آتيتك لأزداد أدباً ، فأعجب الرشيد به وقال له : بلغني إنك إنما تعرضت
لي حين كسدت صناعتك ؟ فقال : يا سيدى وما كساد عملى فى خلال وجهك ،
فضحك الرشيد حتى غطى وجهه . وقال : مارأيت أنطق منه ولا أعيا منه ، ينبغي
أن يكون أعقل الناس وأجهل الناس . وكذلك كان .

ويجب إذا حكى النادرة الظريفة ، والحكمة اللطيفة ، أن لا يعربها فتثقل ،
ولا يتجمججها فتجهل ، ولا يطمطمها فتبرد ، ولا يقطعها فتجمد . ولو أن قائلها حكى
قول مزيد المدنى وقد أكل طعاماً فأتقله . فقيل له : تقيأه يذهب ما بك . فقال : خبز
تقى ، ولحم جدى ، والله لو وجدته فى . لأكلته . فلو أعطاه حقه من الأعراب فقال :
خبز تقى ، ولحم جدى ، والله لو وجدته قيناً لأكلته ، لخرج عن حده ، وأفلج من
برده . وكذلك لو ذهب بما يحتاج إلى الإعراب من كلام الفصحاء والأعراب
إلى اللحن لاستغث واسترث . كما ذكروا أن الحجاج بعث إلى والى البصرة أن
اختر لى من عندك عشرة فصحاء فاختر رجالاً فيهم كثير بن أبى كثير . وكان
عربياً فصيحاً . قال كثير فقلت بم أفأت من الحجاج ثم قلت فى نفسى باللحن : فلما
دخلت عليه دعانى فقال : ما اسمك ؟ قلت كثير قال ابن من ؟ فقلت إن قلت
ابن أبوكثير : خفت أن يتجاوزها ، فقلت ابن أبأ كثير ، فقال اذهب فعليك لعنة
الله وعلى من بعث بك ، جروا فى عنقه ! فأخرجت . وقال رجل للحسن البصرى
رحمه الله : ماتقول فى رجل مات وترك أليه وأخيه ؟ فقال : أغيلة إن فهمناهم لم
يفهموا ، وإن علمناهم لم يعلموا ، قل ترك أباه وأخاه ، فقال له فما لأباه وأخاه ؟
فقال الحسن : قل لأخيه ولأخيه ، قال أرى كلما تابعتك خالفتنى .

ولكل صناعة آلة ، ولكل بضاعة حالة . وذم رجل رجلاً فقال : أقداحه

محاجم ، ودعواته ملايم ، وكووسه محابر ، ونوادره بوادر . وقال الزبير رؤى الغاضرى ينازع أشعب الطمع عند بعض الولاة . فقال : أيها الأمير إنه يريد أن يدخل على فى صناعتى ، ويشاركنى فى بضاعتى ، وهيتته هيئة قاض ، والأمير يضحك . وقال عمرو بن عثمان :

واشتياقى إلى أبى الخطاب وأحاديثه الرقاق العذاب

وإشاراته التى استعارت حركات المهجور عند العتاب

ويجب على اللبيب المطرب أن لا يطيل فيمل ، ولا يقصر فيخل ، فالكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، قال احمد بن الطيب السرخسى تلميذ احمد بن اسحاق الكندى : كنت يوماً عند العباس بن خالد وكان ممن حبب إليه أن يتحدث فأقبل يحدثنى وينتقل من حديث إلى حديث ، وكان فى صحن منزله فلما بلغنا الشمس انتقلنا من موضع إلى موضع آخر حتى صار الظل فيناً ، فلما أكثر وأضجر ومللت حسن الأدب فى حسن الاستماع ، وذكرت قول الأوزاعى : إن حسن الاستماع قوة للمحدث ، فقلت له إذا كنت وأنا أسمع قد عييت مما لا كلفة على فيه ؛ فكيف بك وأنت المتكلم ؟ فقال : إن الكلام يحل الفضول الغليظة التى تعرض فى اللهوات ، وأصل اللسان ، ومنابت الألسان ، فوثبت وقلت ما أراى معك الا أبايع العنقر إذ أنت تتعرض لى منذ اليوم ، والله لا أجلس ، واجتهد لى فلم أفعل . وقال احمد بن الطيب : كنا مرة عند بعض إخواننا فتكلم فأعجبه من نفسه الكلام ومنا حس الاستماع ، حتى أفرط . فعرض لبعض من حضر ملل . فقال : إذا بارك الله فى شىء لم يفن ، وقد جعل الله فى حديث أخينا هذا البركة ، وقال عبد الله بن سالم فى رجل كثير الكلام :

لى صاحب فى حديثه بركة يزيد هذا السكون والحركة

لو قال لا فى قليل أحرفها لردّها بالحروف مشتبه

والتحفظ فى هذا الباب ، من أكبر الأسباب . لأن المنادر والمهاتر والمسامر

قد تمر له النادرة المضحكة ، والطيبة المتحركة ، فيستغرب المجلس ، وتطرب
الأنفس ، فيدعوه ما استحسن منه ، واستندر عنه ، أن يعود إلى مثلها فينقص
من حيث ظن أنه زاد ، ويفسد عليه ما أراد . وقد كتب أبو الفضل محمد بن
الحسين بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري لما استحضره عضد الدولة للمنادمة ؛
وقفت على ما وصفته من بر الأمير بك ، وتوفره عليك ، وليس العجب أن
يتناهى مثله في الكرم إلى أبعد غاياته ، وإنما العجب أن يقصر في مساعيه عن
نيل المجد كله ، وحياسة الفضل بأجمعه ، وقد رجوت أن يكون ما يفرسه أجدر
غرس بالزكاء ، وأضمنه للريع والنماء ، فارع ذلك واركب الاكثار في الخدمة
طريقة تبعدك من الملل ، وتوسطك في الحضور بين الاكثار والاقلال ، ولا
تسترسل كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد مرات ، خير من أن تقصى من
قريب مرة . وليكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل والاسهاب ، ولا تعجين
بتأني كلمة محمودة فيلج بك الاطناب ، توقفاً لمثلها فربما هدمت ما بنته الأولى .
وبضاعتك في الشرب مرزجة ، وبالعقل يزّم اللسان ويلزم السداد . فلا تستفرنك
ظربة الكرم على ما يفسد تمييزك . والشفاعة لاتعرض لها فانها مخلقة للجاه ،
فان اضطرت اليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتطالع موضعها ،
فان وجدت النفس بالاجابة سمحة ، وإلى الاسعاف هشة ، فاطهر مافي نفسك
غير محفف ، ولا توهم أن في الرد عليك ما يوحشك ، ولا في المنع ما يفيظك .
وليكن انطلاق وجهك إذا دفعت عند حاجتك ، أكثر منه عند نجاحها على
يدك ، ليخف كلامك ولا يتقل على مستمعيه منك ، أقول ما أقوله غير واعظ
ولا مرشد ؛ فقد كمل الله خصالك ، وفضلك على كل حالك ، لكن أنبه تنبيه
المشارك واعلم للذكرى موقعاً لطيفاً . وذكر لعبد الله بن طاهر رجل يصلح
للمنادمة فأحضره فأقبل يأتي بالأشياء في غير مواضعها . فقال : يا هذا إما أقلت
فضولك أو دخولك .

وهذه النوادر أكرمك الله وإن وقع عليها اسم الهزل ، وأسقطت من عين العقل ، عند من لا يعلم مواقع الكلم ، ولا يفهم مواضع الحكم ، فليس ذلك بمروجها ، ولا بمبهرجها عند أهل العقول . وأولى التحصيل العارفين بمعاقد المعاني ، وقواعد المباني ، وهل يستندر من المعمورين والمشهورين ، ويستظرف من المغفلين والمقلين ، إلا ماخرج عن قدر أشكالهم ، وبعد من فكر أمثالهم . وإنما يذكر ما يستظرف ، لخروجه عما يعرف .

ومنها ما يدخل في باب الطيب والاستندار . وقد قال الجاحظ : ليس شيء من الكلام يسقط البتة ، فسخيف الالفاظ يحتاج إلى سخيف المعاني . وقد قيل : لكل مقام مقال ، وقيل لبشار بن برد ، كم بين قولك :
أمن طلل بالجزع ان يتكلما وأقفر إلا أن ترى متدما
في نظائر هذه القصيدة من شعرك ، ومن قولك :

لبابة ربه البيت تبيع الخل بالزيت
لها سبع دجاجات وديك حسن الصوت

فقال : إنما القدرة على الشعر أن يوضع الجذ والهزل في موضعه ، ولبابة هذه جارة لي تنفعني بما تبعث لي من بيض دجاجها ، وهذا الشعر أحسن موضعاً عندها من قفائك من ذكرى حبيب ومنزل .

ولما استقرت الخلافة المعتز بالله شخص إليه والعبر من ولد عبد الصمد بن علي فهناه بالخلافة وتعرض لصلته بالجد وهجاء المستعين كما فعل البحترى في قصيدته التي أولها :
يجانبنا في الحب من لا نجانبه ويبعد منا في الهوى من تقاربه
فلم يقبل عليها ، فعمل أبو العبر قصيدة مزدوجة كلها هزل من غير تقويم ولا إعراب منها قوله :

أيأ أحمد الرقيع ومن أكلك الرجيع أتنسى متى كان نصيرك قهرمان
فيأتيك بالسويق من السوق والدقيق فصرت الآن في الدار على رتبة البزار

إما تعلم يافار بأن الله يختار ويعطى غيرك الملك عزيزا يركب الفلك
وفيهما ما لا يذكر من حماقات واختلال ، وبرد وانحلال ، وكلام مردول ،
غث مهزول ، فضحك المعتز منها وأمر له بألف دينار ، فألح على جعفر بن محمد
الاسكافي في الاقتضاء وهو حينئذ وزير المعتز فألح عليه ، فقال له جعفر : عهدي
ببنى هاشم يأخذون الصلات بشرفهم وعلومهم وجدهم ، وأنت تأخذ بالحال والهزل
فأنت عجيب من بينهم !! فقال أبو العبر : صدقت أنا عجيب من بينهم كما أنت
عجيب في أهل إسكاف كلهم نواصب وأنت من بينهم رافضى ، وكان جعفر
ينسب إلى ذلك . ثم أنشد أبو العبر قول جميل بثينة :

بثينة قالت يا جميل أربتنا فقلت كاللنا يابثين مريب
وأريننا من لا يؤدى أمانة ومن لا يفي بالعهد حين يغيب

فدفع إليه الألف دينار ، واستغفاه أن يعاود مثل هذا . وكانت لابي العبر مع
موسى بن عبد الملك قصة مثل هذه في أيام المتوكل رفع إليه كتابا بأرزاقه
وأرزاق جماعة من أهله ليوقع فيه ويختمه ، فدافعه به موسى مدة ، فوقف له يوما
فلما ركب أنشده :

موسى إلى كم تتبرد وكم وكم تتردد
موسى أجزنى كتابى بحق ربك الاسود

يريد محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على
رضى الله عنهم ، والأمامية تزعم أنه إمام وقته ، فجزع موسى وسأله كتم ما كان
عليه ومعاودة مثله . وأنشد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحرى المتوكل قصيدته :

من أى ثغر تبسم وبأى طرف تحتكم
حسن يضمن بحسنه والحسن أشبه بالكرم
أفديه من ظلم الوشا ة وإن أساء وإن ظلم

وهى حلوة الروى ، مليحة العروض ، حسنة الطبع ، فكان البحرى فيه

كبر وإعجاب ، فاذا أنشد. قال: مالكم لاتعجبون ، أما حسن ما تسمعون ؟ !
فقام إليه أبو العنابس الصيمري وقد قال ذلك فقال :

عن أى سلاح تلتقم وبأى كف تلتطم دقن الوليد البحتري
أبى عبادة فى الرحم أدخلت رأسك فى الحرا

فولى البحتري مغضبا ، فقال أبو العنابس : وعلمت أنك تهزم .

فضحك المتوكل حتى فخص برجليه وأمر بالجائزة لأبى العنابس .

فقد يحتاج العاقل المميز ، والفاضل المبرز ، إلى الهزل كاحتياجه إلى الجد ،

ويفتقر إلى الجور كافتقاره إلى القصد : وعلم الفتى فى غير موضعه جهل .

وصحب الامام محمد بن إدريس الشافعى رضى الله عنه قوما فى سفره فكان

يجاريهم على أخلاقهم ، ويخلطهم فى أحوالهم ، وهم لا يعرفونه ، فلما دخل مصر

حضرُوا الجامع فوجدوه يفتى فى حلال الله وحرامه ، ويقضى فى شرائعه وأحكامه ،

والناس مطرقون لاجلاله ، فرآهم فاستدعاهم ، فلما انصرفوا سئل عنهم فأنشد :

وأُنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرءا لأشأ كله

أحامقة حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وقد يخرج الفطن اللبيب ، وينتج الطبن الأديب ، من الهزل السخيف ،

غرائب الجد الشريف : فالنار قد تلتظى من ناضر السلم .

ولما قال بشار بن برد :

كأن فواده كرة تترى حذار البين لو نفع الحذار

جفت عيني عن التغميض حتى كأنت جفونها عنها قصار

بروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار

قيل له من أين أخذت هذا ؟ قال من قول أشعب الطامع : مارأيت اثنين يساران

إلا ظننهما يأمران لى بشيء . وكان بين يدي مزيد المدينى جرة مغطاة ، فقال له بعض

جيرانه ما هذا ؟ فقال له يا أحمق فلم سترناه ! ! أخذه ابن الرومى فقال لمن سأله لم تلزم العمه ؟

يا أيها السائل لأخبره عنى لِمَ لا أزال معتجرا
أستر شيئاً لو كان يمكننى تعريفه السائلين ما ستر
وكان ابن الرومى أقرع الرأس ، وقد أخبر بعله ذلك فى قوله :

تعمت إحصانا لرأسى برهة من القريوما والحرور إذا سقع
فلما دعا طول التعمم لمتى فأزرى بها بعد الاصاله والقرع
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت على من الصلع
فيا لك من جان على جناية جعلت إليه من جنايته القرع
وأعجب شئ، كان دأى جعلته دوائى على عهد وأعجب بأن نفع

وقد يستجلب من الجديات الصريحة ، ظرائف المزيلات المليحة ، فقد قيل
على وجه الدم : من حفر لأخيه حفرة وقع فيها ، وقيل من سل سيف البغى قتل به ..
وقال ابن المعتز فى الفصول القصار : لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله ..
وأنشدوا لبعض الأعراب :

رمانى بأمر كنت منه ووالدى برىا ومن جال الطوى رمانى

والذى أنشده سيبويه - ومن أجل - والجال والجل والناحية والطوى البئر .
يريد رمانى بما عاد عليه ضره وشره كمن يرمى من بئر فيعود رمية عليه ، فانظر
إلى هذا المعنى كيف أخذه عبادة الخنث لما نكب المتوكل محمد بن عبد الملك
الزيات ورماه فى تنور كان ابن الزيات اتخذه لابن السباط المصرى وجعله كله
مسامير فاذا وقف الواقف لم يقدر يتحرك إلى ناحية إلا ضربته المسامير فلا يزال
قائماً حتى يموت . فاطلع عليه عبادة الخنث فقال له: أردت أن تحبى فى هذا التنور
فحبزت فيه فضحك المتوكل . فقال عبادة : هذا يا أمير المؤمنين مثل رجل كان
حفاراً للقبور مات فترت به واحدة من أصحابنا فقالت : أما علمت أنه من حفر
لأخيه حفرة يسقط فيها .

وكم ظريفة من الخطاب ، ومليحة من الجواب ، خلصت من الهلاك ، من

نصبت له الأشرار . وسلمت من الختوف ، من أصلت له السيوف . قال الأصمعي :
خرج الحجاج متصيداً ، فوقف على أعرابي يرعى إبلا وقد انقطع عن أصحابه ،
فقال : يا أعرابي كيف سيرة أميركم الحجاج ؟ فقال الأعرابي : غشوم ظلوم لأحياء
الله ولا يباه ، قال الحجاج : فلو شكوتموه إلى أمير المؤمنين ؟ فقال الأعرابي :
هو أظلم منه وأغشم عليه لعنة الله . قال فبينما هو كذلك إذ أحاطت به [جنوده]
فأومأ إلى الأعرابي فأخذه وحمل ، فلما صار معهم قال من هذا ؟ قالوا الأمير
الحجاج ، فعلم أنه قد أحيط به ، فحرك دابته حتى صار بالقرب منه فناداه أيها الأمير ،
قال ما تشاء يا أعرابي ؟ قال أحب أن يكون السر الذي بيني وبينك مكتوما ،
فضحك الحجاج وخلي سبيله . وخرج مرة أخرى فلقى رجلا . فقال : كيف سيرة
الحجاج فيكم ؟ فستمه أقبح من شتم الأول حتى أغضبه فقال : أتدرى من أنا ؟
قال ومن عسيت أن تكون ؟ قال أنا الحجاج ، قال أو تدرى من أنا ؟ قال ومن
أنت ؟ قال أنا مولى بنى عامر أجن في الشهر مرتين هذه إحداهما . فضحك وتركه .
وقدم المهدي المدينة فخرج ليلة إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفيا
ايصلي فينما هو كذلك إذ جاء مدني فقام إلى جانبه يصلي ، فلما قضى صلاته قال
للمدني : أقدم خليفتك ؟ قال نعم ! فعل الله به وفضل وأراحنا منه ، وجعل يدعو
على المهدي وانصرف ، فدخل عليه الربيع فقال ياربيع جلس إلى جانبي البارحة
مدني فما ترك دعاء إلا ودعا به علي ، فقال أتعرفه ؟ قال نعم إذا رأيته ! ثم ركب
المهدي واجتمع أهل المدينة ينظرون فوقعت عينه على الرجل ، فقال ياربيع
ألا ترى الرجل الذي صفته كذا وكذا هو ذاك صاحبي ، فأمر به الربيع فأخذ ،
فلما رجع المهدي دعابه . فقال : يا هذا هل أسأت إليك قط ؟ [قال لا] قال فهل
لك مظلمة تطالبني بها ؟ قال لا ، قال فما دعاؤك علي حين صليت إلى جانبي ؟
فقال المديني : والله فديتك وعنتي ما أملك وامرأتني طالق إن لم أكن أغير كنتي
في اليوم مرتين وثلاثا لللال . فضحك المهدي وأحسن صلته . وخرج ابن أحمد

المدني أيام العصبية [إلى] أذربيجان فلقه فرسان فسقط في يده فقال الساعة
يسألوني من أنا؟ وأخاف أن أقول مضري وهم يمانية ، أو يمانى وهم مضرية
فيقتلونني ، فتربوا منه ، وقالوا : يا قتي ممن أنت ؟ قال ولد زنا عافاكم الله ،
فضحكوا منه وأعطوه الأمان فأخبرهم بنفسه ، فأرسلوا معه من يوصله إلى مقصده .
وخرج الربيع من عند أبي جعفر عبد الله المنصور فقال : أمير المؤمنين يسأل من
يعرف من يشبه من خلفاء بني أمية أن يذكر ما عنده ، فقال أبو بكر بن عياش
المتوف : أنا أعرف ذلك ، ولكن لا أقول إلا مشافهة ، فدخل ثم خرج فقال :
أمير المؤمنين يقول لك : قد علمت أنك إنما تطلب الدخول لتتوسل إلى أموالنا ،
فادخل . فدخل فقال له : من أشبه من خلفاء بني أمية ؟ فقال عبد الملك بن مروان .
قال : كيف قلت ذلك ؟ قال لأن أول اسمك عين وهو أول اسمه عين ، وأول
اسم أبيه ميم وأول اسم أبيك ميم ، وقتل ثلاثة أول أسمائهم عين وكذلك أنت ،
قال : ومن قتل ؟ قال عبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ،
وعمر بن سعيد بن العاص ، وقتلت يا أمير المؤمنين عبد الرحمن بن مسلم
— يريد أبا مسلم الخراساني — وعبد الجبار بن عبد الرحمن الخارجي ، قال :
وأردت أن أقول ، وقتلت عبد الله بن علي عمك فعرفت أنه يكره ذلك ، لأنه
أسقط عليه البيت الذي كان فيه ، وادعى أن البيت سقط ، وقد كان
عيسى بن موسى يسام في نزع البيعة ، وهو مضيق عليه ، فقلت وسقط
الحائط على عبد الله بن علي ، قال فالحائط سقط عليه فما علينا ؟ فقلت لاشيء
يا أمير المؤمنين . وها هنا حائط آخر مائل على عين أخرى وهو عيسى بن موسى
إن لم تدعوه بفضلكم خفت أن يسقط . فضحك ثم قال : أولى لك . وخرج
الأمون منفردا فاذا بأعرابي فسلم عليه . فقال : ما أقدمك يا أعرابي ؟ قال الرجاء لهذا
الخليفة وقد قلت أبياتا استمطر بها فضله ، قال أنشدنيها ، قال ياركيك أو يحسن أن
أنشدك ما أنشد الملوك ؟ ! فقال يا أعرابي إنك لن تصل إليه ولن تقدر مع امتناع

أبوابه وشدة حجابها ، ولكن هل لك أن تنحلنيها وهذه ألف دينار فخذها
وانصرف ودعني أتوصل ، لعل أتوصل ؟ قال لقد رضيت ، فبينما هما في المراجعة
إذ أحدثت الخيل به وسلم عليه بالخلافة ، فعلم الأعرابي أنه قد وقع ، فقال
الأعرابي : يا أمير المؤمنين أتحفظ من لغات اليمين شيئاً ؟ قال نعم ! قال فمن يبدل
القاف كافاً ؟ قال بنو الحارث بن كعب ، قال لعنها الله من لغة لا أعود إليها بعد
اليوم ^(١) فضحك المأمون وأمر له بألف دينار . وغنى مخارق بحضرة المأمون أبيات
مسكين الدارمي وذهب عنه معناها وفيمن قيلت ، وهي :

على الطائر الميمون والسعد إنه لكل أناس أنجم وسعود
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
إذا المنبر الغربي خلى مكانه فإن أمير المؤمنين يزيد

وابن عامر : - هو عبد الله بن عامر بن كريز ، ومروان بن الحكم بن
أبي العاص ، وسعيد بن العاص ، وهؤلاء شيوخ بني أمية والمنتشرون للخلافة
بعد معاوية ، وعمرو بن سعيد بن العاص هو الأشدق وطلب الخروج على عبد الملك
ابن مروان فقتله فلما بلغ مخارق إلى آخر البيت الأخير وهم أن يقول يزيد استيقظ ،
فقال : مخارق ، فضحك المأمون وقال لو قلت يزيد ماعشت .

وكم صرفت الملح من مخوف ، وأنقذت من ملهوف . قال عيسى بن يزيد بن
داب : أرسل يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن جعفر في جارية له مغنية يسأله
إياها ؛ فقال له الرسول : أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك فلانة أعجبتني
ويجب أن تؤثرني بها . فقال عبد الله لمولاه بديح المليح : أى شئ يقول ؟ قال بديح
فقات له يقرئك السلام ويقول كيف بت في ليلتك هذه ؟ قال يقول عبد الله :

(١) يشير إلى قوله : يا ركيك - ويريد أن يقصد بذلك يارقيق وذلك من
حسن التخلص .

أقرىء أمير المؤمنين السلام . فقال الرسول : ليس كذا قلت ولا له جئت ، فقال ما يقول ؟ فأعاد بديح القول ، فخرج الرسول مغضباً ومضى إلى يزيد فقال : يا أمير المؤمنين بلغت ابن جعفر رسالتك وإلى جنبه رجل مجنون ما أدرى كيف هو يحكى خلاف ما أقول ! فقال على بن أبي طالب ، قال بديح : فذهب بي إليه فلما دخلت شتمنى وقال تصنع هذا ؟ ! فقلت يا أمير المؤمنين متى عهدك بابن جعفر لا يسمع ؟ إقباله على يسألنى منع بجاريته وبخل بها ؛ كره أن يعطيكمها لحبته لها فما ذنبى أنا ؟ ! فضحك يزيد وقال : لعل الشيخ ضنين بجاريته .

وكان المأمون قد حرم الغناء وشدّد فيه فلقى على بن هشام اسحاق بن إبراهيم الموصلى على الجسر فقال اسحاق لعلى بكلام يخفيه : قد زارتنى اليوم فلانة وهى أطيب الناس غناء فبحياتى إلا كنت اليوم عندى ، فوعده بالحضور وتفرقا ، وإذا بطفلى يسمع كلامهما فضى من وقته فلبس ثياباً حسنة واستعار من بعض إخوانه بغلة فارهة بسرجهما ولجامها فركبها وأتى باب على بن هشام بعد أن نزل من الركوب بساعة فقال للحاجب : عرف الأمير أن رسول صاحبه اسحاق بن إبراهيم بالباب ، فدخل الحاجب وخرج مسرعاً وقال أدخل جعلت فداك ، فدخل على على فرحب به ، فقال له ياسيدى يقول لك أخوك تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عني ؟ فقال له الساعة وحياتك نزلت من الركوب والساعة أغير ثيابى وأوافيه ، فاستوى على دابته ووافى منزل اسحاق فقال للحاجب : عرف الأمير إنى رسول على بن هشام ، فدخل الحاجب وخرج فقال ادخل ! جعلنى الله فداك فدخل فسلم وقال : أخوك يقرئك السلام ويقول لك الساعة نزلت من الركوب وقد غيرت ثيابى وتأهبى للسير فما ترى ؟ فقال قل له ياسيدى قتلتنا جوعاً فبحياتى إلا ما حضرت ، فرجع إلى باب على وقال للحاجب : تعرفه أن الأمير أمرنى أن لا أبرح أو يجىء معى فخير على بن هشام ثيابه وركب دابته وتبعه الطفيل حتى نزل بباب اسحاق ابن إبراهيم ونزل الطفيل معه ، ودخلا جميعاً فسلما وجلسا ، وجىء بالطعام

فأكلوا ، وإسحاق لا يشك أنه أخص الناس بعلي وعلى لا يشك أنه أخص الناس بإسحاق ، ثم غسلوا أيديهم وقدموا الشراب وخرجت جارية من أحسن الناس وجهاً وزياً ، فجلست وأوتيت بعود فغنت أحسن غناء ، ودارت الأقداح فلم يزالوا على ذلك إلى بعد العصر ، وأخذ الطفيلي البول حتى كاد يأتي على ثيابه فصبر جهده فلما عيل صبره قام فدخل الخلا ، فقال على لإسحاق : ياسيدي ما أخف روح هذا الفتى وأحلى نوادره فمن أين وقع لك ؟ قال أو ليس هو صاحبك ؟ ! قال لا وحياتك ولا رأيته قبل يومى هذا ، قال فانه جاءنى برسالتك وقص قصته وقص اسحاق مثلها وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه وقال طفيلي يستجربى . على وعلى النظر الى حرمى والدخول الى دارى !! يا غلمان السياط والعقاين ، المقارع والجلادين ، فقامت فى الدار جلبة وأحضروا جميع ذلك والطفيلي يسمع وهو فى الخلا ، ثم إنه خرج رافعا ثيابه غير مكترث بما فعلوه وهو مقبل على تكة لباسه يشدها ويتمشى فى صحن الدار وهو يقول : جعلت فداك إيش بقى من جهدك فهل عرفتنى مع هذا كله ؟ فقال اسحاق ومن أنت ؟ فقال أنا صاحب خبر أمير المؤمنين وعينه على سره ، والله لولا تحرمى بطعامك ومما لحتى لتركتكما فى عمى من أمرى حتى كنت تعرف عاقبة حالك وإقدامك على ما فيه هلاكك وفساد أمرك ، فقام اليه اسحاق وعلى يسكتانه وقال له : يا هذا إننا لم نعرفك ولم نعلم حالك ولك الفضل علينا ، وأنت المحسن الجميل إلينا ، ولكن تم إحسانك بترك ما نحن عليه . ثم قال اسحاق : يا غلام الخلع فأتى بتياب فاخرة فصبت عليه وتقدم بأسراج دابة هملاج بسرج مخفف ولجام حسن ؛ ولم يزالا به حتى طابت نفسه ووعدهما كتمان أمرهما ، وحضر وقت الانصراف فودعهما وانصرف ، فأتبعه اسحاق بخادمه معه صرة فيها ثلاثمائة دينار فأخذها وركب الدابة ومضى . فلما كان من الغد دخل على بن هشام على المأمون . فقال : يا على كيف خبرك أمس ؟ — على حسب ما يجرى السؤال عنه — فتغير لونه ولم يشك فى أن الحديث رفع اليه ، فأكب على البساط يقبله وقال :

يا أمير المؤمنين العفو ، يا أمير المؤمنين الأمان قال : لك الأمان فأخبره بالقصة من أولها الى آخرها فضحك المأمون حتى كاد يغشى عليه وقال ما في الدنيا أملح من هذا ، ووجه خلف اسحاق فلما حضر قال : هيه يا إسحاق ؟ كيف كان خبرك أمس ؟ فأخبره كخبر على بن هشام والمأمون يضحك ثم قال : يا اسحاق بحياتي اطلب الرجل وجئني به ، فلم يزل يطلبه حتى وجده ، فكان أحد ندماء المأمون . ولما ظفر سليمان بن حسن الجنابي^(١) يوم الهبير بالحجاج وقتلهم فأخذ أموالهم كان في جملة ما أخذ احمال فيها من رفيع البز والمثقل وظريف الوشي والمصمت ما أعجبه وأبهته . فقال على بصاحب هذه الاحمال قال صاحبها فأتيته فقال : ما منعك أن يكون ما جئت به أكثر من هذا ؟ فقلت لو علمت أن السوق بهذا النفاق لفعلت ، فاستظرفني ودفع اليّ مالا وجميع ما أخذ لي وأرسل معي من يحفظني حتى وصلت . وكان أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات الوزير المعروف بابن حنزابة - وحنزابة أمه رومية ولها من العقول والحزم ما نوه باسمها - قد اقتطع في أيام الاخشيذ قيمة مائة الف دينار في أمور تولاهالها ، فحاسب أبا زكريا النصراني المعروف بحبوسة وكان على الخراج فألزمه عشرة آلاف دينار وطالبه بها ، فقال أعز الله الأمير وهل قامت على حجة يلزمني بها الأداء ؟ قال : هو ما أقول لك يا لص ، فقال : إنما هو لصيص ، فضحك وتركه .

وكم أفادت من الرغائب ، وبلغت من المطالب ، ورفعت من لا قدم لقدمه ، ولا أمس ليومه . كما حكى أبو الحسن المدائني قال : كان بالبصرة ثلاثة اخوان يتعاشرون ولا يفترقون ، اثنان شاعران والآخر منجم لا يحسن شيئا ، ففنى ما بأيديهم فخرج الشاعران الى بغداد فمدحا من كان بها من الاشراف فرجعا وقد اعتقدا أموالا نفيسة وبقي صاحبهما في فقره ، فقالا له : لو ذهبت فتسببت ؟ فقال

(١) في الأصل : الحنابي (مهملة من الاعجام) وهو أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي كبير القرامطة .

مالى صناعة ولا عندى بضاعة ، فقالا على كل حال معك ظرف ولك لطف ، فخرج إلى بغداد واتصل بيقطين بن موسى وقال : ما أتيت اليك بشيء غير أنى أ كذب الناس ، فضحك وغم على قلبه فكان فى جملة حاشيته ، فضضب المهدي على عبد الله بن مالك الخزاعى فأثاه الرجل وهو من المهدي فى أشد السخط وقد ألزمه داره ، فقال للحاجب استأذن على الأمير وقل له رسول الأمير يقطين بالباب ، فدخل وخرج له بالأذن فدخل . وقال : الأمير يقول لك اليوم كنت عند أمير المؤمنين فذكرته سالف حقوقك وقديم خدمتك ، فعفا عنك وأمرك بالركوب غدا ليخضع عليك ويحدد الرضا عنك بمحضر الناس ، فسر عبد الله بذلك ودفع الى الرجل مالا وبكر الى دار المهدي ، فاستأذن عليه فلما دخل قال : ما جاء بك قبحك الله وقد أمرناك بلزوم دارك ؟ قال أو ما رضيت عنى يا أمير المؤمنين وأمرت يقطينا باحضارى ؟ فقال إذا لا رضى الله عنى ولا خطر هذا بقلبي ، قال فرسوله أتانى بذلك ، قال على يقطين فأتى به فقال : أتكذب على وتحكى على ما لم أقله ؟ قال وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال زعمت أنى رضيت عن هذا ، فقال يقطين وأيمان البيعة يا أمير المؤمنين إن كنت سمعت بشيء من هذا أو قتله ، قال عبد الله بل أتانى رسولك فلان ، فبعث خاف الرجل بحضرة المهدي فلما حضر قال : ما هذا الذى فعلت ؟ قال يا سيدى هذا بعض ذلك المتاع بدأت فى نشره خوفا عليه من السوس ، فقال المهدي ما يقول ؟ فأخبره يقطين بأول أمره معه ، فضحك المهدي وجدد الرضا عن عبد الله بن مالك ووصل الرجل بصلة جزيلة ، ووصله عبد الله بأوفر صلة ، فانصرف الى صاحبيه واسع النعمة عظيم المال .

وهل يستغنى أهل الأدب وأولوا الأرب عن معرفة ظريف المضحكات ، وشريف المفاكهات ، اذا لاطفوا ظريفا ، أو ما زحوا شريفا . فقد قال الأصمعى : بالعلم وصلنا وبالملاح نلنا . وروى أبو هفان قال : دخل أبو نواس على يحيى بن خالد فقال له : يا أبا على أنشدنى بعض ما قلت فأنشده :

كم من حديث معجب لي عندك لو قد نذرت به إليك لسركا
إني أنا الرجل الحكيم بطبعه ويزيد في علمي حكاية من حكى
أتبع الظرفاء اكتب عنهم كما أحدث من أحب فيضحكا
فقال له يحيى : يا أبا علي إن زندك لتورى بأول قدحة . فقال : ارتجالا في معنى
قول يحيى :

أما وزند أبي على أنه زند اذا استوريت سهل قد حكا
ان الآله لعلمه بعباده قد صاغ جدك للسباح ومن حكا
تأبى الصنائع همتي وقرىحتي من أهلها وتغاف إلا منعكا
وحضر الجمار مع أبي نواس مجلس قينة فاقبل الجمار يخالجها ويمارحها وأبو نواس
ساكت فالت اليه فقال الجمار :

أبو نواس جذره شعره وجذرنا حسن الحكايات
فجذرنا أكثر من جذره مدًا على أهل المروءات
فقال أبو نواس :

صدق لا تنكر هذا كما أمك رأس في المناحة
فأقبلت القينة على أبي نواس وغنت ، فقال لها الجمار : ما سمعت والله أحسن
من هذا ، فقال أبو نواس : ولا نواح أمك إلا أن يكون عليك فانه والله أحسن .
وكانا يصطحبان وهما حدثان وأمه أدين النائحة وله يقول أبو النواس :
اسقنى يا ابن أدين من سلاف الزرجون
وقال أبو ذؤيب في الملح :

وسرب تطلى بالعبير كأنه دماء ظباء بالبخور ذبيح
بدلت لمن القول إنك واجد لماشئته حلو الكلام مايج
فأمكنه مما يقول وبعضهم شقى لدى جيرانهن يطيح

يريد : أن الملاحاة نقصته عندهن حتى أمكنه مما يريد .

وقال أعرابي :

ألا زعمت عفراء بالشام أننى غلام جوار لا غلام حروب
وإني لأهدى بالأوانس كالدمى وإني بأطراف القنا للعب
وإني على ما كان من عنجهيتي ولوثة أعرابيتي لأديب
كان الأدب غريبة عند العرب فافتخر بما عنده منه ، وأنه يرجو به القربى
ويأمل به الزلفى .

ورب مجلس فض فيه ختام النشاط ، ونشر بساط الانبساط ، وفيه بغيض
لا يفيض بقدر في مزح ، قد ثقل ظله ، وركد نسيمه ، وجد هواه ، وغارت
نجومه ، فاستنقله من حضر ، وعاد صفوهم إلى كدر ، وأنكرت مجالسته ، إذ
حققت مؤانسته ، ولو كانت له دراية ، أو معه رواية ، أو عنده حكاية ، ما كان
كما قال الشاعر :

مشتعل بالبغض لا تنثنى إليه بغضاً لحظة الراق
يظل في مجلسنا جالساً أثقل من واش على عاشق
ولا كما قال الحمدوني لبعض الثقلاء :

سألتك بالله إلا صدق توعلى بأنك لاتصدق
أتبغض نفسك من بغضها وإلا فأنت إذاً أحق

وقال أبو علي العتابي حدثني الحمدوني قال : بعث إلى أحمد بن حرب المهلبى
في غداة السماء فيها مغيمة فأتيته والمائدة مغطاة موضوعة وقد وافت عجاب المغنية
قبلى فأكلنا جميعاً وجلسنا على شرابنا فما راعنا إلا داق يقرع الباب . فأتاه الغلام
فقال بالباب فتى ظريف من آل المهلب ؛ فقلت ما تريد غير ما نحن فيه ، فأذن
له فجاء يخطو وقدامى قدح فيه شراب فكسره ، وإذا رجل آدم أدلم ضخم فتكلم
فاذا به عيا دون الناس ، وتخطى وجلس بينى وبين عجاب ، فدعوت بدواة
وقرطاس وكتبت :

كدر الله عيش من كدر العيد ش وقد كان سائفاً مستظايا

جاننا والسماء تؤذن بالغيث وقد ضايق السماع الشرابا
كسر الكأس وهي كالكوكب الدرى ضمت من المدام لعابا
قلت لما رميت منه بما أكره والدهر ما أفاد أصابا
عجل الله غارة لابن حرب تدع الدار بعد شهر خرابا
ودفعت الرقعة إلى أحمد فقرأها وقال : ويحك هلا نفست ؟ فقلت بعد حول ،
قال قلت إنما أردت أن أقول بعد يوم ولكن خفت أن تلحقنى مضرتي . وفطن
الثقل فنهض ، فقال لى آذيتي ، فقلت بل هو آذاني .
وهذا لعمرى وإن أساء فى قدميه وإقدامه ، فقد أحسن فى نهوضه وقيامه ،
وقد قال الشاعر :

ولما تخوفت ولا لوم أن تدبر من وذك بالمقبل
أقلت من إتيانكم إنه من خاف أن يثقل لم يتقل
وكان يجالس أبا عبيدة معمر بن المثنى رجل ثقیل اسمه زنباع ، فكان
كالشجى المعارض فى حلقه يتناكده ويسىء خلقه ، فلا يتكلم أبو عبيدة
بكلمة إلا عارضه بكثرة جهله ، وقلة عقله ، فقال رجل لأبى عبيدة : مم اشتقت
الزنبعة فى كلام العرب ؟ فقال من الثاقل والتباغض ومنه سمى جليسننا هذا زنباعا .
وامتنحن أبو عبد الرحمن العتي بمثل ذلك من رجل ، فلما طال عليه أنشده :
أما والذى نادى من الطور عبده وأنزل فرقاناً وأوحى إلى النحل
لقد ولدت حواء منك بلية على أقاسيها وثقلا من الثقل
وانحدر خالد بن صفوان مع بلال بن أبى بردة إلى البصرة ، فلما اقتربا من
البطيحة قال بلال لخالد : أتستقل حكاية النيرى ؟ قال كدت والله أيها الأمير
تصدع قلبى ؛ حين دنونا من آجام البطيحة ، وعكر البصرة ، وغشاء البحر ، ذكرت
لى رجلا هو أثقل على قلبى من شرب الأيارج بماء البحر بعقب التخمه ، وساعة
الحجامة . وكان عكابة بن غيلة هذا أهوج جاهلا ودخل على بلال فرأى ثورا

مجللا ناحية الدار فقال : ما أفره هذا البغل إلا أن حوافره مشقة !!
— وترك بعض الظرفاء النبذ فتحاماه معاشروه خوفا أن يكون ما أحدث من
الترك دعاه إلى زيادة النسك ، وأوجب له الاتقباض والاعراض عما كانوا معه
فيه يفيضون ويخوضون فقال :

تحاموني لتركي شرب راح وقالوا يشرب الماء القراحا
وما انفردوا بما دوني لفضل إذا ما كنت أكثرهم مزاحا
وأرقصهم على وتر وصنج وأظرفهم وأطفهم مزاحا
إذا شقوا الجيوب شقت جبي وإن صاحوا علوتهم صياحا
وقال الفتح بن خاقان : مارأيت أحلى من ابن أبي دؤاد كنت يوماً لأعب
المتوكل الشطرنج ، فاستؤذن له وهو يومئذ قاضى القضاة لم يتغير عما كان عليه أيام
الوائق بعد وله جلالة الشرف والعلم ، فأمرنا بعض الغلمان يرفعها استحياء منه ، فقال له
المتوكل والله ما ترفع وما كنت لأستتر من ابن أبي دؤاد بشئ ، لأستتر به من الله
عز وجل ، فدخل وهى بين أيدينا ، فقال له المتوكل : أيها القاضى إن الفتح
استحيا منك فأراد رفع الشطرنج ، فقال : ما استحيامنى إنما كره أن أعلم عليه ،
فاستحلاه المتوكل وخف على قلبه .

ورب مستثقل ازور له الجناب ، وطال به الاجتناب ، كانت له الفكاهة من
أسباب الاقتراب . وذكر أن روح بن زنباع بعد ما بينه وبين عبد الملك بن مروان
حتى استثقل جانبه ، وأحس روح منه التغير . فقال لبعض جلساء عبد الملك :
إذا حضرنا مجلس الأتس عند أمير المؤمنين فسلنى هل كان ابن عمر يسمع المزاح ؟
فلما اجتمعوا سأل الرجل روحا فقال : نعم ! وإن أذن أمير المؤمنين تحدثت ،
فقال عبد الملك قل ، فقال : إن ابن أبى عتيق كان صاحب لهو وغزل على عفافه
وشرفه ؛ وكانت له امرأة من أشراف قريش ، ففاضبته فى بعض الأمر فقالت :
ذهب الآله بما تعيش به وقرت مالك أيما قمر

أنفقت مالك غير متشد في كل زانية وفي الحر

فكتب ابن أبي عتيق الشعر وخرج به في يده ، فلقى ابن عمر فقال : ما ترى
فمن هجاني في هذا الشعر ؟ فقال أرى أن تعفو وتصفح ، قال والله إن لقيت
قائلها لأنيكته ، فأخذ ابن عمر الأفكل ولبط به الى الأرض ، وقال : لا أكلمك
أبدا ، ثم لقيه بعد ذلك فلما أبصره ابن عمر أعرض عنه ، فقال له : بالقبر ومن
فيه إلا سمعت منى حرفين ، فولاه قفاه وأنصت له ، فقال علمت يا أبا عبد الرحمن
أنى لقيت قائل ذلك الشعر ونكته ؟ فصعق عبد الله وسقط على الأرض ، فلما
رأى ابن أبي عتيق ما حل به دنا من أذنه فقال : إنها امرأتى أعزك الله . فقام ابن عمر
قبله بين عينيه . فقال عبد الملك : ما أملكك يا روح ، إنك كل يوم لتأتينا
بطريفة . وكان روح مفرطا في الجبن فلما ولى عبد الملك أخاه بشرا على الكوفة ،
أصبحه روحا ، وقال له : يا بني روح مثل عمك فلا تقطع أمرا دونه لصدقه وعقابه
وصحبته لنا أهل البيت ، وقال لروح اخرج مع ابن أخيك ، فخرج معه وكان بشر
ظريفا أديبا ، يحب الشعر والسمر والسماع والشرب ، فراقب روحا وقال لأصحابه
أخاف أن يكتب بأخبارنا الى أمير المؤمنين ، فضمن له بعض ندمائه أن يكفيه أمره
من غير سخط ولا لائمة ، وكان روح غيورا اذا خرج من منزله أغلقه ثم ختمه
بجائحه حتى يعود فيفضه بيده ، فأخذ الفتى دواة وقلما وأتى ممسيا فقمعد بالقرب
من دار روح مستخفيا ، وخرج روح الى الصلاة فتوصل الفتى حتى دخل الدهليز
وكن تحت درجة فيه وكتب في الحائط :

يا روح من لبنيات وأرملة اذا نعاك لأهل المشرق الناعى
إن ابن مروان قدحانت منيته فاحتل لنفسك يا روح بن زنباع
فلا تفرنك أبكار منعمة فاسمع هديت مقال الناصح الداعى

ثم رجع الى مكانه من الدهليز ، فلما خرج روح من الفلج وتبعه غلماناه
خرج الفتى في جملتهم متنكرا وخلص ، فلما أسفر الصبح دخل روح فتأمل الكتابة

قراعه وقال : ما كتب هذا أنسى ، وما يدخل هذه الدار سوى ، ولاحظ لي
في المقام بالعراق ، ثم نهض من ساعته ودخل على بشر وقال : يا ابن أخي أوصني
بما أحببت من حاجة أو سبب عند أمير المؤمنين ، فقال له هل رأيت منا ما تكره ؟
أو أنكرت شيئا من سيرتنا فلم يسمعك المقام ؟ فقال : لا والله جزاك الله عن نفسك
وعن سلطانك خيرا ، ولكن حدث أمر لا بد لي من الشخوص فيه ، فأقسم
عليه ليخبره بالخبر ، فقال : إن أمير المؤمنين قد مات أو هو ميت ، فقال بشر :
ومن أين علمت ذلك فأخبره بخبر الكتابة وقال ليس يدخل دارى أحد غيرى ،
وما كتبه إلا الملائكة أو الجن ، فقال بشر : أقم فاني لأرجو أن لا يكون لهذا
حقيقة فأبى . وقدم على عبد الملك فقال له : ما أقدمك أنكرت شيئا من حال
بشر ؟ قال لا والله وذكر حسن سيرته وقال إنما جئت في أمر لا يمكننى ذكره
إلا خاليا ، فقال عبد الملك إن شئتم ، وخلا بروح فأخبره القصة وأنشده الأبيات ،
فضحك عبد الملك حتى فحص برجليه وقال ثقلت والله على بشر فاحتال عليك
ليخلو له أمره . قال اسحاق : حدثني رجل من قریش قال قال لى محمد بن خالد
القرشى ذكرت لى جارية مغنية عند أبى فلان القاضى فامض بنا اليه قال فصرنا
اليه واستأذنا فاذا هو يصلى ، فلما فرغ من صلاته قال : لأمر ما جئتم ؟ قلت فلانة ،
قال انلامه يا غلام على بفلانة اتمخرج ، فخرجت علينا جارية كأنها مها تتثنى
في مشيتها ، فلما قعدت وضع عود فى حجرها ، فحسته واندفعت تغنى :

عوجى على وسلمي جبر كيف الوقوف وأنتم سفر
ما نلتقى إلا ثلاث منى حتى يفرق بيننا النفر

فقام القاضى على أربعة . قال : أبحرونى فانى بدنة ، أهدونى فانى بدنة ، والله
لا أبيعها بئال يكال ، ولا بئال يوزن ، ولا بالخلافة ، ولا بالدنيا ، انصرفوا .
وأتى اسحاق بن ابراهيم الموصلى باب الفضل بن يحيى فحجبه خادم اسمه نافذ مرات
فلقية الفضل فقال مالك لا تأتينا يا اسحاق ؟ فقال أتيت أعز الله الأمير فحجبنى نافذ

قال فكه ، قال لا يمكنى ، فأتى بعد ذلك فحجبه فكتب إلى الفضل :
 جعلت فداك من كل سوء إلى حسن رأيك أشكو أناسا
 يحولون بينى وبين السلا م فلست أسلم إلا اختلاسا
 وأنفذت أمرك فى نافذ فما زاده ذاك إلا شماسا
 فلقبه بعد ذلك فقال : يا اسحاق أكان ما ذكرت ؟ فقال بعض ذلك أصلح الله
 الأمير ، فضحك وتقدم أن لا يحجبه أحد إن أراد الدخول ، وإنما كان الفضل
 استنقل اسحاق أبوا كان فيه ، وكان الفضل أكبر الناس كبراً ، وأعظمهم تعاظما .
 وقال بعض الشعراء :

وما على المرء ما لم يأت فاحشة فى لذة العيش لا عار ولا حرج
 يا أيها اللأئى فيما لهوت به عرج بلومك إني عنه منعرج
 فان كره قوم المزاح فقلول أكنم بن صيفى : المزاح يزيج بهجة الاشراف .
 وقال أبو سلبان الداراني : أنا أكره المزاح لأنه مزاح عن الحق . وقال الحسن
 البصرى : المزاح اختراع من الهواء . وقال زياد : من كثر مزاحه قل إلى النباهة
 ارتياحه . وقال عمر بن عبد العزيز : إياك والمزاح فانه يحجر القبيجة ، ويورث
 الضغينة . وقال الأحنف : ان يسود مزاح ، ولن يعظم مفاكه . وقال سميد بن
 العاص لابنه : لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنيا فيجترى عليك .
 وقال أبو نواس :

صار جداً ما مزحت به رب جد ساقه اللعب
 وقال ابن المعتز : من كثر مزاحه لم يحل من استخفاف به ، أو حقد عليه ،
 فانما ذلك إذا كان المزاح [غالباً] على المرء وكان المرء فيه غالباً يجريه فى كل
 مكان . ومع كل إنسان . وقد قال عمر رضى الله عنه للأحنف : من كثر ضحكك
 قلت هيبتك ، ومن أكثر من شئ عرف به ، ومن كثر مزاحه كثر سقطه ومن
 كثر سقطه قل ورعه ، وذهب حياؤه ، ومن ذهب حياؤه مات قلبه .
 أو ينزله المازح تعريضاً بالمعائب ، وتنبيهاً على المثالب ، فذلك المكروه

الذميم وصاحبه الملووم المليم ، لم يرد قال خالد بن صفوان : يسعط أحدكم أخاه بمثل الخردل ، ويقرعه بمثل الجندل ، ويفرغ عليه بمثل الرجل ، ويقول إنما كنت أمزح . وقال محمود الوراق :

تلقى الفتى يلقي أخاه وخدنه في لحن منطقته بمالا يذكر
ويقول كنت ممزحاً ومداعباً هيهات تارك في الحشا تسعر
أوما علمت وكان جهلك غالباً إن المزاح هو السباب الأصغر

وقال ابن الرومي :

حبذا حشمة الصديق إذا ما حجزت بينه وبين العقوق
حين لا حبذا انبساط يؤديه إلى ترك واجبات الحقوق
أين منجاتنا إذا ما لقينا من مسيغ الشجاشجي في الخلق

وإلا فقد قالوا : لا بأس في المزاح بغير ريبة . وكان يقال : المزاح من أخلاق ذوى الدثامة . روى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : من كانت فيه دعابة فقد برىء من الكبر . وقد قيل : الممازح يقرب من ذى الحاجة إليه ، ويمكن من الدالة عليه . وما زال الأشراف يمزحون ويسمحون بما لم يفض من دياناتهم ، ولا يقدح من روايتهم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال عليه الصلاة والسلام : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً »

فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ماروى أنس بن مالك قال : كان لنا أخ يكنى أبا عمير . وكان له نفر يلعب به ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه حزينا فقال : « ماله ؟ » قالوا مات نفره ، فكان إذا رآه بعد ذلك قال : « يا عمير ما فعل النفر » وكان رجل من أشجع يقال له زاهر بن حزام لا يزال يأتى النبي صلى الله عليه وسلم بالهدية من البادية والطفرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن زاهرا باديتنا ونحن حاضروه » فبينما هو في بعض أسواق المدينة إذ أتاه النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه فاحتضنه وقال : « من يشتري منى هذا العبد ؟ » فالتفت

الرجل فاذا هو برسول الله صلى الله عليه وسلم . فقبل يده وقال : تجدني كاسداً يارسول الله . فقال : « لا لكنك عند الله ربيع » وأتت إليه صلى الله عليه وسلم امرأة فذكرت زوجها بشئ . فقال : « زوجك الذي في عينه بياض » قال فمضت . فجعلت تتأمل زوجها فقال مالك ؟ قالت قال لى النبي صلى الله عليه وسلم إن في عينك بياضاً ، فقال : بياض عيني أكثر من سوادها .

وأما سماعه صلى الله عليه وسلم لذلك فقد روى : أن صهيياً دخل عليه وعينه وجعة وبين يديه تمر ، فأقبل صهيب يأكل فقال : « أتنا كل التمر وعينك وجعة ؟ » فقال إنما آكل بحذاء العين الصحيحة . فتبسم صلى الله عليه وسلم . وذكروا أن أعرايياً أتاه فألفاه مغموماً ممتنع اللون ، فقيل له لاتكلمه وهو على هذه الحالة ، فقال : لا أدعه أو يضحك . ثم جثا بين يديه فقال : يارسول الله بأبي أنت وأمي إن الدجال يخرج وقد هلك الناس جوعاً فيأتيهم بالثريد . فترى أن آكل من ثريده حتى إذا تضلعت كذبتة ؟ فضحك صلى الله عليه وسلم وقال : « يغنيك الله بما يغني به المؤمنين حينئذ » وقالت أم سلمة : خرج أبو بكر رضى الله عنه في تجارة إلى البصرة قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سويبط بن حرملة - وكان قد شهد بدرًا - ونعيان ، وكان سويبط على الزاد ، وكان نعيان مزاحاً ، فقال له نعيان أطعمني ، فقال : حتى يحىء أبو بكر ، فقال أما لأغيطانك ، فمروا بقوم فقال نعيان : أشترون منى عبداً ؟ فقالوا نعم ! فقال إنه عبد له كلام وهو قاتل لكم إنه حر فاذا قال هذه المقالة تركتموه فلا تفسدوا على عبدى ، فقالوا بل نشتره ، قال فاشتروه منى بعشرة قلائص ، ثم أخذوه فوضعوا في عنقه حبلاً ، فقال سويبط : إني حر ولست بعبد وهذا يستهزى بكم ، فقالوا له قد خبرنا خبرك ، فانطلقوا به فجاء أبو بكر فأخبروه الخبر فاتبع القوم فرد عليهم القلائص وأخذ منهم سويبطاً ، ولما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه الخبر ، ضحك صلى الله عليه وسلم وأصحابه حوله . وكان سويبط قد كف بصره بعد رسول .

الله صلى الله عليه وسلم ، فلقية نعيمان في المسجد وهو يقول : من يخرجني حتى أبول ؟ قال أنا ، وأخذ بيده فمضى به إلى زاوية في المسجد عامرة بالناس فقال له بل ههنا ، فلما كشف ثوبه صاح الناس عليه من كل ناحية ، فقال : من غرني ؟ قالوا نعيمان ، فقال لله على لئن لقيتك لأضربنه بعصاى ، فلقية بعد أيام فقال : أتحب أن أدلك على نعيمان لتوفى نذرك ؟ قال نعم لله أبوك ! فأخذ بيده حتى أتى عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو يصلى فقال هذا هو ، فرفع عصاه وضربه فصاح به الناس وقالوا : أوجعت أمير المؤمنين ، فقال من قاذنى ؟ قالوا نعيمان ، قل لا يغرنى بعدها . وابتاع عبد الله بن رواحة جارية وكنم ذلك امرأته ، فبلغها ذلك فالتحست كونه عندها فأخبرت بذلك ، فلما جاءها قالت له بلغنى إنك ابتعت جارية وأنت الساعة خرجت من عندها وما أحسبك إلا جنباً ؟ قال ما فعلت ، قالت : فاقرأ آيات من القرآن فقال :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحملة ملائكة شداد ملائكة الآله مقرينا •

فقلت أما إذ قد قرأت القرآن فقد علمت أنك مكذوب عليك ، وافتقدته ليلة أخرى فلم تجده على فراشها ، فلم تزل تطلبه حتى قدرت عليه في ناحية الدار ، فقلت الآن صدقت ما بلغنى فمجدها ، فقلت : إقرأ آيات من القرآن ، فقال :

وفينا رسول الله يتلو كتابه كما انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهندي بعد العبي فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبست يجافى جنبه عن فراشه إذا أثقلت بالمشركين المضاجع
واعلم علماً ليس بالظن أننى إلى الله محشور هناك فراجع

فقلت آمنت بالله وكذبت ظنى ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم . فضحك وقال : « هذا لعمرى من معاريض الكلام ، يغفر الله لك يا ابن رواحة

خياركم خيركم لنسائكم . وقال العجاج أنشدت أبا هريرة :

طاف الخيالان فهاجا سقما خيال سلمى وخيال تكتما

قامت تريك رهبة أن تصرما ساقا بخنداة وكعبا أدرما

فقال أبو هريرة : قد كان يحدى بها ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينكر . وقيل لابن سيرين : إن قوماً يرون إن انشاد الشعر ينقض الوضوء فقال :

نبت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

ثم قال : الله أكبر ودخل في الصلاة . وسئل عن ذلك مرة أخرى وقد استفتح الصلاة فأنشد للأعشى :

وتسخن ليلة لا يستطيع نباحها الكلاب إلا هريرا

وتبرد برد رداء العرو س بالصيف رقرقت فيه العيرا

ثم كبر وصلى . وقال جرير بن حازم : كنت في مسجد الجهاضم فقرضت بيت شعر فقالوا : ما نراك إلا قد أحدثت فتوضاً ، فدعرتني قولهم فأتيت ابن سيرين وقد قام إلى الصلاة فقالت : رويك يا أبا بكر فقال مهمم ؟ فعرفته فقال : هلا وددت عليهم :

ديار لرملة إذ عشنا بها عيشة الأنعم الأفضل

وإذ ودها فارغ للصدى ق لم تتغير ولم تبدل

كان الثلوج وماء السحا ب والقرقية بالفل

وماء القرفل والزنجية ل شيب به ثمر السنب

يصب على برد أنيابها قبيل الصباح ولم ينجل

ثم قال : الله أكبر . وقيل لابن سيرين أنشد الفرع من الشعر واصل ؟ فقال :

وانت لو باكرت مشمولة صفراء مثل الفرس الأشقر

رحت وفي رجلك ما فيها وقد بداهتك من المثر

وهاهنا مساجلة جرت بين أبي بكر محمد بن القاسم الانباري وأبي العباس

ر عبد الله بن المعتز ، لها في هذا الموضع موقع وهي طويلة اختصرت منها موضع الحاجة .
 كتب ابن الأنباري إليه : جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانيء والشعر
 الذي قاله في المجون وأنشده وهو يؤم قوما في صلاة ؛ وهو إن لكل ساقطة لاقطة ،
 وإن لكلام القوم رواة ، وكل مقول محمول . فكان حق شعر هذا الخليع أن لا يتلقاه
 الناس بالسنتهم ، ولا يدونونه في كتبهم ، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم ، لأن
 ذوى الأقدار والأسنان يحلون عن روايته ، والاحداث يفشون بحفظه ، ولا ينشد
 في المساجد ، ولا يتحمل بذكره في المشاهد ، فإن صنع فيه غناء كان أعظم لبلبته
 لأنه إنما يظهر في غلبة سلطان الهوى ، فيهيج الدواعي الدنيئة ، ويقوى الخواطر
 الرديئة ، والإنسان ضعيف يتنازعه على ضعفه سلطان القوى ، ونفسه الأماراة
 بالسوء ، والنفس في انصبابها إلى لذاتها بمنزلة كوة منحدره من رأس رابية إلى
 قرار فيه نار ، إن لم يحبس بزواج الدين والحياء أداها انحدارها إلى ما فيه هلكتها .
 والحسن بن هانيء ومن سلك سبيله من الشعر الذي ذكرناه شطّار كشفوا للناس
 عوارهم ، وهتكوا عندهم أسرارهم ، وأبدوا لهم مساوئهم ومخازيهم ، وحسنوا ركوب
 القبائح . فعلى كل متدين أن يذم أخبارهم وأفعالهم ، وعلى كل متصور أن يستقبح
 ما استحسّنه ، ويتنزه من فعله وحكايته . وقول هذا الخليع : ترك ركوب المعاصي
 ازراء بعفو الله تعالى ، حض على المعاصي أن يتقرب إلى الله عز وجل بها تعظيما للعفو ،
 وكفى بهذا مجونا وخلعا داعيا إلى التهمة لقائله في عظم الدين ، وأحسن من هذا
 وأوضح قول أبي العتاهية :

يخاف معاصيه من يتوب فكيف ترى حال من لا يتوب

فأجابه ابن المعتز : لم يقل أبو نواس ترك المعاصي ازراء بعفو الله تعالى ، وإنما
 حكى ذلك عن متكلم غيره ، والبيت الذي أنشده بحضرتنا :

لا تحظر العفو إن كنت امرءا حرجا فان حظرك بالدين ازراء

وهذا بيت يجوز للناس جميعا استحسانه والتثل به ، ولم يؤسس الشعر بانيه

على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق ولم يقو بصبوة ، ولم يرخص في هفوة ، ولم ينطق بكذبة ، ولم يفرق في ذم ، ولم يتجاوز في مدح ، ولم يزور الباطل ويكسيه معارض الحق ، ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين ؛ أمية بن أبي الصلت الثقي ، وعدى بن زيد العبادي ، إذ كانا أكثر تذكيرا وتحذيرا ومواعظ في أشعارهما من امرئ القيس والنابغة . فقد قال امرؤ القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلمها عليه القتام سىء الظن والبال
يغط غطيظ البكر سدّ خناقه ليقتاني والمرء ليس بقتال
وقال النابغة :

وإذا لمست لمست أجثم رايا متحيزا بمكانه ملء اليد
وإذا طعنت طعنت في مستهدف راى الحجة بالعير مقرم
وهل يتناشد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة و بشار وأبي نواس على تعهرهم ، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم إلا على ملاء الناس وفي حلق المساجد ، وهل يروى ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم . وقد نفى حسان بن ثابت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطالب فما بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر ذلك عليه في هجائه حيث يقول :

وأنت ربيظ نيط في آل هاشم كما نيط خاف الراكب القدح الفرد
وقد زعم بعض الرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحارث : أنت من خير أهلى . وما نهى النبي صلى الله عليه وسلم ولا الساف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر . ولقد أنشد سعيد بن المسيب وغيره من نظرائه تهاجى جرير وعمرو بن لحي فجعل يقول : أكله أكله . يعنى أكله جرير ولم ينكر شيئا مما سمعه .

فأجابه ابن الأنباري : قد صدق سيدنا أيده الله في كل ما قال من الأشعار التي عدل قائلوها عن سنن المؤمنين المتقين ، ولم أكن أجهل أكثر ذلك إلا أنه لم يخطر بباله ذكر ما كنت أعرف منه في وقت كتابتي ما كتبت به ، وما كل ما يعرف الإنسان يحضره ، ولا تتوأتى كل وقت خواطره ، على أن الذي جرى في هذا الأمر إنما هو على سبيل التعلم والتفهم . يذكر الذاكر شيئاً قد تقدم صوابه ، فيحتاج له وعليه فيه حجة قد تركها ، فيكشف السامع لها غطاءه مستبصراً ومذكراً ، فإن كان الحق ضالته وجد ما ابتغى ، وغنم ما وجد ، وإن أنف من الرجوع ، واشتد عليه النزوع ، جحد ما علم ، واحتج لما جهل ، لأن كل مطالب يبطل لا يخلو من جهل بما يدعي ، أو جهل بما يعرف ، ولم يعقد أعز الله الأمير مجلس لمناظرة في علم يعطى النظر فيه حقه إلا فاز المرء فيه باستفادة صواب كان يجهله ، ورجوع عن خطأ كان يعتقدده . ولست أعز الله الأمير بمعصوم ، ومن لم يكن معصوماً لم يكن صوابه بمضمون ، ولا زلله بآمون . وعلى حسب ما جرى تعاقب قاي بمعرفة ما تضمنته رقعتي هذه من الأمير ، فإن كان لامتناه بتعريف ذلك في جواب عنها وجيه جرى فيه على عادة طوله وفضله إن شاء الله .

فأجابه ابن المعتز : إنما أحببت أعزك الله أن تكون من الأخوان الذين يتجانون ثم التناصح فيتذاكرون فيتذكرون ، ويتدارسون فيفيدون ويستفيدون ، ففتحت بيني وبينك هذا الباب آذنا لك بالولوج عليه منه ، واثقا بكال عقلك في المسارعة إليه ، وصنت مودتنا عن استحسان مزور ، وتعمد الجحد في إقراره ، ومواق مكاشر يظهر التصديق بلا إنكار . ولا يزال الأخوان يسافرون في المودة حتى يلقوا الثقة فتلقى عصا التسيار ، وتطمئن بهم الدار ، وتقبل وفود النصائح ، وتؤمن خبايا الضمائر ، وتلقى ملابس التخلق ، وتحل عقد التحفظ ، وقد أبعدك الله تعالى من الخطأ لما أشرق نور الصواب ، ولم لا ولي يصطرعان على الحق ، وبالتعب وطىء فراش الراحة ، وبالبحث تستخرج دفائن العلوم ، ولا فرق بين إنسان

يقاد وبهيمة تنقاد . ولولا أن الناس اختلفوا متفرقين ، لاختلوا متشاحين ، ولما قصدوا بالسكنى إلا بقعة من الدنيا يتنافسون فيها ، ويتفانون عليها ، وخير الاختلاف ما اجتنب معنى التماهى على الباطل فاهتدى فيه بالتبصير . كما روى أن علياً رضى الله عنه حاج عمر رضى الله عنه في المرأة التي وضعت لسته أشهر ، فأراد عمر رجها فقال له : قد قال الله تعالى (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) فرجع عن ذلك عمر وأمضاه . وبالتقليد هلك متروفا الكفار القائلون (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) . وقال بعضهم : إذا سرك أن تعرف خطأ مؤدبك فجالس غيره . وقال عمر رضى الله عنه : ليس شيء أضرب بالمرء من الحاجة في جهل ، وإنما كان يكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل والبحث لشغفته على أمته من نزول معترض يثقل عليهم فيما يسألون عنه ، ثم كره عمرو على رضوان الله عليهما ما كان يجري على سبيل التعت ، ويفارق سبيل التفقه . ولذلك قال على رضى الله عنه لابن الكوا : سل تفقهاً ولا تسئل تعنتاً .

وقال مالك : ما رأيت أشبه بأهل المدينة من ابن سيرين ، وأهل المدينة أرق الناس أدباً ، وأحلام طرباً ، وأبرعهم شياً ، وأطبعهم كرمًا ، ويقال دل حجازى ، وفسق يمانى . وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى :

إن قلبى بالتلّ تلّ عزاز مع ظبى من الظباء الجواز
شادن لم ير العراق وفيه مع ظرف العراق دل الحجاز

وقال أبو تمام :

من شاعر وقف الكلام ببابه واكنّ فى كنفى ذراه المنطق
قد ثقفت منه الشأم وسهلت منه الحجاز ورقفته المشرق

وكان عبد الملك بن الماجشون يقول : لقد كنا بالمدينة وإن الرجل يحدثني بالحديث من الفقه فيمله على ، ويدكر الخبر من الملح فأستعيده فلا يفعل . ويقول : لا أعطيك ملحى ، وأهبك ظرفى وأدبى . وقال ابن الماجشون : إني

لأسمع الكلمة المليحة ومالى إلا قيص واحد فأدفعه الى صاحبها واستكسى الله عز وجل . وقيل لأبى السائب الخزومي أترى أحدا لا يتمنى النسيب ؟ قال أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

وكان أبو السائب كثير الطرب ، غزير الأدب ، وله فكاهات مذكورة ، وأخبار مشهورة . وكان جده يكنى أبا السائب أيضا ، وكان خليطا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الاسلام فكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكره يقول : « نعم الخليل كان أبو السائب لا يدارى ولا يمارى » واسم أبى السائب عبد الله ، وكان أشرف المدينة يقدمونه ويعظمونه لشرف منصبه ، وحلاوة طربه . قال الزبير بن بكار : كانت سليمة المشاوية عاشقة لأفلح مولى الزهرين ، فأتاها يوما أبو السائب الخزومي فقال : حدثني هل أتاك من حبيبك رسول ؟ قالت لا . قال فهل قلت في ذلك شعرا ؟ قالت نعم ! ثم أنشدته :

ألا ليت لى نحو الحبيب مبلغا يبلغه التسليم ثم يقول
سليمة نضو ما ترجى حياتها من الشوق والشوق الشديد فتقول
تعالج أحزانا وتبكي صبا وأنت لما تلقاه فيك جهول
فقال أبو السائب : أنا والله رسولاك ؛ فحفظ الشعر وتوجه نحو أفلح في يوم صائف شديد حره فلقيه رجل من الانصار فقال : يا أبا السائب من أين أقبلت ؟ قال من عند سليمة المشاوية ، قال والى أين تريد ؟ قال أريد أفلح مولى الزهرين أبلغه رسالتها ، قال أفى مثل هذا الوقت ؟ قال إليك يا ابن أخى ! فان الجنة حفت بالمسكاره ، وما عبد الله إلا بالصبر على ما ترى .

وقال الزبير : حدثني جدى قال أتانى أبو السائب الخزومي في ليلة بعد ما رقد الناس فأشرفت عليه وقالت هل من حاجة ؟ فقال : سهرت فذكرت أخا لى أستمع به فلم أجد أحدا سواك فلو مضيت بنا إلى العقيق فتناشدنا وتحدثنا ؟ قلت نعم ! فزلت فما زال في حديث إلى أن أنشدته في بعض ذلك بيتي العرجى :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح يلوح كالأغر الأشقر
فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر
فقال أعده فأعدته . فقال: أحسنت والله ! وامرأتى طالق إن نطقت بحرف حتى
أرجع إلى بيتي غيره ، فمضينا فتلقانا عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب
وهو منصرف من ماله يريد المدينة . فقال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر
فالتفت إلى . وقال : متى أنكرت عقل صاحبك ؟ قلت منذ الليلة ، قال لله أى
كهل أصيبت به قريش ، ثم مضينا فلقينا محمد بن عمران التيمي قاضى المدينة
يريد مالاً له على بغلة ، وكان أثقل الناس جسماً ومعه غلام له على عنقه مخلاة
فيها قيد البغلة ، فلم عليه ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازما عند الفراق صباية أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر
فالتفت إلى وقال : متى أنكرت عقل صاحبك ؟ قلت آنفاً فتركنى وانصرف ،
فقلت افتدعه هكذا ؟ ما آمن أن يتهور فى بعض آبار العقيق ، قال صدقت ،
يا غلام هات قيد البغلة فوضعه فى رجله وهو ينشد البيت ويدافع يديه ، فلما أ طال
نزل الشيخ عن البغلة وقال : يا غلام أحمله على بغلتى وألحقه بأهله ، فلما كان بحيث
علمت أنه قد فاتته أخبرته الخبر فضحك . وقال : قبحك الله ما جئنا فضحت شيخاً
من قريش وعذبتنى وأنا لا أقدر أتحرك .

وروى مصعب بن الزبير عن عبد الله . قال : كان عروة بن أذينة نازلاً فى دارى
بالعقيق فسمعتة ينشد لنفسه :

إن التى زعمت فؤادك ملها	خلقت كل هوأك ^{كما} خلقت هوى هذا
فيك الذى زعمت بها فكلأ كما	أبدى لخلته الصباية كلها
ولعمرها إن كان حبك فوقها	يوماً وقد ضحيت إذاً لأظلمها
فاذا وجدت لها وساوس سلوة	شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فادقها وأجلها
لما عرضت مسلماً لى حاجة أخشى صعوبتها وأرجو ذلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا وقال لعلها معذورة فى بعض رقبها فقلت لعلها
فأتانى أبو السائب المحزومى فقلت له - بعد الترحيب والبشر - ألك حاجة ؟
قال نعم ! آيات لعروة بلغنى أنك سمعته ينشدها ؟ فلما بلغت إلى قوله : فدنا وقال
لعلها معذورة ، تطرب وصاح . وقال : هذا والله الصادق العهد ، الدائم الود ،
لا الذى يقول :

إن كان أهلك يمنعونك رغبة عنى فأهلى بى أضن وأرغب
أو ليس لى قربى إذا أقصيتنى حذبوا على وعندى المستعقب
فلئن دنوت لأدين بعبء ولئن تأيت لما ورأى أرحب
يأبى وعيشك أن أكون مقصراً رأيي أعيش به وقلب قلب
لقد عدا هذا الاعرابى طوره ، وتجاوز قدره ، وإنى لأرجو أن يغفر الله لصاحب
الآيات الأولى لحسن الظن بها ، وطلب العذر لها . فعرضت عليه الطعام فقال :
سبحان الله أو يحسن الظن بمثل أن يأكل طعاماً بعد سماع هذه الآيات ؟ والله
ما كنت لأخطب بها طعاماً حتى الليل ، وانصرف . والآيات التى أنشدها أبو
السائب لبعض الهذليين هى من مليح الشعر أولها :

طرقك زينب والركاب مناخة بحطيم مكة والندى يتصبب
بثنية العلمين وهنا بعدما خفق السماك وعارضته العقرب
وتحمة وكرامة لخيالها ومع التحية والكرامة مرحب
أنى أهتديت ومن هداك ودوننا حمل قفلة عاذب فالمرقب^(١)

(١) كذا فى الأصل وفى معجم البلدان .

أنى أهتديت ومن هداك وبيننا فلج قفلة منعج فالمرقب
وحمل وعاذب أسماء أما كن ذكرها فى المعجم ، وفى المعجم تغيير فى بعض هذه
الآيات فلتراجع .

ولأهل المدينة من الارتياح إلى المزاح، والانتقطاع للسمع، ماهو مشهور عندهم،
مأثور منهم . قال عبد الله بن جعفر : أنا لى عند السماع هزة لو سئلت غيرها
لأعطيت ، ولو قاتلت معها لأبليت . وقال أبو العيناء : قال الأصمى مررت بدار
الزبير بالبصرة فإذا بشيخ من أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبا ريمحانة جالس
بالباب وعليه شملة تستره فسلمت عليه وجاست إليه ، فبينما أنا كذلك إذ طلعت
علينا سوداء تحمل قربة ، فلما نظر إليها لم يتمالك أن قام إليها وقال لها : غنى
صوتاً ، فقالت : إن موالى أعجلونى ، قال لا بد من ذلك ، قالت أما والقربة على
كتفى فلا ، قال فأنا أحملها . فأخذ القربة منها فحملها واندفعت تغنى :

فؤادى أسير لا يفك ومهجتى تقضى وإحزاني عليك تطول
ولى مقلة قرحى لطول اشتياقها إليك وأجفانى عليك همول
فديتك أعدائى كثير وشقتى بعيد وأشياعى لديك قليل
وكنت إذا ما جئت جئت لعله فافنيت علائى فكيف أقول ؟ !

فطرب وصرخ وضرب بالقربة الأرض فشققها ، وقامت الجارية تبكى . وقالت :
ما هذا بجزائى منك ، شفعتك فى حاجتك فعرضتنى لما أكره من موالى !!
فقال : لا تفتنى فالصيبة على حصات ونزع الشملة ووضع يداً من قدام ويداً من
خلف ، وباعها وابتاع لها قربة وقعد بتلك الحال فاجتاز به رجل من ولد على
رضى الله عنه فعرف حاله فقال : يا أبا ريمحانة أحسبك من الذين قال الله عز وجل
فيهم : (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قال لا يا ابن رسول الله ولكنى
من الذين يقول الله لهم : (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) . فضحك وأمر له بألف درهم .
وقال رجل لابن جعدية : يا أبا الحكم الرجل الذى يشدو بالأصوات ما ترى
فيه ؟ قال : سبحان الله كئنا إذا أتت على الرجل أربعون سنة لا يحسن عشرة
أصوات عددناه من أهل بقيع الفرقد - يعنى الموتى - . ومر بالأوقص الخزومى -
وهو قاضى المدينة- يتغنى بليل فأشرف عليه وقال : يا هذا شربت حراماً ، وأيقظت

نياماً ، وغنيت خطأ ، خذ غنى وأصلح له الغناء . وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد حدثت أن مدنياً كان يصلي مذ طلعت الشمس إلى أن قارب النهار ينتصف ومن ورائه رجل يتغنى وهما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا برجل من الشرطة قد قبض على الرجل فقال أترفع عقيرتك بالغناء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! فأخذه فانقتل المديني من صلاته فلم يزل يطلب فيه حتى استنقذه ثم أقبل عليه فقال : أتدرى لما شفعت فيك ؟ قال : لا ولكني أخالك رحمتي . قال : إذا فلا رحمني الله ، قال : فأحسبك عرفت قرابة بيننا ، قال : إذا قطعها الله ، قال فليد تقدمت مني إليك ، قال والله ولا عرفتك قبلها . قال : فأخبرني . قال سمعتك تغنيت آنفاً فأقتواوات معبد ، أما والله لو أسأت التأدية لكنت أحد الأعوان عليك . قال : والصوت الذي ينسب إلى واوات معبد شعر الأعشى الذي يعاتب فيه يزيد بن مسهر الشيباني وهو :

هريرة ودعها وإن لام لأثم غداة غد أم أنت للبين واجم
أقد كان في حول ثواء ثويته تقضى لبانات ويسأم سأم
ويروى أن معبدًا بلغه أن قتيبة بن مسلم فتح خمس مدائن . فقال : لقد غنيت
بخمسة أصوات هن أشداً من فتح المدائن التي فتحها قتيبة . والأصوات قال المبرد
أحدها ، للأعشى يعاتب يزيد بن مسهر الشيباني : هريرة ودعها وإن لام لأثم .
فأنشد البيتين ، والثاني ، قوله يعاتبه :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
غيداء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوحى الوجل
والثالث ، للشماخ بن ضرار بن مرة بن غطفان يقوله لعرابة بن أوس :
رأيت عرابة الأوسى ينمى إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمن
إذا بلغتني وحات رحلى عرابة فاشرق بدم الوتين

والرابع ، لعمر بن أبي ربيعة :

ودع أمانة قبل أن تترحلا واسأل فان قليل أن لا تسألا
أمكث لعمرك ساعة فساتمها فعسى الذي بخلت به أن يبذلا
لسنا نبالي حين ندرك حاجة إن بان أو ظل المطي معقلا
قال أبو العباس : والشعر الخامس لأعراف قائله . قلت وهو لعروة بن أذينة الليثي :
غراب وظي أعضب القرن ناديا بين وصردان العشي تصيح
لعمرى لئن شطت بعمة دارها لقد كنت من خوف الفراق ألبح

وكتب سليمان بن عبد الملك إلى عثمان بن حبان المرى : إحص الخنشين فوقعت
فوق الحاء نقطة فأخذهم وخصامهم وفيهم الدلال^(١) . فبلغ ذلك ابن أبي عتيق وقد قام
إلى الصلاة فقال : أو قد خصى الدلال^(١) ؟ إنا لله لقد كان يحسن أن يغنى :
لمن طلل بذات الجيد ش أمسى دارساً خلقا
ثم دخل في الصلاة ، فلما فرغ من قراءة أم الكتاب قال السلام عليكم ، وكان
يحسن خفيف هذا الشعر ولا يحسن ثقيله .

ولابن أبي عتيق عجائب ظريفة أذكرك منها ما يصلح ويملح ، منها أنه
سمع وهو بالمدينة قول ابن أبي ربيعة :
فما نلت منها محرماً غير أننا كلانا من الثوب المطرف لا بس
فقال : أبنا يلعب ابن أبي ربيعة ؟ فأى محرم بقى ؟ ! فركب بغلته متوجها
إلى مكة ودخل أنصاب الحرم ، وقيل له أحرم ! قال : إن ذا الحاجة لا يحرم . فلقى
ابن أبي ربيعة فقال : أما زعمت أنك لم تركب محرماً قط ؟ قال بلى ! قال : فما قولك
كلانا من الثوب البيت ؟ فقال له إني أخبرك : خرجت بعامة المسجد فصرنا إلى
بعض الشباب فأخذتنا السماء . فأمرت بمطرفي فسترنا الغلمان ثلثا يروا بها بلة فيقولوا

تأها هلا استترت بسقائف المسجد ؟ فقال له ابن أبي عتيق : يا عاهر هذا البيت يحتاج الى حاضنة ؟ ! وابن أبي عتيق الذى سمع قول ابن أبي ربيعة :

قال لى صاحبي ليعلم ما بى	أتحب القتل أخت الرباب
قلت وجدى بها كوجدك بالما	، اذا فقدت برد الشراب
إن هفت أم نوفل إذ دعيتها	مهجتي ما لقاتلى من متاب
ابرزوها مثل المياة تهادى	بين خمس كواعب أتراب
ومنى مكنونة تحير منها	فى أديم الحديد ماء الشباب
ثم قالوا تحبها قلت بهرا	عدد الرمل والحصى والتراب
من رسولى الى الثريا بأنى	ضقت ذرعا بهجرها والكتاب

فلما سمع هذا البيت قال : إياى أراد وبى هتف ونوه ، والله لا ذقت طعاما أو أشخص اليها وأصلح بينهما . قال مولى لبنى تميم : فتهض وتهضت معه حتى خرج الى سوق الضمرتين فأتى قوما من بنى الدئل من حنيفة يكرون النجائب ، فقال : بكم تسكروننى راحتين الى مكة ؟ قالوا بكذا وكذا ، فقلت لبعض التجار استوضعوا شيئا ، فقال ابن أبي عتيق : ويحك إن المكاس ليس من اخلاق الناس ، ثم ركب واحدة وركبت الأخرى وأجد السير فقلت أرفق بنفسك فقال : يحك : أبادر جبل الوصل أن يتقصبا ، وما أملح الدنيا اذا تم الوصل بين عمر والثريا . فقدمنا مكة وأتى باب الثريا فقالت والله ما كنت لنا زوارا ؟ قال أجل ! ولكنى جئت برسالة ؛ يقول لك ابن عمك عمر : ضقت ذرعا بهجرك والكتاب ، فلامه عمر فقال ابن أبي عتيق : إنما رأيتك مبادرا تلتمس رسولا فخفت فى حاجتك ، فأنما كان ثوابى أن أشكر . وسمع ابن أبي عتيق قول العرجى :

وما ليلة عندى وإن قيل ليلة	ولا ليلة الأضحى ولا ليلة الفطر
معادلة الاثنين عندى وباطلا	يكون سواء مثلها ليلة القدر
وما أنسها الأشياء لا أنس قولها	لخادمها قومى سلى لى عن الوتر

فجاءت تقول الناس في تسع عشرة ولا تعجلي عنه فانك في أجر
فقال : هذه أفتقه من ابن شهاب ، وهي حرة لله عز وجل من مالى إن أجاز
أهلها ذلك . وقال له مروان بن الحكم يوما : إني مشغوف ببغلة للحسن بن علي ،
قال له : فإن دفعتها إليك أتقضى لى ثلاثين حاجة ؟ ومروان يومئذ أمير المدينة ،
قال : فإذا اجتمع الناس عندك في العشية فاني آخذ في مآثر قريش فأمسك عن
الحسن فلمنى على ذلك ، فلما أخذوا في مجالسهم أفاض في أولية قريش فقال له
مروان : أما تذكر أولية أبي محمد وله في هذا ماليس لأحد ؟ فقال : إنما كنا في ذكر
الأشراف ولو كنا في ذكر الأنبياء لقد منا لأبي محمد ، فلما خرج الحسن ليركب
البغلة تبعه ابن أبي عتيق . فقال له الحسن : — وتبسم — ألك حاجة ؟ قال نعم !
ذكرت البغلة ؟ فنزل الحسن ودفعها اليه .

ومن ظريف أخباره ان عثمان بن حبان المرمى لما دخل المدينة واليا عليها اجتمع
اليه الأشراف من قريش والأنصار . فقالوا : إنك لا تعمل عملا جدي ولا أولى
من تحريم الغناء والزنا . ففعل وأجلهم ثلاثا ، فقدم ابن أبي عتيق في الليلة الثالثة
فخط رحله بباب سلامة الزرقاء فقال لها : بدأت بك قبل أن أصير الى منزلى . فقالت :
أو ما تدري ما حدث ؟ وأخبرته الخبر . فقال أقيمي الى السحر حتى ألقاه ولا بأس
عليك ، ثم مضى الى عثمان بن حبان فاستأذن عليه وأخبره أن أجل ما أقدمه حب
التسليم عليه ، وقال له من أفضل ما عملت به تحريم الغناء والزنا ، فقال : إن أهلك
أشاروا على بذلك ، قال : فانك قد وقفت ولاكنى رسول امرأة إليك تقول
كانت هذه صناعتى فبنت منها وأنا أسألك أيها الأمير أن لا تحول بينى وبين
مجاورة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عثمان : إذا أدعها لك ، قال اذا
لا تدعك الناس ، ولكن تدعوها فتتنظر إليها فان كانت ممن يترك تركتها ، قال
فادع بها فأمرها ابن أبي عتيق فتقشفت وأخذت سبحة في يديها وصارت اليه
فحدثته عن مآثر آبائه ففكه لها ، فقال ، ابن أبي عتيق : اقرئى للأمير ففعلت .
فأعجب بذلك ، فقال لها فاحدى للأمير ففعلت فأعجب بحداثتها ، ثم قال لها غيرى .

لأمر فعمل يعجب بذلك ، فقال له ابن أبي عتيق: فكيف لو سمعتها في صناعاتها ؛
فقال قل لها فلتقل ! فأمرها ففنت :

سددن خصاص الخيم لما دخلنه بكل بنان واضح وجبين
فزل عثمان عن سريره حتى جلس بين يديها ، ثم قال : والله ما مثلك يخرج
عن المدينة . فقال له ابن أبي عتيق : يقول الناس أذن لسلامة في المقام ومنع غيرها !!
فقال عثمان : قد أذنت لهم جميعا .

وابن أبي عتيق: هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي
الله عنهم ، وكان أجل أهل زمانه . وذكر أنه دخل على عائشة وهي لما بها ، فقال:
كيف أنت يا أماء جعلت فداك ؟ قالت: في الموت ، قال فلا إذاً ، إنما ظننت أن
في الأمر فسحة ، فضحكت وقالت ماتدع مزحك بحال !!

وقال ابن جريج: كان عبد الله بن جعفر إذا قدم على معاوية أنزله داره
وأظهره من إكرامه وبره ما يستحقه ، فكان ذلك يغيظ فاخنة بنت قرظة
ابن عبد بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف زوج معاوية ، فسمعت ذات ليلة عند
عبد الله غناء فجاءت إلى معاوية فقالت : هلم فاسمع ما في منزل هذا الذي جعلته
بين لحك ودمك ، وأنزلته مع حرمك ! قال فجاء معاوية فسمع وانصرف ، فلما
كان آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله فجاء فأيقظ فاخنة وقال : اسمعي مكان
ما أسمعني !! ثم إنه أرق ذات ليلة فقال لجريج خادمه اذهب فانظر من عند
عبد الله وأخبره أني في أثرك ، فأتاه فأعلمه ذلك فأقام عبد الله من عنده ، ثم
دخل معاوية فلم ير في المجلس أحداً ، فقال لعبد الله : مجلس من هذا ؟ قال مجلس
فلان ، قال فمره أن يرجع إليه ، ثم قال مجلس من هذا ؟ قال مجلس فلان ، قال
فمره أن يرجع إليه . فرجعوا حتى لم يبق إلا مجلس واحد ، قال مجلس من هذا ؟
قال مجلس واحد يداوى الآذان ، قال مره فليرجع فان بأذن علة ، فأمر عبد الله
بديحا المليح فخرج فأدناه معاوية منه وأراه أذنه . وقال : أنظر ما ترى فيها ؟

قال : هي مسدودة وتحتاج إلى فتح وتنقية ، قال : شأنك أمكنتك منها ، ولا تضع يدك عليها إن كنت غير حاذق بعلاجها ، قال عبد الله : يا أمير المؤمنين هو حاذق ما يعالج من في دارنا غيره ، فقال معاوية : وشهد شاهد من أهلها ، فاندفع يغني من شعر زهير بن أبي سلمى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالتثلم
فجعل عبد الله بن جعفر يلحظ معاوية وهو يحرك يديه ورجليه ، فقال :
يعيرك الجهل يا أمير المؤمنين ، فقال : إن الجهل مني لعلى بُعد يا ابن جعفر ، قبح
الله ضيافة يكون الضيف فيها بحيث لا يساعد المضيف على أخلاقه ، ثم قال لبديح :
لقد فتحت جارحة لا تألم أبدا ، ثم نهض وخرج .

وكان بديح أحلى الناس وأذكاهم ، وهو الذي قال له الوليد بن يزيد : يا بديح
خذ بنا في الأمانى فأنى أغلبك فيها ، فقال : يا أمير المؤمنين أنا أغلبك لأنى فقير
وأنت خليفة ، وإنما يتعنى المرء ما عسى أن يبلغ إليه وأنت قد باغت الآمال ، قال
لا تتمنى شيئا إلا تمتيت ما هو أكثر منه ، قال : فأنى أتمنى كفلين من العذاب
وأن يلعننى الله لعنا وبيلا ، فقال أعزب لعنك الله دون خلقه .

ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان وقد اشتكى عرق النساء ،
فقال : يا أمير المؤمنين إن مولاي بديحا أحذق الناس برقيقته ، قال : أتجيئني به
فجاء به فرقاه فبات تلك الليلة هادئا ، فلما أصبح سأله عبد الله بن جعفر عن
حاله فأخبره بما وجد من العافية ، ثم قال لبديح : أكتب لنا هذه الرقية لتكون
عندنا ، قال لا أفعل قال أقسمت عليك لتفعلن ، قال أكتب :

الأ	إن أيامى وأيامك التى	مضين لنا لم	أدرما ألم الهجر
مضين وما شئ	مضى لك عائد	فهل لك فيها إن تولين	من عذر
دعى مامضى	واستقبل العيش إننى	رأيت لذيد العيش	مستقبل العمر
فما نازع الدهر	امرا فى انقلابه	فأعته	إلا بقاصمة الظهر

فقال عبد الملك : فأى شيء هذا ؟ قال امرأتى طالق إن كنت رقيتك
إلا بهذه ! قال ويحك أستر علينا ، قال كيف أستر ما سارت به الركبان ؟

قال أبو مسلم الهلالى المكي حدثني أبي عن أبيه قال : أتيت عبد العزيز بن
المطلب أسأله عن بيعة الجن للنبي صلى الله عليه وسلم بمسجد الأحزاب وما كان
بدوها ؟ فوجدته مستلقياً يتغنى :

فما روضة بالحزن معشبة الثرى	يميج الندى جثجاها وعرارها
بأطيب من أردان عزّة موهناً	إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها
من الحفرات البيض لم تلق شقوة	وبالحسب المكنون ضاق نجارها
إذا خفيت كانت لعينك قرة	وإن تبعد يوماً لم يعمك عارها

فقلت له : مثلك أصلحك الله يتغنى ؟! أما والله لأحدون بها ركباً نجد ، فعاوديتغنى :

فما ظبية أدماء خفاقة الحشا	تجوب بطفلها متون الحائل
بأحسن منها إذ تقول تدللاً	وأدمعها يجرين حشواً المكاحل
تمتّع بذا اليوم القصير فإنه	رهين بأيام الشهور الأطاول

فندمت على قولى وقلت : أتحدثني فى هذا بشيء ؟ قال نعم ! حدثني أبى أنه
دخل على سالم بن عبد الله وأشعب الطماع يغنيه :

مغيرة كالبدر سنة وجهها	مطهرة الأثواب والدين وافر
من الحفرات البيض لم تلق ريبة	ولم يستزلها عن تقى الله شاعر
لها حسب ذاك وعرض مهذب	وعن كل مكروه من الأمر زاجر

فقال سالم : زدنى ، فغنى :

ألمت به والليل داج كأنه	جناح غراب عند ما نفّض القطرا
فقلت أعمار ثوى فى رحالنا	وما حملت ليلى سوى نشرها عطرا

فقال له سالم : أما والله لولا أن تداوله الرواة لأحسنت جائزتك ، لأنك من هذا
الأمر بمكان .

وقال ابراهيم الحرائى : حججت مع أمير المؤمنين الرشيد فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا بين القبر والمنبر إذ أنا برجل حسن الهيئة خاضب ومعه رجل فى مثل حاله ، فحانت منى التفاتة فإذا هو يقوِّس حاجبيه ويفتح فاه ويلوى عنقه ويشير بعنقه ، فتجوزت فى صلاتى ثم سلمت فقلت أفى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تتغنى ؟ ! فقال : قنعك الله خزيه ما أجهلك أما فى الجنة غناء ؟ قلت بلى لعمري فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأُدين ، قال : أما نحن فى روضة من رياض الجنة ؟ قلت لا ! قال : واحرباه أترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » فنحن فى تلك الروضة ، قلت قبج الله شيخاً ما أسفه ! قال : بالقبر والمنبر لما أنصت إلى ؟ فتخوفت أن لا أنصت ؟ فاندفع يغنى بصوت يخفيه :

فليس عشيات الحمى برواجع إليك ولكن خل عينيك تدمعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
— الشعر للصمة بن عبد الله القشيري — فوالله إن قتت إلى الصلاة لما دخل قلبى ،
فلما رأى ما نزل بى قال : يا ابن أم أرى نفسك قد استجابت وطابت فهل لك
فى زيادة ؟ قالت : ويحك فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ! قال :
أنا والله أعرف بالله ورسوله منك ، فدعنا من جهلك ثم تغنى :

فلو كان واش بالمدينة داره ودارى بأقصى حضرموت أهتدى ليا
وماذا لهم لا أحسن الله حفظهم من الشأن فى تصريحى إيلى حباليا ؟؟
— الشعر لجنون بنى عامر الملوخ — فقال له صاحبه : يا ابن أم أحسنت والله
وعتق ما يملك لو كان أمير المؤمنين الرشيد فى هذا الموضع نلخع عليك ثيابه طرباً ،
قال : فقامت وهما لا يعلمان من أنا فدخلت على أمير المؤمنين فأعلمته الخبر ، فقال :
أدركهما لا يفوتانك ، فوجهت من جاء بهما فلما دخلا عليه دخلاً بوجوه قد ذهب
ماؤهما وأنا قائم على رأسه ، فقال يا ابراهيم : هذان هما ؟ قالت نعم فنظر إني المعنى

منهما وقال: سعاية في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فسرى عن أمير المؤمنين بعض غضبه وتبسم فقال: ما كنتم فيه؟ قالوا في خير، قال فماذا الخير؟ فسكتا. فقال للمغني منهما من أنت؟ فابتدره جماعة فقالوا: يا أمير المؤمنين هذا ابن جريج ققيه مكة، فقال ققيه مكة يتغنى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم!! قال يا أمير المؤمنين لم يكن ذلك مني بالقصد للغناء ولكني كنت أسمع هذا الخزومي — يعني صاحبه — صوتين فلم يزل في قلبي حتى التقينا فأحييت أن يأخذها عنى فأخذها وحلف أنى قد أحسنت، وأنه لو كان في الموضع أمير المؤمنين نلخ على، وسكت. فقال الرشيد: تركت من الحديث شيئاً؟ قال: ما تركت شيئاً يا أمير المؤمنين. قال والله لتقولن، قال: يا أمير المؤمنين زعم أنك لو كنت في موضعه نلخت على ثيابا مشقوقة طرباً، فتبسم وقال: أما هذا فلا ولكن نلخها عليك صحيحة فهي خير لك، ثم دعا بثياب فلبسها ونبذ إليه ثيابه وأمر له بعشرين ألف درهم ولصاحبه بعشرة آلاف درهم. وقال: لا تعودن لهذا، فقال صاحبه: إلا أن يحجج أمير المؤمنين ثانية. فضحك وقال: ألحقوه بصاحبه في الجائزة.

قال إبراهيم الحرائي: ثم قدمنا مكة فاني لني سوق القسي أساوم بقوس عربية بكنائنها إذا بانسان عن يميني يقول: نعم القوس في يدك، قلت أريد أبسط منها قليلاً؟ قال فعندى بغيثك إئت المنزل، فصرت إليه فأخرج إلى قوهاً جيدة لينة حسنة الصنعة، قلت: نعم! هذه أريد فكم ثمنها؟ قال عشرة دنانير، قلت يا هذا أغرقت في النزع، قال هذا سومي فهات سومك أنت، قلت بد دينارين فأحد النظر وقال وآتيك؛ فالذي كان يجب للطبيعة أن تأتي به^(١) تحول فصار ضحكاً. فقلت غضب الله عليك تطلق لسانك في حرم الله وأمنه في أيام عظيمة، فأنت بمثل هذا السن

(١) يريد من الغضب والحرر.

تتكلم بهذا الكلام !! فقال : هو ما قلت لك إنما هو بيع وشراء فلا تغضب فأتى لم أغضب من عطيتك . قال : ففارقته ودخلت على أمير المؤمنين فقلت ياسيدي ههنا خبر أعجب من خبر ابن جريح !! وحدثته الحديث فقال : إرجع وجئني به فوجئت غلاماً كان معي وأنا أسأومه ومعه أعوان فجاءوا به ، فلما دخل عليه قال هذا صاحبك يا ابراهيم ؟ قلت نعم يا أمير المؤمنين ! فقال الرشيد : ماذا قلت لهذا حين سأومك بالقوس ؟ قال قد دار بيني وبينه كلام ، قال أخبرني به ، قال لست مني على سوم فأخبرك قال فماذا قال لك ؟ قال هو أعلم بما قال ، فقال ابراهيم يا أمير المؤمنين اخرج إلى قوساً عربية بكنائنها فقلت بكم هذه قال بعشرة دنانير قلت أسرفت فخذ مني دينارين قال : وآتيك قال الرشيد كذا كان ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين إنما هذا شراء وبيع ولم يتم لي بيعها بما أعطاني وظننت أن بضاعته قليلة فقلت آخذ دينارين وعروضاً بالباقي ، فضحك الرشيد حتى تبسط . ثم قال : قاتلك الله فما أقبح مجونك ووصله . قال ابراهيم : فلما انصرفنا خارجين عن مكة مررت به فوقفت عليه وسلمت عليه . فقال ما ترى في تيك القوس ألك فيها رأى ؟ قلت أما على شريطتك الأولى فلا ، قال فلا بأس فخذها مني بدينارين وغنى لي ثلاثة أصوات ، أو خذها بخمسة وأغنيك أربعة أصوات ، ثلاثة لمعبد وواحد لابن عائشة كان يفعل فيه ما أحل الله وحرّم ، قلت هذا وحده . فاندفع يغنى :

وخطا بأطراف الأسنّة مضجعي ورد على عينيّ فضل ردائيّا

— الشعر لمالك بن الذئب المازني — فأجاده ما شاء وحسنه^(١) . فقلت : لولا أن أمير المؤمنين قد قدمت له دابته لوقفت عليك ، فقال امض عليك السلام وإن كان في القلب ما فيه إذ بخلت على أخيك بضمة أو ضمتين ، قال : مالك لعنك الله !! وفارقه وحدثت أمير المؤمنين بما قال فقال : يا ابراهيم تجدد بالعراق طولاً وعرضاً واحداً له ما لأهل الحرمين^(٢) من الذكاء والظرف ؟ قلت لا أعرف موضعه .

(١) في الأصل : فأجازه وهو تحريف . (٢) في الأصل : الحمير .

وقال الأصمعي : أنشدت محمد بن عمران قاضي المدينة - وكان أعقل من رأيته - :

يا أيها السائل عن منزلي نزلت بالخان على نفسي
يغدوا على الخبز من خابز لا يقبل الرهن ولا ينسى
آكل من كيسي ومن كسوتي حتى لقد أوجعني ضرسي
فقال : اكتب لي الأبيات . فقلت أصاحك الله هذا لا يشبه مثلك ، إنما يروى
مثل هذا الاحداث ، قال : اكتبها لي فلا أشرف يعجبهم المالح . وقد قال الطائي
في عمرو بن طوق التغلبي :

الجد شيمته وفيه فكاها سمح ولا جد لمن لم يلعب
شرس ويتبع ذاك لين خليفة لاخير في الصباء مالم تقطب
وقال في الحسن بن وهب :

لله أيام خطبنا لينها في ظله الخندريس السلسل
بمدامة نغم السماع خفيها لا خير في الملول غير معلل
يعشو عليها وهو يحلو مقلتي بأزق ينقل وهو غير منقل
لا طائش تهفو خلائقه ولا خشن الوقار كأنه في محفل
فكه يحجم الجد أحيانا وقد ينضى ويهزل عيش من لم يهزل
وقال أبو الفتح علي بن محمد البستي :

أفد طبعك المكدود بالهم راحة براح وعله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته ذاك فليكن بمقدار ما تعطى الطعام من المالح

وهذا حين ابتدئ متصرفاً بك من بلاغة خطاب ، إلى براعة جواب ،
وصريح منادرة ، إلى مליح مهاترة ، وغريب مراجعة ، إلى عجيب منازعة .
وتشبيه واقع ، إلى مثل صادع ، وغير ذلك مما يحكي موات القلوب ، ويشفي نجي

الكروب، مما تجذل له الخواطر، وترتاح إليه السرائر، وتفتح به الأسماع، وتنشرح له الطباع.

فما مر بك من هذه النواذر^(١) فلا تنظر إليها نظر المنكر فتعرض عنها صفحاً، وتطوى دونها كشحاً. إذا وقعت فيها كلمة قذف، أو لفظة سخف. وتقول قد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لغلامه: - ورأى روث دابة - نَحْ ذلك النفيل؟ تصونا عن اسم الروث. وقال: عرضت لى دمل تحت يدي فألمتني ولم يقل تحت إبلى. وكان الحجاج على قبح أفعاله، وسوء أحواله، يتنزه عن أن ينطق بلفظة سخيصة. وقد قال لمن آتاه به بال ابن الأشعث: لو خبأته تحت، حتى قال تحت ذيلك لم يكن بد من إخراجه. وإنما أراد أن يقول تحت استك.

وأكثر القاذورات وردت بالكنايات؛ كالفائض وهو المظمن من الأرض. وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة ذهبوا إلى ذلك الموضع فسمى ما يخرج من الإنسان باسم موضعه. وكذلك الاستنجاء أيضاً مأخوذ من النجو وهو المكان المرتفع لاستنارهم وراءه. والحش البستان، والعذرة فناء الدار، وكذلك وصفهم لطيب الأردن وهي الأكمام وإنما يراد ما تحتها، وإنما ذلك كله للفرار من النطق باسماء الأقدار.

وليس في كل موضع أعزك الله تحسن الكنايات عن لفظ فحش، ولا بكل مكان يجمل الإعراض عن معنى وحش. فيكون كما حكى الجاحظ: أن رجلاً بعث غلامه إلى غريم له فأساء الغلام خطابه فخرق الغريم ثيابه، فرجع إلى مولاه فقال مالك؟ قال شتمك يا مولاي فلم احتمل الصبر فرددت عليه فحل بي ماترى، قال وما كان شتمه؟ قال قال لى: ادخل هنّ الحمار فى حرام من أرسلك. فقال له مولاه: دعنى عنك مما جرى؛ ولكن لِمَ لَمْ تجعل لى من الوقار ما جعلته لأير الحمار حين كنيت عن ذا ولم تكن عن ذا!!

(١) فى الأصل: فما مر به الخ.

فلو صرح بالجميع لكان أسلم له من الذنب ، وآمن من العتب . وقد قال
أبو فراس الحمداني لرسول أرسله إلى من يهواه فجفا في جوابه فلفظ الرسول
رسالته فتبين أبو فراس ذلك فأنشد :

وكنى الرسول عن الجواب تطرفا ولئن كنى فلقد علمنا ما عنا
قل يارسول ولا تمحاش فانه لا بد منه أسابنا ^(١) أم أحسنا
الذنب لى فيما جناه لأننى مكنته من مهجتي فتمكنا
أخذه بعض المتأخرين فقال :

يارسولى خل عنك الظرف إن كنت رسولا
لاتقل مالم يقله واشف بالصدر الغليلا
وهذا وإن لم يكن من محض هذا الباب ، إذ كان إنما يستطاب لأنه من
الأحباب . كقول الآخر :

أتانى عنك شتمك لى وسبى أليس جرى فيك أسى فحسبى
وكما قال منصور النمرى :

لا يطيب الهوى ولا يحسن الحسب إلّا بنحس خصال
لسماع الهوى وعذل فصيح وعتاب وهجرة وتعالى
وكقول الآخر :

دع الحب يصل بالأذى من حبيبه فان الأذى ممن يحب سرور
غبار قطع الشاء فى عين ربها إذا ماتلا آثارهن ذرور
وقول الآخر :

لولا طراد الخيل لم تك لذة فتطاردى لى بالوصال قليلا
هذا الشراب أخو الحياة وماله من لذة حتى يصيب غليلا

فهو يلم ببعض جهاته ، ويتطرف بأحدى خبياته ^(٢) .

(١) فى ديوانه : أساء بى الح . (٢) كذا : ولعله جنباته .

وفي مثل التهاير يمكن قول العتبى فيما سهل سبيله من ترك الإعراض عما كان مثله بالقول لقائه كالولد لناجيه: ما على مبصره أن يراه شريراً فأتكادون أن يراه وقوراً ناسكاً. وإنما تلزم عمدته ، وتعود عهديته ، في سخفه وجهله ، على نفسه وأهله . وقد قال بعض الظرفاء :

إنما للناس مذاً حسن خلق ومزاح
ولنا ما كان فينا من فساد أو صلاح

ولو كنت هنا إنما آتى بما فيه ركانة وإصالة ، دون ما فيه سخافة ورذالة : لأزال عن الملح اسمها ، وارتفع عنها وسمها ، وخرجت عن حدودها ، وأفلتت من قيودها . ولا بد من توشيح بلطائف من الجد ، وظرائف من القصد ، تتعلق بأغصانه ، وتتشبث بأفئانه ، ليكون استراحة للناظر ، وإجماماً للخاطر ، كما يمل الجد ، فيدخل فيه الهزل . وكذلك يمل الرقيق فيحتاج إلى الجزل . والله أستغفر مما شغل به الخاطر ، وأتعب له الناظر ، وصرف اليه الفكر ، واستخدم فيه السر . مما غيره أعم فائدة ، وأتم عائدة ، فهو الرؤوف الرحيم ، والجواد الكريم .

قيل لأشعب الطماع : لقد لقيت التابعين وكثيراً من الصحابة فهل رويت مع علوسنك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم ! حدثني عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « خلتان لا يجتمعان في مؤمن » قيل وما هما ؟ قال نسيت واحدة ونسى عكرمة الأخرى . وقيل له : كم كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر رطلاً . وهذا كما قيل لطفيلي كم اثنين في اثنين ؟ قال أربعة أرغفة . وسألته صديقة له خاتماً وقالت له أذكرك به ، قال اذكرى : أنك سألتني فمنعتك . وسأوم بقوس بندق فقال صاحبها بدينار ، فقال : والله لو كنت إذا رميت بها طائراً وقع مشوياً بين رغيفين ما اشتريتها بدينار . وأهدى رجل من ولد عامر بن لؤى إلى إسماعيل الأعرج

فالودجة وأشعب حاضر فقال : كل يا أشعب ، فأكل منها فقال له كيف تراها ؟ قال : الطلاق يلزمه إن لم تكن عملت قبل أن يوحى ربك إلى النحل . أى ليس فيها حلاوة .

وبأشعب هذا يضرب المثل فى الطمع . قال الشاعر :

إنى لأعجب من مطالك أعجب من طول تردادى إليك وتكذب
وتقول لى تأتى وتحلف كاذباً فأجىء من طمع إليك وأذهب
فاذا اجتمعت أنا وأنت بمجلس قالوا مسيلة وهذا أشعب
وقيل له : أرايت أطمع منك ؟ قال نعم كلبة آل أبى فلان رأت شخصاً يمضغ
علكا فتبعته فرسخاً تظن أنه يرمى لها بشىء من الخبز . ومرت أشعب برجل يعمل
طبقاً من الخيزران . فقال له : أريد أن تزيد فيه طوقاً أو طوقين ، قال فما فائدتك ؟
قال : لعل أحداً من أشراف المدينة يهدى لنا فيه شيئاً .

وكان أشعب يعشق امرأة بالمدينة ويتحدث فيها حتى عرف بها فقال لها جاراتها :
لو سألتك شيئاً ؟ فأتاها يوماً فقالت إن جارأتى يقلن ما يصلك بشىء ، فخرج عنها
ولم يقربها شهرين ، ثم أتاها فأخرجت له قدحا فيه ماء فقالت له اشرب هذا للفرع !
فقال : بل أنت اشربيه للطمع ، ومضى فلم يعد إليها .

وأشعب هذا : هو أشعب بن جبير مولى عبد الله بن الزبير وكان أحلى الناس
مفاكهة . قال الزبير بن بكار أهل المدينة يقولون : تغير كل شىء من الدنيا إلا
ملح أشعب ، وخبز أبى الغيث ، ومشية برة . وكان أبو الغيث يعالج الخبز بالمدينة ؛
وبرة بنت سعد بن الأسود وكانت من أجمل النساء وأحسنهن مشية ، وكان
أشعب قد نشأ فى حجر عائشة بنت عثمان بن عفان رضى الله عنه مع أبى الزناد^(١) .

(١) أبو الزناد : هو عبد الله بن ذكوان الأموى مولاهم المدنى يكنى
أبا عبد الرحمن كان أحد الأئمة . قال البخارى : أصح الأسانيد أبو الزناد عن
الأعرج عن أبى هريرة وقال الليث رأيت أبا الزناد وخلفه ثلاثمائة طالب . قال
الواقدي : مات فجأة سنة ثلاثين ومائة . مصححه

قال أشعب : فلم يزل يعلو وأسفل حتى بلغنا الغاية . قال : وأسلمته عائشة إلى من يعلمه البز فسألته بعد سنة أين بلغت ؟ قال : نصف العمل وبقي نصفه ، قالت له كيف ؟ قال : تعلمت النشر وبقي الطي .

وكان أشعب أطيب الناس غناء وأكثريهم ملحاً ، ونسك في آخر عمره ومات على ذلك رحمه الله تعالى . وكان يوم قتل عثمان غلاماً يسقى الماء وبقي إلى خلافة المهدي .
وأخرج سالم بن عبد الله متزهاً إلى ناحية من نواحي المدينة ومعه أهله وحرمة ، فبلغ أشعب الخبر فوافاهم يريد التطفيل ، فصادف الباب مغلقاً ، فتصور الحائط عليهم . فقال له سالم : ويلك يا أشعب معي بناتي وحرمي ! فقال له أشعب : (لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) . فضحك منه وأمر له بطعام أكله وحمل منه إلى منزله . وكان يقول ما أحسست قط بجار لي يطبخ قدراً إلا غسلت الغضارة وكسرت الخبز وانتظرتني يحمل إلى قدره . وقال له بعض أصحابه : لو صرت إلى العشي نتحدث ؟ فقال : أخاف أن يجيء ثقيل ، قال ليس معنا ثالث فمضى معه . قال : فلما صلينا الظهر ودعونا بالطعام إذا بشخص يدق الباب فقال أشعب : ترى أنا قد صرنا إلى ما نكره ؟ قال ققلت له إنه صديق وفيه عشر خصال إن كرهت واحدة منهم لم آذن له ، قال : هات ، قلت : الأولى أنه لا يأكل ولا يشرب ، قال : التسع لك إذن له .

وهذا نظير حديث الغاضري وقد أتى الحسن بن زيد وهو أمير المدينة . فقال : جعلت فداك إني عصيت الله ورسوله ، قال بثما صنعت وكيف ذاك ؟ قال : لأن الله عز وجل يقول (وما أناكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » وأنا أطعت امرأتى فاشتريت غلاماً فأبق ، فقال الحسن : اختر واحدة من ثلاث ؛ إن شئت ثمن الغلام ، فقال : بأبي أنت قف عند هذه فلا تجاوزها . قال : أعرض عليك الخصلتين ؟ قال : لا حسبي هذه . وغاضبت مصعب بن الزبير زوجته بنت طلحة فاشتد ذلك عليه وشكى أمره إلى خاصته . فقال له أشعب : فإلى إذا هي كلمتك ؟ قال عشرة

آلاف درهم ؛ فأتى إليها فقال : يا ابنة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تفضلي بكلام الأمير فقد استشفع بي عندك وأجزل لى العطية إن أنت كلمته ، قالت : لا سبيل إلى ذلك يا أشعب وانتهرته . فقال : جعلت فداك كلميه حتى أقبض عشرة آلاف درهم ثم ارجعنى إلى ماعودك الله من سوء الخاق . فضحكت فقامت فصالحته . والشئ يذكر بالشئ ، أى بما قاربه . كان عبد الملك بن مروان محباً لعاتكة بنت يزيد بن معاوية ففاضبته يوماً وسدت الباب الذى بينها وبينه فسأه ذلك وتعاضله ، وشكى إلى من يأنس به من خاصته ، فقال له عمر بن بلال الأسدى : إن أنا أَرْضيتها لك حتى ترضى فما الثواب ؟ قال : حكمك ، فأتى إلى بابها وقد مزق ثوبه وسوده فاستأذن عليها وقال اعلموها إن الأمر الذى جئت فيه عظيم ، فأذنت له فلما دخل رَمى بنفسه وبكى . فقالت : مالك ياعم ؟ قال لى ولدان هما من الاحسان إليّ فى الغاية وقد عدا أحدهما على أخيه فقتله وفجعنى به فاحتسبته وقلت يبقى لى ولد أتسلى به ، فأخذه أمير المؤمنين وقال : لا بد من القود وإلا فالناس يحترثون على القتل ، وهو قاتله إلا أن يغيشى الله بك ! ففتحت الباب ودخلت على عبد الملك وأكبت على البساط تقبله وتقول : يا أمير المؤمنين قد تعلم فضل عمر بن بلال وقد عزمتم على قتل ابنة فشغفى فيه ؟ فقال عبد الملك : ما كنت بالذى أفعل ، فأخذت فى التضرع والخضوع حتى وعدّها العفو عنه وصلاح ما بينهما ، فوفى لعمر بما وعده به .

وعلى ذكر عاتكة بنت يزيد ، قال المدائنى : لما حج أبو جعفر المنصور قال للربيع : أبغى قى من أهل المدينة أديبا ظريفاً عالماً بقديم ديارها ، ورسوم آثارها ، فقد بعد عهدى بديار قومى وأريد الوقوف عليها ، فالتمس له الربيع قى من أعلم الناس بالمدينة وأعرفهم بظريف الأخبار ، وشريف الأشعار ، فمعجب المنصور منه وكان يسايره أحسن مسaire ، ويحضره أزين محاضرة ، ولا يبتدئه بخطاب إلا على وجه الجواب ، فاذا سأله أتى بأوضح دلالة ، وأفصح مقالة .

فأعجب به المنصور غاية الإعجاب وقال للربيع : إُدفع إليه عشرة آلاف درهم ،
وكان الفتى مملاقا مضطرا . فتشاغل الربيع عنه واضطرته الحاجة إلى الاقتضاء ،
فاجتاز مع المنصور بدار عاتكة . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا بيت عاتكة بنت
يزيد بن معاوية الذي يقول فيه الأخوص بن محمد :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
فقال المنصور : ما هاج منه مالميس هو طبعه من أن يخبر بما لم يستخبر عنه ، ويحجب
بما لم يسأل عنه ؟ ثم أقبل يردد أبيات القصيدة في نفسه إلى أن بلغ إلى آخرها وهو :
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول مالا يفعل
فدعا بالربيع وقال له : هل دفعت للمديني ما أمرنا له به ؟ فقال آخرته علة كذا
يا أمير المؤمنين ، قال أضعفها له وعجلها .

وهذا أحسن إفهام من الفتى ، وأدق فهم من المنصور ، ولم أسمع في التعريض
بألطف منه . واقول الأخوص هذا سبب ذكره عبد الله بن عبيدة بن عمار بن
ياسر . قال : خرجت أنا والأخوص بن محمد مع عبد الله بن الحسن إلى الحج ،
فلما كنّا بقديد قلنا لعبد الله بن حسن لو أرسلت إلى سليمان بن أبي دبال
الخزاعي فأنشدنا من رقيق شعره ؛ فأرسل إليه فأنشدنا قصيدة له يقول فيها :

يا بيت خنساء الذي أتجنب	ذهب الزمان وحبا لا يذهب
أصبحت أمنحك الصدود وإنما	قسما إليك مع الصدود لأحب
مالي أحن إذا جمالك قربت	وأصد عنك وأنت مني أقرب
لله درك هل إليك معول ؟	لمتيم أم هل لودك مطلب ؟
فلقد رأيتك قبل ذاك وإني	لموكل بهواك لو يتجنب
إذ نحن في الزمن الرجي ^(١) وأنتم	متجاورون كلا كما لا يرقب
تبكي الحمامة شجوها فيبيجني	ويروح غارب همى المتأوب

(١) كذا ولعله : الرخي .

وتهب سارية الرياح بأرضكم فأرى البلاد بها تظل وتحسب
وأرى السمية باسمكم فيزيدي شوقاً إليك سميك المتقرب
وأرى الصديق يودكم فأوده إن كان ينبو منك أو يتنيب
وأخالف الواشين فيك تجملاً وهم على ذوو ضغائن ذوب
ثم اتخذتهم على وليجة حتى قضبت ومثل ذلك يقضب

فلما كان من قابل حج أبو بكر بن عبد العزيز فلما مر بالمدينة دخل عليه
الأخوص بن محمد فاستصحبه ففعل ، فلما خرج الأخوص قال له بعض من
عنده : ما تريد بنفسك ؟ تقدم الشام بالأخوص وفيها من تبعك من بني أبيك
وهو من السفه على ما علمت ! فلما رجع أبو بكر من الحج دخل عليه الأخوص
متنجزاً ما وعده من الصحابة ، فدعاه بمائة دينار وأثواب وقال : يا خال إني
نظرت فيما ضمننت لك من الصحابة فكرهت أن أهجم بك على أمير المؤمنين ،
فقال الأخوص : لا حاجة لي بعطيتك ولكني سئمت عندك ، ثم خرج فأرسل
عمر بن عبد العزيز إلى الأخوص - وهو أمير المدينة - فلما دخل عليه أعطاه
مائة دينار وكساه ثياباً ثم قال له : يا خال هب لي عرض أخى ، قال : هو لك ، ثم
خرج الأخوص وهو يقول في عروض قصيدة سليمان بن أبي دبال كل يمدح عمر :

يا بيت عاتكة الذى أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
هل عيشنا بك فى زمانك راجع فلقد تفاحش بعدك المتعلل
أصبحت أمنحك الصدود وإننى قسماً إليك مع الصدود لا أميل
فصددت عنك وما صددت لبغضة أخشى مقالة كاشح لا يغفل
وتجنبنى بيت الحبيب أزوره أرضى البغيض به حديث معضل
إن الزمان وعيشنا ذاك الذى كنّا ببلذته نسر ونجدل
ذهبت بشاشته وأصبح ذكره أسفاً يعل به الفؤاد وينهل

حتى انتهى إلى قوله :

فسموت عن أخلاقهم وتركهم لنداك إن الحازم المتوكل

ووعدتني في حاجتي فصدقتنى ووفيت إن كذبوا الحديث وبدلوا
ولقد بدأت أريد ودّ معاشر وعدوا مواعد أخلفت إذ حصلوا
حتى إذا رجع اليقين مطامعى يأساً وأخلفنى الذين أواملو
زائلت ما صنعوا إليك برحلة عجلى وعندك منهم المتحول
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذاق الحديث يقول مالا يفعل
فقال له عمر بن عبد العزيز : ما أراك أعفيتنى مما استعفيتك .

والأخوص وإن كان ممن أغار على قصيدة سليمان ، فقد أربى عليه في
الاحسان ، وكان كما قال ابن المرزبان . وقد أنشد لابن المعتز قصيدته في مناقضة
ابن طباطبا العلوى التى أولها :

دعوا الأسد تكنس في غابها ولا تدخلوا بين أنيابها
أخذ ساجاً ورده عاجاً ، وغل قطيفة ، ورد ديباجاً .

قال سدابة المغنى لأبى العباس المبرد : صر إلى اليوم لنأنس بك . قال : أى
شئ عندك آكل ؟ قال : أنت وأنا عليك . يريد لهما مبرداً وعليه سداب . ولقى
برد الخيار الكاتب أبا العباس المبرد على الجسر في يوم بارد . فقال : أنت
المبرد ، وأنا برد الخيار ، واليوم بارد ، أعبر بنا لئلا يصيب الناس الفالج .

وقال عون بن محمد : لقيت بادروجة المغنى وسكباج الراقص بسر من رأى ،
فصحت : يا غلام المائدة فقد وافى الألوان ، فضحكوا ؛ وأقسم علينا بادروجة فكنا
يومنا عنده فى أطيب عيش . وكان ابن جدار كاتب العباس بن أحمد بن طولون .
بارد المشاهدة ، فعاد أبا حفص بن أبى أيوب بن أخت الوزير ، فوافاه وقد أصابته
قشعريرة . فقال : ما تجد جعلت فداك ؟ قال أجذك . وكان أبو حفص أدبياً شاعراً
بليغاً ولها ، وقد رأى ورداً قريباً من اقحوان فقال :

أرى أقحوانات يطفن بناصع من الورد مخضّر النبات نضيد

يَمِيلُهُ رِيحُ الصَّبَا فَكَأَنَّهُ ثُغُورُ دَنْتٍ شَوْقًا لِلَّهِمْ خُدُودُ
وَكَانَ ابْنُ جِدَارٍ : يَنْقُلُ أَخْبَارَ أَبِي حَفْصٍ إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ ،
فَصَارَ إِلَيْهِ يَوْمًا فَقَالَ : أَعَزَّكَ اللَّهُ إِنَّمَا مَجْلِسُ الْمَدَامِ حَرَمَةُ أَنْسَ ، وَمَسْرَحُ لِبَانَةِ ،
وَمَزَادُ هَمٍّ ، وَمَرْتَعٌ لَهُوٌ ، وَمَهْدُ سُرُورٍ ، وَإِنَّمَا تَوْسِطَتُهُ عِنْدَ مَنْ لَا يَتَهَمُ غِيْبَهُ ، وَقَدْ
بَلَغَنِي مَا تَنْهِيهِ إِلَى أَمِيرِنَا أَبِي الْفَضْلِ مِنْ أَخْبَارِ مَجَالِسِي . وَأَنْشَدَ :

وَلَقَدْ قُلْتُ لِلْأَخْلَاءِ يَوْمًا قَوْلَ سَاعٍ بِالنَّصْحِ لَوْ سَمِعُوهُ
إِنَّمَا مَجْلِسُ الْمَدَامِ بَسَاطٌ لِلْعَوْدَاتِ بَيْنَهُمْ وَضَعُوهُ
فَإِذَا مَا انْتَهَوْا إِلَى مَا أَرَادُوا مِنْ نَعِيمٍ وَلَذَّةٍ رَفَعُوهُ

فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَحَلَفَ أَنَّهُ مَا فَعَلَ ، وَقَامَ عَنْ مَجْلِسِهِ . وَأَنْشَدَ :

كَمْ مِنْ أَخٍ أَوْجَسَتْ مِنْهُ خِيفَةٌ فَأَنْسَتْ بَعْدَ وَدَادِهِ بِفِرَاقِهِ
لَمْ أَحْمَدِ الْأَيَّامَ مِنْهُ خَلِيقَةً فَتَرَكْتُهُ مُسْتَمْتَعًا بِخُلَاقِهِ
وَكَانَ ابْنُ جِدَارٍ قَبْلَ تَعَلُّقِهِ بِالْعَبَّاسِ يَتَكَسَّبُ بِالشَّعْرِ وَيَقْنَعُ بِالْيَسِيرِ ، فَصَارَ إِلَى

دَارِ اسْحَاقَ بْنِ دِينَارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَامْتَدَحَهُ فَلَمْ يَهَبْ لَهُ شَيْئًا فَقَالَ فِيهِ :

عَجِبَ النَّاسُ إِنْ مَدَحْتَ ابْنَ دِينَارٍ فَلَمْ يَجْزِنِي عَلَى مَدْحِهِ
قُلْتُ لَا تَعْجَبُوا فَمَا قَدِمَ اللُّؤْلُؤُ مَعْجِيًّا مِنْهُ وَلَا مِنْ أَخِيهِ
إِنْ دِينَارُهُ أَبُوهُ وَمَنْ جَاءَ دُونَ النَّاسِ لَامَرِيءَ بِأَيْمِهِ ؟

وَهُوَ الْقَائِلُ فِي الْقَلَمِ :

وَعَاشِقٌ تَحْتَ رَوَاقِ الدَّجَى أَغْرَى بِهِ الْحَيْرَةَ فَقَدَانُ
أَهْيَفُ مَمْشُوقٌ بِتَحْرِيكِهِ نَجْدٌ عَقْدُ السَّرِّ إِعْلَانُ
يَحْوِكُ وَشْيًا لَمْ يَحْكُ مِثْلَهُ بِلَاغَةٍ تَحْكِي وَبِرَهَانُ
وَرَبَّمَا أَحْيَا وَأَهْدَى الرَّدَى فَفِيهِ مَآذِي وَخَطِيئَانُ
وَفِيهِ لِلنَّازِلِ أَعْجُوبَةٌ يَكْسُو عِدَاهُ وَهُوَ عَرِيَانُ
تَجْرِي بِهِ خَمْسُ مَطَايَا لَهُ مَخْتَلِفَاتُ الْعَدَا أَقْرَانُ

له لسان مرهف حده من ريقه الكرسف ريان
 في رقة المعنى إذا أغرقت للقول في التدقيق أذهان
 إذا احتسى كأساً كلون الدجا حرك منه الرأس نشوان
 كأنما ينثر من لفظه در وياقوت ومرجان
 ترى بسيط الفكر في نظمه شخص له حد وجثمان
 كأنما يسحب في إثره ذبلاً على الحكمة سحبان
 لولاه ما قام منار الهدى ولا سيما بالملك ديوان

قدم محمد بن مكرم من الجبل. فقال له أبو العيناء : مالك لم تهتد إلينا شيئاً ؟
 فقال : والله ما قدمت إلا في خوف ، قال كذبت ، ولو قدمت في خوف خفت روحك .
 وأكثر عليه أبو العيناء من المهاترة . فقال : إن زدت على قمت ، قال أراك تهتددنا
 بالعافية . وكانا يشربان يوماً عند صديق لهما ، فقال ابن مكرم لصاحب الدار : أقوم
 إلى الخلاء ، فقال أبو العيناء : إذا لا يعود إلينا منك شيء . وولد لأبي العيناء مولود
 فأتاه ابن مكرم مهنتاً ، فوضع بين يدي أبي العيناء حجراً وانصرف . فحسه أبو العيناء
 فوجده حجراً . فقال : من وضع هذا ؟ فقالوا : تركه ابن مكرم لما قدم ، قال لعنه الله
 إنما عرض بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش وللماهر الحجر » . وأتى
 محمد بن مكرم شاعر . فقال : إني قد هجوتك بشعر ؟ فقال : قل فوالله لئن أحسنت
 لأخلعن عليك خلعة ، فأنشده :

يا فتى مكرم تنح عن الفخر فما مكرم وما دينار
 لا تفاخر إذا فخرت بهذيبن فذا كودن وذاك حمار

فقال أحسنت ، ولكني أكسوك من ثيابنا ، يا غلام ارم عليه جلا ويردعا .
 دخل بعض أبناء الملوك على المبرد وعنده سلة حلوى قد أعدها لبعض إخوانه ،
 فوجد ابنه الفرصة في اشتغال أبيه فأقبل يأكل منها . فنظر إليه المبرد فأنشده :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

ودخل أبو الحارث حمير على بعض الملوك فرأى بين يديه سلة حلوى . فقال : ما في هذا أيها الأمير ؟ قال باذنجان . وكان أبو الحارث يكره الباذنجان كراهية شديدة . وأصلح محمد بن يحيى بن خالد دعوى ، وأمر الطباخ أن يجعل الباذنجان في جميع الطعام ، وحضر أبو الحارث فكلما قدم لون وهم بالأكل منعه ما يراه إلى أن ضاق ، فأقبل يأكل بدقة المائدة فعطش فقال : استقوني ماء . لا باذنجان فيه . ودخل على محمد بن يحيى وبين يديه مزورات وكان محمياً ، فأكل معه وخرج من عنده فلقية بعض إخوانه ، فغطى رأسه منهم واستخفى . فقالوا : مالك يا أبا الحارث ؟ قال أكلت عند محمد بن يحيى بقولا كثيرة ، قالوا فما تخاف ؟ قال أخاف أن يمر السباح فيمسحني خضراء فلا يقبلوا مني مظلمة . وهذا كما حكى عن الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجل : أنه مر ببعض إخوانه بعقبة النجارين وهو يعدو بأكثر مما يقدر عليه ، فقال له : قف على ، تخاف أن تكون نزلت به نازلة فأتاه إلى الدار فخرج مستخفياً . فقال : مالك يا أبا عبد الله ؟ قال : ما علمت أن السخرة وقعت في الجمال ؟ فما يؤمنني أن يقال هذا الجمل فأؤخذ فلا أتخلص إلا بشفاعه . وكان الجمل حلوا ظريفاً . وكان أبو الحسن أحمد بن المدبر إذا مدحه شاعر فلم يحسن وكل به من يمضي معه إلى الجامع فلا يفارقه حتى يصلي مائة ركعة ، فتحاماه الشعراء . فأتاه الجمل فأنشده :

أردنا في أبي حسن مديحاً	كما بالمدح تنتجع الولاة
فقلنا أكرم الثقلين طرا	ومن كفاءه دجلة والفرات
فقالوا يقبل المدحات لكن	جوائزه إلى الناس الصلابة
فقلت لهم وما تغني صلاتي	عيالى إنما الشأن الزكاة
فأما إذ أبي إلا صلاتي	وعاقتني الموم الساعات
فيأمرلى بكسر الصاد منها	لعل أن تنشطى الصلات

فيصلح لى على هذى حىأتى و يصلح لى على هذى المات
فأمر له بمائة دينار . وقيل له : من أين اهتديت إلى هذا ؟ قال من قول أبي تمام :
هن الحمام فان كسرت عيافة من حائهن فانهن حمام

وكان محمد بن يحيى البرمكى يبخل ولم يكن بخيلا إلا بالاضافة إلى أخويه
الفضل وجعفر ، وكان أبو الحارث حمير يكثر وصفه بذلك ، فقيل له يوماً : كيف
مائدة محمد ؟ فقال : أما خوانه فعدسة ، وأما صحافه فنقورة من خشب الخشخاش ،
وبين الرغيف والرغيف فترة . قيل : فمن يحضرها ؟ قال أكرم الخلق والأهم .
- يريد الملائكة عليهم السلام والذباب - وقد ذكر غير هذا والحكايات تختلف .
وقيل له : كيف كنت عنده ؟ قال : عليه الطلاق ان لم يكن أقام ثلاثة أيام وبطنه
يظن أن رأسه قطع لأنه لم يدخل إليه آثار طعام ولا شراب .
ومن مستجاد ما قيل في البخل مما جمع إلى الخلاعة براعة ، قول أبي نواس في
اسماعيل بن نبيخت :

على خبز اسماعيل واقية البخل	فقد حل في دار الأمان من الأكل
وما خبزه إلا كأوى يرى ابنها	ولسنا نراها في الخزون ولا السهل
وما خبزه إلا كعتقاء مغرب	تصور في بسط الملوك وفي المسهل
يحدث عنها الناس من غير رؤية	سوى صورة ما إن تمر ولا تحلى
وما خبزه إلا كليب بن وائل	ليالى يحمى عزّة منبت البقل
وإذ هو لا يستب خصمان عنده	ولا الصوت مرفوع بجد ولا هزل
فان خبز اسماعيل حل به الذى	أصاب كليباً لم يكن ذاك عن ذل
ولكن قضاء ليس يسطاع رده	بخيلة ذى وهى ولا مكر ذى عقل

قال الجاحظ : وأبيات أبي نواس على أنه مولد شاطر أشعر من شعر المهلهل في
اطراق المجلس بكليب أخيه إذ يقول :

نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس
وتحدثوا في أمر كل عظمة لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا
وكان كليب إذا جلس في ناديه لم يرفع أحد طرفه ، ولا ينطق بكلمة إجلاله .
وقال أبو نواس :

رأيت قدور الناس سودا من الصلا وقدر الرقاشين زهراء كالبدر
يضيق بحيزوم البعوضة صدرها ويخرج مافيا على طرف الظفر
بينها للمعتنى بغنائهم ثلاث كخط الثاء من نقط الخبر
إذا ماتنادوا للرحيل سعى بها أمامهم الحولى من ولد الذر
وهذا القدر ضد قدر القائل :

وبأت قدرى موضعاً فوضعها براية ما بين ميث وأجرع
جعلت لها هضب الرجام وطحنه وهو لازماً^(١) في قدرها لم تنزع
بقدر كأن الليل سحنة قدرها ترى الفيل فيها طافياً لم يقطع

وينجب أن يأكل ما في هذا القدر من ذكر الفرزدق في قوله :

لعمرك ما الارزاق حين اكتيالها بأكثر خبراً من خوان العذافر
ولو ضافه الدجال يلمس القرى وحل على خبازه بالعساكر
بعدة بأجوج ومأجوج كلهم لأشبعهم يوماً غداء عذافر
ودخل رجل على المتوكل فقال له : ما اسمك ؟ قال قطان ، قال وما صناعتك ؟
قال حمدان ، قال : لعل اسمك حمدان وصناعتك قطان ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين
ولكنى دهشت لهيتك . وقال رجل لآخر معه كلب : ما اسمك ؟ قال وثاب
قال وما اسم كلبك ؟ قال عروة ، قال وإخلافاه . وقال ابن قادم : كنا نماشى ابن
المفتاب القاضى ، فررنا بمقبرة فاذا عليها مكتوب بركة من الله صاحبها . وكنا
في أملاك فاذا على منارة مكتوب : كل نفس ذائقة الموت . فقلت هذه بتلك .

(١) كذا في الأصل ولم أقف على صحته .

وممن وقع له هذا على الخط فأحسن الاستدراك مطيع بن اياس الحارثي ،
فانه دخل على الهادي في حياة المهدي وهو ولي عهد . فقال : السلام عليك يا أمير
المؤمنين ، فقيل له مه !! فقال : بعد أمير المؤمنين .

وأما ابو العبر ومحمد بن حكيم الكتنجي فقد كانا يتعمدان المقلوب رقاعة ومجانة ،
وابو العبر هو الذي كتب لبعض اصحابه : أما قبل فاحكم بنيانك على الرمل ،
واحبس الماء في الهواء حتى يفرق الناس من العطش ، فانك إذا فعلت ذلك أمرت
لك كل يوم بسبعة آلاف درهم ينقص كل درهم سبعة دنانير . وكتب يوم إلا
تسعا لحس واربعين ليلة خلت من شهر ربيع الاوسط سنة عشرين إلا مائتين .
وله مثل هذا كثير من منظوم ومنثور . وهو القائل :

الخواخ يعشق وكنة الرمان والطيلسان قرابة الخفان
يا من رمى قلبي فمرقب أذنه فشممت منه حموضة الكتان

وقال ابو العبر : كنا نختلف ونحن احداث الى رجل يعلمنا الهزل ، فكان يقول :
أول ما تريدون قلب الأشياء ، فكنا نقول اذا أصبح كيف أمسيت ؟ واذا أمسى
كيف أصبحت ؟ واذا قال تعال تأخر الى خلف ، وكانت له أرزاق تعمل كتابتها
في كل سنة ، فعمل مرة وانا معه الكتاب فلما فرغ من التوقيع وبقي الختم . قال :
اتربه وجشني به ، فضيت فضيت عليه الماء فبطل ، فقال ويحك ما صنعت ؟ قلت :
ما نحن فيه طول النهار من قلب الأشياء !! قال والله لا تصحبني بعد اليوم فانت
أستاذ الاستاذين . وكان نقش خاتم أبي المهر توفي جُعي يوم الاربعاء . وتعرض
للمتوكل - والمتوكل مشرف على مظهر في قصره الجعفرى وقد جعل في رجله قلنسوتين
وعلى رأسه خفا وقد جعل سراويله قميصاً وقيصه سراويل ، فقال على بهذا المثالة
فدخل عليه فقال أنت شارب ؟ قال ما أنا إلا عنققة ، قال إني أضع الأدم في
رجليك وانفيك في فارس ، قال ضع في رجلي الاشهب وانفي الى راجل ، قال
اتراني في قتلك مأثوم ؟ قال : بل ماء بصل يا أمير المؤمنين ، فضحك ووصله .

وابو العبر القائل في الجد :

ليس لي مال ولي كرم فيه أقوى على عدمي
لا أقول الله يظلمني كيف أشكو غير منهم
قذمت نفسي بما رزقت وتمشت في العلامي
ولبست الصبر سائفة فهي من فرقي إلى قدمي
فاذا ما الدهر عاتبنى لم تجدني كافر النعم

وله في الرقيق (١)

رق حتى يكاد خذك يحرق رقة والجفون ترنو بسحر
يا قليل الشبيه مستظرف الشك لي بديع الجلال مغرى بهجر
كف عني الصدود يا واحد الحسد ن فقد عيل من صدودك صبرى

وله أيضاً :

أبكي إذا غضبت حتى إذا رضيت بكيت عند الرضا خوفاً من الغضب
فالموت إن رضيت والموت إن غضبت أنى يرجى سلوة عشت في تعب

وهذا قريب من قول فضل الشاعرة ، وقيل سعيد بن حميد :

ما كنت أيام كنت راضية عني بذلك الرضا بمغتنب
علماً بأن الرضا سيتبعه منك التجنى وكثرة السخط
فكل ما ساءنى فمن خلق منك وما سرفى فمن غلط

هذا البيت الأخير كقول أبي العيناء وقد سأله المتوكل عن ميمون بن إبراهيم صاحب ديوان البريد وكان يفضله فقال : يد تسرق ، مثله مثل يهودى سرق نصف جزيته ، فله إقدام بما أدى ، وإحجام بما بقى ، إساءته طبيعية ، وإحسانه تكلف .

(١) كذا في الأصل ولعله (الرقة)

ولما مات أبو محجن الثقفي وقف رجل على قبره . فقال : رحمك الله أبا محجن
فوالله لقد كنت قليل المراء جيد الغناء ، غير نعاس ولا عباس ، ولا حابس للكاس .
واسم أبي محجن عروة بن حبيب وكان فارساً شاعراً وكان مشتهراً بالشراب
كثيراً يقول فيه ^(١) ، فحده عمر رضى الله عنه مرات ثم أخرجه إلى العراق
فشرب فحده سعد بن أبي وقاص وسجنه في قصر العذيب ، وكان سعد مريضاً
في القصر وأقام المسلمون في حرب القادسية أياماً فوجهت الأعاجم قوماً إلى القصر
ليأخذوا من فيه ، فاحتال أبو محجن حتى ركب فرس سعد من غير علمه فخرج
فأوقع بهم فرآه سعد ، فلما انصرف بالظفر خلى سبيله . وقال : لا أضربك
بعدها في الشرب ، قال فاني لا أذوقها أبداً . ودخل ابن أبي محجن على معاوية
فقال له : أبوك الذي يقول ؟

إذا مت فادفني إلى جنب كرمه تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني في الفلاة فاني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها
فقال : يا أمير المؤمنين لو شئت لذكرت من شعره ما هو أحسن من هذا وأنشد
لا تسألني القوم عن مالي وكثرته وسألتني القوم عن بأسى وعن خلقي
القوم أعلم أني من سراتهم إذا تطيش يد الرعديدة الفرق
أعطى السنان غداة الزوع حصته وعامل الرمح أرويه من العلق
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتم السر فيه ضربة العنق
فقال : لئن كنا أسأنا المقاتل ، لا نسيء الفعّال ، وأمر له بصلة .

وقال أبو عائشة : مات رجل من أهل الشام فحضر الحجاج جنازته وكان عظيم
القدر وله عز وجاه ، فصلى عليه وجلس على شفير قبره . وقال : لينزل قبره بعض
إخوانه ، فنزل نفر منهم ، فقال أحدهم وهو يسوى التراب عليه : رحمك الله يا أبا فلان

(١) كذا ولعله : (كثير القول فيه أو كثيراً ما يقول فيه) . والقصة
في شرح ديوانه بأبسط من هذا

فان كنت ما علمت لتجيد الغناء ، وتسرع رد الكأس ، ولقد وقعت بموضع
سوء لا تخرج منه إلا يوم الدكة . قال : فما تمالك الحجاج أن ضحك وكان لا يضحك
في جد ولا في هزل ، ثم قال للرجل : هذا موضع هذا الأمر ويحك ؟ ! قال : أصلح
الله الأمير فرسى حبيس في سبيل الله لو سمعه الأمير يتغنى :

يَالْبُيْنِي أَوْقَدِي النَّارَ إِنْ مِنْ تَهْوِينَ قَدْ جَارَا

رُبَّ نَارٍ بَتَ أَرْمَقُهَا تَقْضِمُ الْهِنْدِي وَالْفَارَا

عندها ظني يؤججها عاقد في الخصر زناراً

وكان الميت يسمى سعة . فقال : أخرجوه من القبر يا أهل الشام ما أئين حجة
أهل العراق في جهلكم ، وكان الميت أقبح خلق الله وجهاً ، فلم يبق أحد
من حضر إلا استغرق ضحكاً

وأهل الشام غاية في الجهل والغباوة . ودخل رجل من أهل العراق الشام في
أيام عبد الملك في حوائج له فحجب عنه ، فدخل في غمار الناس فقال عبد الملك
لجلسائه : ما معنى قول الشاعر ؟

إِذَا مَا الْمَوَاشِطُ بِأَكْرَمِهَا وَأَتْبَعُنِ بِالظَّفَرِ وَحَفًّا طَوِيلَا

تَحْذِنُ الْقُرُونُ فَمَقْلَتَهَا كَمَقْلِ الْعَسِيفِ غَرَايِبِ مِيلَا

يصف شعر امرأة ، والوحف البشام ، والعسيف الأجير ، والغرايب الشديدة
السواد : يريد عنا قيد الكرم ، وروى - عراجين ميلا ، فسكتوا عن آخرهم :
فقال العراقي لرجل من أهل الشام له بزة وهيئة : رأيتك إن أخبرتك بمعناه
وحصل لك الحظ عند أمير المؤمنين أتقربني منه حتى أسأله حاجتي ؟ قال : لك
ذلك . قال إنما يصف البطيخ ، فوثب الشامي وقل ذلك فافضح وانقلب الجاس
ضحكاً . فقال له عبد الملك : من أين لك هذا العلم ؟ قال هذا العراقي ابن اللعناء
قال لي ذلك . فقال عبد الملك : ما أدخلك أذكر حاجتك ؟ فدكرها فقضاها
له وقال : أخرج من الشام لا تفسدها على بمجاورتك

ومما جمع التصرف في الاحسان وبديع الافتنان ، قول مسلم بن الوليد الأنصاري :

أجذك ما تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك ينشر
نصبت لها حتى تجلت بغرة كغرة يحبي حين يذكر جعفر
يريد يحبي بن خالد بن برمك وجعفر ابنه . وقال ابن المعتز :

سقتني في ليل شبيه شعرها شبيه خديها بغير رقيب
فأمسيت في ليلين بالشعر والدجى وشمسين من خمر وخذ حبيب
وقال أبو الطيب :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فارت ليالى أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فارتني القمرين في وقت معا

ومن أعجب ما قيل في وصف الشعر ما جمع فيه وصف سواده وتماحه وأتى بالتشبيه الواقع ، والوصف الرائع ؛ قول أبي الحسن علي بن العباس الرومي ^(١) :

وفاحم وارد يقبل ممشاه إذا اختال مسبلا غدره
أقبل كالليل من مفارقه منحدر لا يذم منحدره
حتى تناهى إلى موطنه يلثم من كل موطن عفره
كانه عاشق دنا شغفا حتى قضى من حبيبه وطره
يفشى غواشي قرونه قدما ييضاء للناظرين مقتدره
مثل الثريا إذا بدت سحرا بعد غمام وحاسر حسره

وقد أخذه منه بعض أهل العصر وهو أبو محمد بن مطران فقاربه في الاحسان :

ظباء اعارتها لها حسن مشيها كما قد اعارتها العيون الجاذر
فمن حسن ذلك المشى جاءت فقبلت موطن من اقدامهن الضفائر ^(٢)

(١) هذه القطعة أصلحت خطأها من نسخة ديوانه (٢) في الأصل : الضفائر بالظاء المشالة .

وكان بنو أمية يكرهون أهل العراق لفطنتهم ورقتهم، إذ سياسة الأغبياء أسهل عليهم
 فقد قال الاسكندر لا رسطا طاليس : قد أعياني أهل العراق ما أجرى عليهم حيلة
 إلا وجدتهم قد سبقوني إلى الخلاص فتخلصوا قبل إيقاعها بهم ، وقد عزمت على
 قتلهم عن آخرهم ؟ فقال إذا قتلتمهم فهل تقدر على قتل الهواء الذي غذى طباعهم
 وخصهم بهذا الذكاء ؟ فان ماتوا ظهر في موضعهم من يشاكلهم ، فقال : ما الرأي ؟
 قال من كان فيه هذا العقل كانت فيه أنفة وحمية وشراسة خلق ، وقلة رضى بالضم .
 فاقسمها طوائف وول على كل طائفة أميرا فانهم يختلفون ، فاذا اختلفوا قلت شوكتهم
 فغفلوا . فأقاموا مختلفين أربع مائة عام حتى جمعهم أزدشير بن بابك وقال : إن كلمة
 فرقت بيننا أربع مائة سنة لمشئومة .

ودخل أياس بن معاوية بن قرّة الشام وهو صغير ، فخاصم شبيخا إلى القاضي
 وأقبل يصول عليه ، فقال القاضي : أسكت يا صبي . فقال : فمن ينطق بحجتي ؟ قال
 إنه شيخ كبير ، قال : إن الحق أكبر منه ، قال القاضي : ما أراك تقول حقا ، فقال
 لا اله الا الله ، فركب القاضي من وقته إلى عبد الملك فأخبره فقال : عجل بقضاء
 حاجته وأخرجه من الشام لئلا يفسدها ، وياياس يضرب المثل في الذكاء قال الطائي :
 إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

خرج بعض ملوك الفرس متنزها فلقية بعض الحكماء فسأله عن احزم الملوك ؟
 فقال : من ملك جده وهزله ، وقهر لبه هواه ، وأعرب لسانه عن ضميره ، ولم
 يختدعه رضاه عن سخطه ، ولا غضبه عن صدقه ، فقال الملك : لا ، بل احزم الملوك
 من إذا جاع أكل ، وإذا عطش شرب ، وإذا تعب استراح . فقال له : أيها الملك
 قد اجدت الفطنة أهذا لك علم مستفاد أم غريزي ؟ قال : كان لي معلم من حكماء
 الهند وكان هذا نقش خاتمه ، قال : فهل علمك غير هذا ؟ قال : ومن أين يوجد هذا
 عند رجل واحد ، ثم قال الملك : علمني من حكمتك أيها الحكيم ، قال : نعم ! احفظ
 عنى ثلاث كلمات ؛ قال صدقت فهات ، قال : صقلك لسيف ليس له جوهر من طبعه

فهو خطأ ، وبذكرك الحب في الأرض السبخة ترجو نباته جهل ، وحملك الصعب
السير على الرياضة غناء ، ومن هنا اخذ ابو تمام قوله :

في دولة غراء ^(١) معتصمية ميمونة الإدبار والإقبال
فتعمق الوزراء يطفو فوقها طفو القذى وتعقب العذال
والسيف مالم يأنف فيه صيقل من طبعه ^(٢) لم ينتفع بصقال

وكان القلهمان أحد حكماء الهند وفلاسوف أطبائهم وترجمان علومهم ، وكان
ترجمان ملك من ملوكهم يقال له يا كهتر بن شبرام وكان ركيكا إلا أنه من أهل
بيت المملكة ، فقال يوماً للقلهمان : ما العلم الأكبر ؟ قال : معرفة الطب . قال فاني
أعلم من الطب أكثره . قال فما دواء المبرسم أيها الملك ؟ قال : الموت حتى تقل
حرارة صدره ثم يعالج بعد بالأدوية الباردة . قال القلهمان : أيها الملك من يحويه بعد
الموت ؟ قال ليس هذا من الطب هذا علم آخر يوجد في كتاب النجوم . ولم أنظر في شيء
منه إلا في باب الحياة فاني وجدت خيراً للانسان من الموت . قال القلهمان : أيها
الملك على كل حال خير للجاهل . قال لو نظر الجاهل في باب الموت لعلم أني قلت الحق .
وسأل أبو عون رجلاً عن مسألة فقال على الخبير سقطت ، سألت عنها
أبي فقال سألت أبي فقال : لا أدري . قال أزهري : استعدت امرأة على زوجها
عند ثمانية بن عبد الله بن أنس بن مالك وهو قاض فادعت مهرها ألف درهم ،
فقال : ألك بينة ؟ قالت لا ، قال أفأحلفه لك ؟ قالت إنه فاجر يحلف ولكن
ابعث إلى اسحاق بن سويد الفقيه فسله أن يحلف لي عنه . قال فأرسل إلى اسحاق
ابن سويد فلما حضر . قال له : احلف لهذه المرأة مالها على زوجها الف درهم ؟ قال
اسحاق : ما أنا وهذا !! قال فيبطل حق هذه المرأة ؟ لتحلفن لها أو لأحبسكن ،
فلم يحلف فحبسه . فأتاه ابن سيرين فقال : لا ألومك على حبسك اسحاق ولكن لم

(١) في ديوانه : وعزيمة في الروع الخ . (٢) من نسخه .

وليت القضاء ؟ قال : أكرهنى عليه السلطان ، قال كنت تعلمه أنك لاتحسن ، قال
كنت أنا أكذب ؟

وكان نصر بن مقبل بن الوزير على الرقة عاملاً لهرون الرشيد ، فأخذ بعض
أصحابه رجلاً ينكح شاة وأجمعوا الذهاب به إلى نصر ، وكان الرجل ظريفاً فقال :
يا قوم إنها والله ملك يمينى . فضحكوا منه وخلوا سبيله وذهبوا بالشاة إلى نصر ؛
فأمر أن تضرب الحدفان ماتت تصلب . قالوا : إنها بهيمة ؟! قال : وإن كانت بهيمة
فإن الحدود لاتعطل وإن عطلتها فبئس الوالى أنا . فأنتهى حديثه إلى الرشيد ولم
يكن رآه ، وكان نبيل القد حسن المنظر جليل القدر فدعا به فوقف بين يديه ،
قال من أنت ؟ قال مولى لبنى الكلب يا أمير المؤمنين ، فضحك . ثم قال : كيف
بصرک فى الحكم ؟ قال : البهاائم يا أمير المؤمنين والناس عندى سواء ، ولو وجب الحكم
على بهيمة وكانت أمى أو أختى لحدتها ولم تأخذنى فى الله لومة لائم . فأمر هارون
أن لا يستعمل ، فلم يزل معطلا حتى ولى المأمون فرفع يسأله الاستعانة به فولاه
طبرناباد وأمره أن يكون على العصير بها فلم يزل على ذلك حتى مات .

وكان مقاتل بن حسان على قضاء البصرة فسأله رجل عن مسألة . فقال :
لا أعرف الجواب ، فقال أنت قاض ولا تحسن المسألة ؟ قال نعم ! لأن الثور
أعظم من الحمار ولا يحسن أن يركض ركض الحمار ، قال : أيها القاضى فهذا
مثلك ؟ قال بل هذا مثلى ومثلك . قال : فأيهما أنت ؟ قال أنبلهما وأعظمهما
- يعنى الثور -

قال أبو الهذيل العلاف : كان يختلف إلى قتي من أهل الموصل حسن السميت
نير الوجه نقي الثياب ، فكان يصمت فى المجلس ، وإذا أتاه النهوض . قال : استغفر
الله لى وللمتكام ثم يمضى . قال فنبل فى عيني ولا ط بقاءى وحلا فى صدرى ، فذكرت قول

الحكيم في كتاب جاودان جرد^(١) يحرم على السامع تكذيب القائل إلا في ثلاث
 من غير الحق ؛ صبر الجاهل على مضض المصيبة ، وعاقل أبغض من أحسن إليه ،
 وحماة أحببت كنة . فقال الفتى : لولا حفظي لنظير هذه الكلمات وسماعهن من
 ثقة . فاشترأينا إليه وقلنا ماذا ذاك يرحمك الله ؟ وظننا أنه سيأتى بأحسن منهن ،
 فقال : حدثني أبي عن جدي أنه قرأ في بعض كتب الحكماء : ليس الجائع
 كالشبعان ، ولا المكسى كالعريان ، ولا النائم كاليقظان . فطأطأت رأسي وجعل
 أصحابي ينظرون إلى واليه ، وكرهت أن أسأله عن شيء بعد هذا . فقال له بعضهم :
 من أنت يا فتى ؟ قال من فوق الأرض ومن تحت السماء ، قال : فمن العرب أم من
 الموالي ؟ قال من أوسطهما ، قال : فما الاسم ؟ قال لجام ، قال فما السكنية ؟ قال
 أبو السراج ، قال فما بالك لا تنهض ؟ فوالله ما أنت إلا حمار ، فوثب قائماً . وقال :
 ليس البحث منكم ولكن مني حيث أجلس إلى أمثالكم ولا تعرفون ماطحاتها .
 وكتاب جاودان جرد من أجل كتب الفرس : وكان سببه على ما ذكر الجاحظ
 أن بعض الأكسرة كان زاهداً في كتب الأدب ، راغباً في التكبر عن النظر فيها ،
 والتعظيم عن الاشتغال بشيء منها ، وكان له وزير يقال له كنجور بن اسفنديار فصنع

(١) جاودان جرد كذا في الأصل والمحموظ : جاودان خرد (بالحاء المعجمة)
 ذكره كاتب جلبي في كشف الظنون وقال : اسم كتاب للفرس منسوب إلى هوشنك
 شاه . وقد عربه حسن بن سهل وزير المأمون ولخصه أيضاً في تعريبه . وأورد الشيخ
 أبو علي بن مسكويه هذا الملخص في مقدمة كتابه المسمى بآداب العرب والفرس .
 وفي كتاب برهان قاطع : (جاودان خرد كسر نونله حكمت عليه ده بركتا بدر
 هوشنك شاه تصنيف ايتمشدر) أقول وقد ملكت نسخة من تصنيف أبي علي بن
 مسكويه العربية وعلى طرفتها أنها نسخت برسم السلطان مصطفى العثماني ومضاف إليها
 آداب الهند وبعثها من المرحوم رضا باشا ثم اشترتها وزارة الأوقاف فيما اشترته من
 كتب رضا باشا بعد موته وهي الآن في المكتبة العمومية الكائنة في ميدان بايزيد
 باستانبول . مصححه

ترجمة لكتاب لم يعلمها أحد وجعلها في ورقة وألقاها إلى الملك وكانت الترجمة : هذا كتاب تصفية الأذهان ، ونقاء الفكر ، وسرج القلوب ، من كتاب واضح عمود الحكمة . فلما نظر الملك إلى هذه الترجمة شغفه حسنها فقال لكنجور : لقد غلبت هذه الترجمة على هواي ، وقادت عزمي وبعثت رأيي على هذا الكتاب فسل عنه سؤالاً حفيظاً يرجع بجلية الخبر ، وأبعث الحكماء الادلاء على تفتيش منازل الحكماء فان وجدته في شيء من مملكتي كنت أولى الناس باصطناع صاحبه ، وإن وصف أنه في شيء من أقاليم الهند كتبت إلى ملك ذلك الاقليم وسألته المن على بدفع نسخة منه ، وكافأته بهدية مكافأة مثلى على وجود طلبته . فقال كنجور أيها الملك لست أفزع باستفراغ مجهودي والله المعين . وصار إلى منزله ولم يخرج منه حتى صنع كتابه المعروف بجاودان جرد . قال الجاحظ : حدثني الواقدي قال قال الفضل بن سهل : لما دعى للمأمون بكور خراسان بالخلافة جاءتنا هدايا الملوك سروراً بمكانه من الخلافة ووجه ملك كابليستان شيخاً يقال له ذوبان وكتب يذكر أنه وجه بهدية ليس في الأرض أسنى ولا أرفع ولا أنبل ولا أفخر منها . فعجب المأمون وقال : سل الشيخ ما معه من الهدية ؟ فقال : مامعي شيء أكثر من علمي ، قتلت وأى شيء علمك ؟ قال رأى ينفع ، وتدير يقطع ، وجلالة تجمع . فسر المأمون به وأمر بانزاله وإكرامه وكتمان أمره . فلما أجمع على التوجه إلى العراق لقتال محمد الأمين أخيه دعا بذوبان . فقال : ما ترى في التوجه إلى العراق ؟ قال رأى دقيق وحزم مصيب ، وملك خريب والسبب ماض ، فاقض ما أنت قاض . قال فمن نوجه ؟ قال : الفتى الأعور ، الطاهر الأطهر ، الظاهر الأظهر ، يستر ولا يفتر ، قوى مرهوب ، مقاتل غير مغلوب . قال فمن نوجه معه من الجند ؟ قال : أربعة آلاف ، صوارم الأسياف ، لا ينقصن في العدد ، ولا يحتجن إلى مدد . قال : فما رأيت المأمون سر كسروره ذلك اليوم . فوجه بظاهر فلما تهيأ له الخروج سأل ذوبان في أى وقت يخرج من النهار ؟ قال : مع طلوع الفجر يجمع

لك الأمر ، وتصير إلى النصر . فخرج في ذلك الوقت فلما كتب بذكر مقدمه
الرى . دعا المأمون بذوبان فقال : قد قرب صاحبنا من العدو وقربوا منه فما عندك
دلالة أو بينة تكون لنا أو علينا ؟ قال قد تعرفت شأنه ، إذ أتى فسطانه كان
نصر سريع ، وقتل ذريع ، وتفرقت تلك الجموع ، والنصر له لا عليه ، ثم يرجع
الأمر إليك وإليه . فكتب المأمون بذلك إلى طاهر ليقوى عزمه ، فلما كتب
بقتله على بن عيسى بن ما هان واستيلائه على عسكره وأمواله ، وخبر ما أولى الله
المأمون في أوليائه . من النصر والظفر بأعدائه ، دعا ذوبان وأمر له بمائة ألف درهم
فلم يقبلها . وقال : أيها الملك إن ملكي لم يوجهني إليك هدية لينقصك مالك فلا تجعل
ردى نعمتك سخطاً ، فليس عن استخفاف بقدرها وسوف أقبل ما ينفي بهذا المال
ويزيد وهو كتاب يوجد في العراق فيه مكارم الاخلاق ، وعلوم الآفاق ، وهو
كتاب عظيم للفرس ، فيه شفاء النفس ، به من صنوف الآداب ما لا يوجد في
كتاب ، عند عاقل لبيب ، ولا فطن أريب ، يوجد في خزائن ، عند الايوان
بالمدائن . فلما قدم المأمون بغداد واستقر بها ملكه اقتضاه ذوبان حاجته وأمر أن
تكتب القصة والموضع الذي يشير اليه ، فكتب : سرالى وسط الايوان من غير
زيادة ولا نقصان ، وأجعل القسمة بالدرعان ، ثم أحفر المدر ، فاقلع الحجر ، فاذا
وصلت إلى الساحة ، فاقتلها تجد الحاجة ، فخذها ولا تعرض لغيرها ، فيلزمك غب
ضيرها . فوجه المأمون في ذلك رسولا حصيفاً فسار إلى الموضع ففعل ما قيل له
فوجد صندوقاً صغيراً من زجاج أسود عليه قفل منه فحمله ورد الحفرة إلى حالها
الاول . قال عمرو بن بحر : فحدثني الحسن بن سهل قال : إني لعند المأمون إذ وصل
ذلك الصندوق فجعل يتعجب منه ، ثم دعا بذوبان فقال له هذه بغيتك ؟ قال نعم !
أيها الملك لست ممن تنقض رغبته ذمام عهده ، ولا يحل طمعه عقدة وفائه ، ثم تكلم
بلسانه ونفخ في القفل فأنفتح ، فأدخل يده وأخرج منه خرقة ديباج فنشرها فسقط منها
أوراق فرد الأوراق في الخرقة ونهض . ثم قال : أيها الملك هذا الصندوق يصلح لرفيع

خبيات خرائتك فأمر به فرفع . قال الحسن بن سهل : فقلت ترى يا أمير المؤمنين أن أسأله ما في هذا الكتاب ؟ قال : يا حسن أفر من اللؤم ثم أرجع إليه ؟ أمرته أن لا يفتحه بين يدي قطعاً للطمع فيه ، وصمتة بالمسألة عنه ، وتحرياً للرغبة فيه ، والله لا كان هذا أبداً . فلما خرج صرت إلى منزله فسألته عنه مسألة راغب فيه . فقال : هذا كتاب جاودان جرد تأليف كنجور ملك سبراشهر^(١) ، فقلت اعطني ورقة منه أنظر فيها فاعطاني فوقت عليها عيني ، وأسرجت لها ذهني ، وأجلت فيها فكري . فلم أزد منه إلا بعداً ، فدعوت بالخضر بن علي وذلك في صدر النهار فلم ينتصف حتى فرغ من قراءتها بينه وبين نفسه ، ثم جعل يفسرها وأنا أكتب ثم رددت الورقة وأخذت منه نحو ثلاثين ورقة ، فدخلت عليه يوماً فقلت ؟ يا ذوبان يكون في الدنيا من يحسن مثل هذا الكتاب ؟ قال : يجوز أن يكون فيها من يحسن ترجمة هذا الكتاب ولا يجوز أن يكون فيها من يحسن مثل هذا الكتاب . قلت : فهل تعرف من يترجمه ؟ قال : نعم وأصفه لك ، هو طوال أنزع ، إن تكلم تتع ، يفوق أهل زمانه ، بما يكون من شأنه ، اسمه خضر يقوم بأمر خطر ، لو كان له عمر . ولولا أن العلم سبيل الدنيا والآخرة ، وهو الكرامة الفاخرة ، ومن معرفة قدره الضن به لرأيت أن أدفعه اليك بتمامه ولكن لا سبيل إلى أكثر مما أخذت . ولم تكن الأوراق التي أخذتها على التأليف لأننا أصبنا ورقة فيها علامات فيها الكنوز ، وآخر الورقة مكتوب . دليل هذا الباب في الورقة التي تليها ؛ ولم نجد غير هذا بتماماً غير أننا وجدنا أبواباً من الحكمة تشهد لها القلوب بحقيقة الصحة وتحلف طيها الألسن بغاية النهاية .

هذا من كلام الحسن بن سهل كقول أبي تمام يصف شعره :

ومحلفة لما ترد أذن سامع فتصدر إلا عن يمين وشاهد

قال الجاحظ : وحدثني الحسن بن سهل قال قال لي المأمون : أي كتب العرب

(١) تقدم في ص ٧٤ أن لسنجور بن اسندير وزير وهو واضع الكتاب

أنبل ؟ قال قلت المبتدا ؟ قال لا ، قلت فالتلويح ؟ قال لا ، فسكت فقال : تفسير القرآن لأنه لا شبه له ، وتفسيره لا شبه له . ثم قال : أي كتب المعجم أنبل ؟ فاستعرضتها فقلت : كتاب جلودان جرد أنبل كتاب لهم ، فدعا بفهرست كتب المعجم فجعل يلتمسه فلم ير لهذا الكتاب ذكرا : فقال : كيف سقط هذا الاسم عن الفهرست ؟ فقلت هذا كتاب ذوبان وقد كتبت بعضه ، فقال : إيتني به معجلا . فوجهت في حمله فوافاني الرسول وقد نهض يريد الصلاة فقال : فلما رأيته مقبلا والكتاب معي انحرف عن القبلة وأخذ الكتاب وجعل ينظر فيه ، فاذا فرغ من باب قال : لا إله إلا الله ، فلما طال ذلك عليه قعد وجعل يقرأ فقلت الصلاة تقوت وهذا لا يفوت ؟ قال صدقت غير أنني أخاف السهو في الصلاة لاشتغال قلبي بلذيد ما في هذا الكتاب ، وما أجند للسو حاثا لغير ذكر الموت فجعل يقرأ (إنك ميت وإنهم ميتون) ثم وضع الكتاب وقام فكبر فلما فرغ من صلاته نظر فيه حتى أتى على آخره . ثم قال : أين تمامه ؟ قلت عند ذوبان لم يدفعه الى ، فقال : لولا أن العهد جبل أحد طرفيه بيد الله والآخر بأيدينا لأخذته منه . فهذا والله الكلام لا ما نحن فيه من لي ألسنتنا في فجوات أشداقنا .

قال الحسن بن سهل : قرأت في هذا الكتاب : ثلاث لا يصلح فسادهن بشيء من الخيل ؛ العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكرهاء ، والركاكة في العقول . وثلاث لا يُستفقد صلاحهن بنوع من المذكر ؛ العبادة في العلماء ، والتقنوع في المستبصرين ، والسخاء في ذوي الاخطار . وثلاث لا يشبع منهن ؛ الحياة ، والعافية ، والمال . وثلاث تبطل مع ثلاث ؛ الشدة مع الحيلة ، والعجلة مع التأني ، والاسراف مع القصد .

وهذا كما قال الخضر بن علي : رأيت بعدن حجراً مكتوب عليه بالخميرية : يا أيها الشديد احذر الحيلة ، ويا أيها العجول احذر التأني ، ويا أيها المحلوب لا تأمن من التفكير في العاقبة ، ويا أيها الرائد موجوداً لا تقطع أملك عن بلوغ مثله .

أما قوله للمحارب . فقد قال على بن أبي طالب رضوان الله عليه : من فكر
في العواقب لم يشجع . وقال سعيد بن ناشب الضنوى :

عليكم بدارى فاهدموها فإنها بذات كريم لا يخاف العواقبا
إذا همّ التى بين عينيه همه ونكب عن ذكر العواقب جانباً
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً
وقد قال معاوية رضى الله عنه : هممت مرات كثيرة بصفين أن أحبس^(١) فلم
يردنى إلا ابن الأطنابة :

أبت لى عفى وأبى بلائى وأخذ المجد بالثمن الريح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحي
وإقدامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
لأرض من مآثر صالحات وأمنع بعد عن نسب صريح
وابن الأطنابة - هو عمر بن عامر بن زيد مناة بن مالك بن الأغر الخزرجى ،
وهو فارس مشهور معروف ، والأطنابة أمه . وقد أحسن قطرى بن الفجاءة^(٢) فى
هذا المعنى حيث قال :

وقولى كلما جاشت لنفسى من الأعداء ويحك لاتراعى
فانك لو سألت مزيد يوم أبى الأجل المقدر أن تطاعى
وقال بعض الغزاة : فتحنا حصناً من بلاد الروم فرأينا فيه صورة أسد من
حجر عليه مكتوب : الحيلة خير من الشدة ، والتأنى أفضل من العجلة ، والجهل
فى الحرب أحزم من العقل ، والتفكر فى العاقبة من أمارة الجزع . ووجه ملك
الروم إلى الرشيد بثلاث أسياف مع هدايا كثيرة ، على سيف منها مكتوب : أيها

(١) كذا فى الأصل ولعله : أجن

(٢) فى الأصل : قطرى الفجاءة . وقوله : أبى الأجل الخ المحفوظ : إلى الأجل
المقدر لن تطاعى . وأحسب أن هذه الرواية أصح .

المقاتل احمل تغم ، ولا تفكر في العاقبة تهزم . وعلى الثاني ؛ الثاني فيما لا تخاف عليه الفوت ، أفضل من العجلة إلى إدراك الأمل ، وعلى الآخر ، إن لم تصل ضربة سيفك ، فصلها بالقاء خوفك .

وهذا كقول كعب بن مالك الأنصاري :

نصل السيوف إذا قصدن^(١) بخطونا قدماً ونلحقها إذا لم تلحق
وكقول نسهل بن جرى :

إذا الحكمة تأبوا أن ينالهم حد السيوف وصلناها بأيدينا
وأعطى بعض الأمراء سيفاً لرجل فقال له : صله بخطواتك ، فقال له : الصبر أقرب من تلك الخطوة . وأعطى آخر لرجل سيفاً فسأله بدله وقال : هو غير ماض . قال : خذه فالسيوف مأمورة ، قال فهذا أمر أن لا يقطع :

وانهزم رجل فدخل على أميره فشتمه وقال : اعطيت يديك وهربت . ولم توغل ولا صبرت ؟ فقال : لئن تشمتني أصلحك الله وأناحي ، خير من أن تترحم على وأنا ميت . قيل لاعرابي أخرج إلى الغزو ؟ فقال : أنا والله كره الموت على فراشي فكيف أمشي إليه ركضاً ؟ !

أخذ هذا المعنى أحمد بن أبي فتن فقال مستطرداً يمدح أبي ذلف القاسم بن عيسى العجلي ، والاستطردان يريك الفارس أنه ولى وإنما ولى لتبعه فيكر عليك . كذلك الشاعر يريك أنه يصف شيئاً ثم يعن له معنى فيأتي به وكأنه ليس من قصيدته ولم يقصد غيره :

مالي ومالك قد كلفتني شططا	حمل السلاح وقول الدارعين قف
أرى المنايا خلتنى رجلاً	أمسى وأصبح مشاقا الى التلف
أرى المنايا على غيري فأكرها	فكيف أمشي اليها بارز الكتف ؟
أخلفت أن سواد الليل غيرني	أو ان قلبي في جنبي أبي ذلف ؟

لأنه كان شديد السواد . ولما دخل على المعتز . قال : هذا الشاعر الاسود ؟
قال : لا يضره سواده أعزكم الله تعالى ؛ فإن بيض أياديكم عنده .

وقال المنصور لبعض الخوارج - وقد أتى به اليه أسيرا - : أخبرني أي أصحابي
كان أشد إقداما في مبارزتكُم ؟ فقال : ما أعرف وجوههم مقبلين ، وإنما أعرف
أقفاءهم فمرهم أن يدبروا لأعرفك أشدهم إدبارا . أخذه ابن الرومي فقال في سليمان
ابن عبد الله بن طاهر وكان قد خرج في بعض الوجوه فهزم :

قرن سليمان قد أضرب به	شوق الى وجهه سيدنفه
أعرض عن قرنه وفرّ فما	أصبح شيء عليه يعطفه
كم يعدّ القرن باللقاء وم	يكذب في وعده ويخلفه
لا يعرف القرن وجهه ويرى	قفاه من فرسخ فيعرفه

وله في هذا المعنى أهاج كثيرة فمن ظريفها :

سليمان ميمون التقية حازم	ولكنه حتم عليه الهزائم
ألا عودوه من توالى فتوحه	عسى أن تردّ العين عنه التهام

وقال :

جاء سليمان بنى طاهر	فاجتاح معتز بنى المعتصم
كان بغداد لدن أبصرت	طلعت له نائمة تلزم
مستقبل منه ومستدبر	وجه بخيل وقفا منهزم

وقال روح بن حاتم لأبي دلالة : اخرج معي وهذه عشرة آلاف درهم ؟
قال :

إني أعوذ بروح أن يقر بنى	الى الحمام قتشق بنى بنو أسد
إن المهلب حب الموت أورثكم	وما ورثت اختيار الموت من أحد

وكان أبو دلامة شاعرا فصيحاً ، وما جئنا مليحاً ، واسمه زند بن الجون الأزدي
ودخل على أبي جعفر المنصور فأنشده وذكروا زوجته :

فاخرنطمت ثم قالت وهي مغضبة أنت تتلو كتاب الله يالكع ؟ !
قم كي تبيع لنا نخلا ومزدرعا كما لجارتنا نخل ومزدرع
خادع خليفتنا عنها بمسألة إن الخليفة للسؤال ينخدع

قال : قد أمرنا لك بمائة جريب عامر ، ومائة جريب عامر . فقال : وما العامر
يا أمير المؤمنين ؟ قال : الذي لا ينبت ، قال فإني أقطعك عشرة آلاف جريب من
فياني بني أسد ، فضحك وأمر له بالجميع عامراً ، فقال : إذن لي في تقبيل يدك
يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أما هذه فدعها ، فقال ما منعت عيالي شيئاً أسهل عليهم
من هذه . ودخل أبو دلامة يوماً على أبي جعفر المنصور [أيضاً] فأنشده :

إني رأيتك في المنا مملوءة بدراهم
م وأنت تعطيني خياره
وعليك تأويل العبارة

فقال له المنصور : امضي فأتني بخيارة أملأوها لك دراهم ، فمضى فأتى بأعظم
دبابة توجد ، فقال : ما هذا ؟ قال يلزمني الطلاق إن كنت رأيت إلا دبابة ولكني
نسيت ، فلما رأيت الدبابة في السوق ذكرتها . وهذا إنما أخذه من ابن عبدل
الأسدي وقد دخل على بعض بني مروان فقال : تأذن لي أصلحك الله إن أقص
عليك رؤيا رأيتها ؟ فقال هات فأنشد :

أغفيت قبل الصبح نوم مسهد في ليلة ما كنت قبل أناها
فرايت أنك رعتني بوليدة فتنة حسن على قيامها
وبيدرة حملت الي وبغلة دهما ناجية يصل لجامها
فدعوت ربّي أن يثيبك حنة عوضاً يصيبك بردها وسلامها

فقال : عندي كل شيء ، إلا البغلة فانها عندنا شهباء . فقال : امرأتى طالق
إن كنت رأيتها إلا شهباء ولكني غلطت .

ولابن عبدل ظريفة مع بشر بن مروان : وذلك أنه كان متصلاً به منقطعاً إليه ،

فأغلقه فغاب عنه أياما ثم أتاه فقل : أين غبت فقد طلبتك فم أقدر عليك ؟ قال خرجت أيها الأمير الى البادية أطلب الزوج بابنة عم لي تائمة . فقالت : لي أموال متفرقة على الناس ، وأنا امرأة لا قيم لي فاقتضيتها لي وأنا أتزوجك . فاقتضيت لها جميع أموالها فلما فرغت كتبت الى :

سيخطئك الذي أملت مني بقطع حبال وصلك من حبالى
كما أخطأك معروف ابن بشر وكنت تعد ذلك رأس مال
فضحك وقال : ما أحسن ما تلتفت . ودخل أبو دلامة يوما على المنصور وبين أصبعيه خرقة ، فقال له : ما هذا يا أبا دلامة ؟ فقال : ولدت لي البارحة صبيرة وقد قلت فيها :

فما ولدتك مريم أم عيسى ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكن قد ولدت لأم سوء يقوم بأمرها بعل لثيم
فضحك المنصور وقال : ماتريد ؟ قال : ملء هذه الخرقة أستعين بها على تربيتها . فقال المنصور : املؤها دراهم ، ففتحوها فاذا هي رداء رقيق كبير ، فلوها فأخذ عشرة آلاف درهم . وكان المنصور بخيلا وإنما كان أبو دلامة يستنزه بالملح لشدة بخله ، فقد كان يتجاوز الغاية في ذلك .

وكان المنصور قبل أن يلى الخلافة ينزل على أزهر السماء ، فلما استخلف صار اليه أزهر . فقال : ما أقدمك ؟ قال : حاجة يا أمير المؤمنين ، على أربعة آلاف درهم ، ولى دار مستهدمة ، وأريد البناء لا بنى محمد . فأمر له باثنى عشر ألف درهم . وقال : يا أزهر لا تأتينا طالب حاجة . قال : أفعل ، فلما كان بعد قليل عاد فقال : يا أزهر ما جاء بك ؟ قال : جئت مسلما على أمير المؤمنين ، قال إنه ليقع في نفسى أن ما أتيت إلا لما أتيت له في المرة الأولى ، وأمر له باثنى عشر ألف درهم . وقال : لا تأتينا طالب حاجة ولا مسلما ، قال نعم ! ثم ما لبث أن عاد فقال : يا أزهر ما جاء بك ؟ قال دعاء كنت سمعت أمير المؤمنين يدعو به فحجت مستمليا لآخذه عن أمير المؤمنين ، فقال : لا تكتبه فانه غير مستجاب ، لأنى دعوت الله

به أن يريخى منك فلم يستجب لى ، ثم صرفه ولم يعطه شيئا . ولما دخل عليه ابراهيم بن على بن هرمة أنشده قصيدته التى يقول فيها :

له لحظات فى خفايا سريرة إذا كرتها فيها عقاب ونائل
فأم الذى أمنت آمنة الردى وأم الذى حاولت بالثكل ثا كل

فرفع الحجاب له وأقبل عليه وأمر له بعشرة آلاف درهم . ثم قال : يا ابراهيم لا تتلفها طمعا فى مثلها ، فما كل وقت تصل إلينا ، ولا يصلك منا مثلها ، فقال : ألقاك بها يا أمير المؤمنين يوم العرض بنخم الجهبذ ، فضحك . وقال : اذكر حوائجك ؟ فقال تكتب لى الى عامل المدينة أن لا يحدنى إذا أتى بى اليه وأنا سكران ، فقال : هذا حد من حدود الله لا يمكن تعطيله . فقال تحتال لى يا أمير المؤمنين ، فكتب لى عامل المدينة : من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاضربه الحد واضرب الذى أتيك به مائة ، فتحاماه الشرط فكانوا يمرون به مطروحا فى سكك المدينة فيقولون : من يشتري ثمانين بمائة ؟ !

١ وقال المؤمل بن أميل : قدمت على المهدي وهو إذ ذاكولى عهدأبيه فامتدحته فأمر لى بعشرين الف درهم ، فكتب بذلك صاحب البريد الى المنصور - وهو بمدينة السلام - يخبره ان الأمير أمر لشاعر بعشرين الف درهم ، فكتب اليه يعذله ويلومه ويقول : إنما كان ينبغى لك أن تعطى الشاعر اذا أقام ببابك سنة أربعة آلاف درهم ، وكتب الى كاتبه أن يوجه اليه بالشاعر ، فطلب فلم يقدر عليه ، فكتب اليه أن قد توجه الى مدينة السلام ، فأجلس قائدا من قواده على جسر النهروان وأمره أن يتصفح الناس رجلا رجلا ، فجعل لا يمر به قافلة إلا تصفحهم ، فمرت القافلة التى فيها المؤمل ، فقال له : من أنت ؟ قال المؤمل بن أميل من زوار المهدي ، قال : إياك أردت ، قال المؤمل : فكاد والله قلبى ينصدع خوفا من أبى جعفر ، فقبض على وقال سرفسرت معه فسلمنى الى الربيع ، فدخل الربيع على المنصور فقال له هذا الشاعر قد ظفرنا به ، قال : أدخلوه قال فدخلت عليه فسلمت فرد السلام فقلت ليس ههنا إلا الخير ، فقال : أنت المؤمل بن أميل ؟

قلت نعم أصلح الله أمير المؤمنين أنا المؤمل ، فقال: أتيت غلاما غرا فخدعته فأنخدع !!
فقلت بل أتيت كريما فخدعته فأنخدع والكريم يُخدع ، قال فكان ذلك أعجبه.
فقال أنشدني ما قلت فيه ، فأنشدته :

هو المهديّ إلا أن فيه	مشابه صورة القمر المنير
تشابه ذا وذا فهما إذا ما	أناراي شكلان على البصير
فهذا في الضياء سراج عدل	وهذا في الظلام سراج نور
ولكن فضل الرحمن هذا	على ذا بالمناير والسرير
وبالملك العزيز فذا أمير	وما ذا بالأمر ولا الوزير
ونقص الشهر يحمد ذا وهذا	منير عند نقصان الشهور
فيا ابن خليفة الله المصطفى	به تعلو مفاخرة الفخور
لئن فت للملوك وقد توافوا	إليك من السهولة والوعور
لقد سبق الملوك أبوك حتى	أتوا ما بين كاب أو حسير
وجئت وراءه تجرى حثيثاً	وما بك حين تجرى من فتور
فقال الناس ماهذان إلا	كما بين الخليق من الجدير
لئن فات الكبير مدى الصغير	فذا فضل الكبير على الصغير
وإن بلغ الصغير مدى الكبير	فقد خلق الصغير من الكبير

فقال : والله لقد أحسنت ولكن لا تساوي عشرين ألف درهم ، فأين المال ؟
قلت : هو ذا ، قال ياربيع انزل معه فاعطه عشرة آلاف درهم وخذ الباقي . فلما
صارت الخلافة إلى المهدي وولى ابن ثوبان المظالم وكان يجاس للناس بالرصافة فاذا
ملاً ثوبه رقاعا دفعها إلى المهدي ، فدفعته إليه رقعة فلما دخل بها ابن ثوبان
وجعل المهدي ينظر في الرقاع حتى نظر في رقعتي ضحك ، فقال له ابن ثوبان: أصلح
الله أمير المؤمنين مارأيتك ضحكت من شيء إلا من هذه الرقعة ؟ فقال: هذه رقعة
أعرف سببها ، ردوا عليه العشرة آلاف فردت .

أخذ قوله في القمر على بن الجهم فقال :

رأيت الهلال على وجهه فلم أدر أيهما أنور
سوى أن ذاك بعيد المحل وهذا قريب لمن ينظر
وذاك يغيب وذا حاضر وما من يغيب كمن يحضر

قال إبراهيم بن العباس :

وعابك ، أقوام فقالوا شبيهة لبدر الدجى حاشاك أن تشبهى البدر
لأن ، شهبوك البدر ليلة تمه لقد قارنوا الشنعاء واقترفوا الوزرا
أشبهه ، بدرٌ آفل نصف شهره ضياء منيراً يطلع الشهر والدهرا ؟ !

وإنما نقل المؤمل في موازنة المهدي بالمنصور قول زهير بن أبي سلمى .

قال الربيع بن يونس الحاجب : كنا وقوفاً على رأس المنصور في يوم عيد وقد
طرحت وسادة بين يديه فجلس المهدي عليها ، والناس ساطان على مراتبهم ، إذ أقبل
صالح بن المنصور الملقب بالمسكين - وهو حدث - فوقف بين الساطين فسلم وأحسن
ثم استأذن في الكلام فأذن له فتكلم . قال الربيع : فلم يبلغه ذلك اليوم خطيب ،
فمد المنصور يده فقال : إليّ يا بني ، فلما دنا منه اعتنقه وأقعدته قدماه ثم نظر في
وجوه القوم هل منهم أحد يصف كلامه وما كان منه ؟ فكلهم هاب المهدي ،
فقام عقال بن شيبة . فقال : لله در خطيب قام عندك يا أمير المؤمنين ما أفصح
لسانه ، وأبين بيانه ، وأمضى جنانه ، وأبل ريقه ، وأغمض عروقه ، وأسهل
طريقه ، وحق لمن كان أمير المؤمنين أباه ، والمهدي أئخاه ، أن يكون كما قال زهير :

هو الجواد فان يلحق بشأوها على تخاليفه فمثله لحقا

أو يسبقاه على ما كان من مهل فبالذي قدما من صالح سبقا

قال الربيع : فقال لي أبو عبد الله - وكان إلى جانبي - ما رأيت مثل عقال
ابن شيبة قط ، أَرْضَى أمير المؤمنين ، ومدح الغلام ، وسلم من مذمة المهدي . فقال
المنصور للربيع : لا ينصرف التيمى إلا بثلاثين ألف درهم . قال أبو بكر الصولي :
وأبيات المؤمل حسان لا أعرف له خير منها ، ولو قلت إنه لا يعد شاعراً إلا بها

ما أبعدت . وما كان يعرفها الناس وإنما شهر بقصيدته التي أولها :

شف المؤمل يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر
ويقال : إنه لما قال هذا عى فرأى فى منامه إنساناً يقول له : هذا ما تمنيت فى
شعرك . ومن أحسن ما قاله المؤمل قوله :

أبهار قد هيجت لى أوجعا وتركتنى صبابكم مطواعا
بحديثك الحسن الذى لو حدثت وحش القلاة به لجن سراحا
والله لو علم البهار بأنها أضحت سميته لطال ذراعاً

وكان المنصور قد أخذ الناس بلباس قلانس طوال وأن يكتبوا فى ظهور ثيابهم
(سيكفيكم الله وهو السميع العليم) وأن يطيلوا حمائل سيوفهم . فدخل أبو دلامة
عليه فى ذلك الزى . فقال : كيف حالك يا أبا دلامة ؟ فقال : ما حال من صار وجهه
فى وسطه ، وسيفه فى استه ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره !! فأمر المنصور بتغيير
ذلك الزى . ودخل أبو دلامة على أم سلمة بنت يعقوب بن مسleme الخزومية
زوجة أبى العباس السفاح يعزيها عنه فبكى وأنشد قصيدة منها :

أمسيت بالأنبار يا ابن محمد لا تستطيع من البلاد حويلا
ويلى عليك وويل أهلى كلهم . ويلا وهولاً فى الحياة طويلا
فلتبكين لك النساء بعبرة وليبين لك الرجال عويلا
مات الندى إذ مت يا ابن محمد فجعلته لك فى التراب عديلا
إن أجملوا فى الصبر عنك فلم يكن صبرى ولا جلدى عليك جميلا
يجدون منك خلائفاً وأنا امرؤ لو عشت دهرى ما وجدت بديلا
إنى سألت الناس بعدك كلهم فوجدت أسمع من وجدت بخيلا
أشقتوى آخرت بعدك لالذى يدع العزيز من الرجال ذليلا
أشقتوى آخرت بعدك للذى يدع السمين من العيال هزيلا
فقلت له أم سلمة : يازند ما أصيب أحد بأمير المؤمنين غيرى وغيرك ؟ قال : ولا

سواى ، أنت لك ولد منه تتسلين به ، وأنا لا ولد لى منه . فضحكت أم سلمة ولم تكن ضحكت منذ مات أبو العباس . وقالت : يازند ماتدع حدا إلا أضحكته ؟ !
 وأنشد أبو دلامة المنصور هذه القصيدة فأبكى الناس جميعاً وغضب المنصور غضباً شديداً . وقال : لئن سمعتك بعد اليوم تنشدها لأقطعن لسانك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن أبا العباس كان لى مكرماً وهو الذى جاء بى من البدو كما جاء يوسف صلى الله عليه وسلم بأخوته ، فقل كما قال عليه الصلاة والسلام : لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . فسرى عن المنصور وضحك . وقال : قد أقنأك فسل حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن أبا العباس قد كان أمر لى بعشرة آلاف درهم وهو مريض ولم أقبضها ؟ فقال المنصور : ومن يعلم ذلك ؟ قال : هؤلاء كلهم وأشار إلى جماعة من حضر ، فوثب سليمان بن مجالد وأبو الجهم . فقالا : نحن نعلم ذلك . فقال المنصور لابی أيوب المرزبانى : إدفعها إليه وصيره إلى هذا الطاغية ، يعنى عبد الله ابن على ، وكان قد خرج وأظهر الخلاف عليه بناحية الشام ، وجمع جمعاً كثيراً من بقايا بنى أمية وقوادهم ، وأهل البأس والنجدة . فقال أبو دلامة : يا أمير المؤمنين إنى أعيدك بالله أن أخرج معهم فانى والله مشؤوم فقال المنصور : إن يمنى يغلب شؤمك فاخرج مع الجيش . فقال : والله ما أحب يا أمير المؤمنين ، ولا أرى أن تجرب فانى لا أدرى على أى المنزلتين تكون . فقال : دعنى فلا بد من مسيرك . فقال : يا أمير المؤمنين والله لأصدقنك ، إن حضرت تسعة عساكر هزمتها كلها ^(١) ، وإن شئت ينتها لك ؛ فاستفرغ المنصور ضحكاً وأمره بالتخاف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

وأراد موسى بن داود الخروج إلى الحج ، فقال لابی دلامة : تأهب حتى تخرج معى فى هذا الوجه وأعطاه عشرة آلاف درهم . وقال له : خلف لعيالك ما يكفيهم واخرج ؛ وإنما أراد أن يأنس به فى طريقه بحديثه وأشعاره ونوادره . فلما حضر خروج موسى هرب أبو دلامة إلى سواد الكوفة ، فجعل يشرب من

(١) كذا فى الأصل : ولم اهتم لمعناه .

خمرها ويتمتع في نزهها ، فسأل عنه فأخبروه باستتاره فطلبه فلم يقدر عليه ، وخاف أن يفوته الحج ؛ فلما يئس منه قال : دعوه إلى النار وحر سقر وأليم عذابه . فلما شارف القادسية ، إذا هو بأبي دلامة قد خرج من قرية يريد أخرى ، فبصر به . فقال : اتنوني بعدو الله الفاجر الكذاب ، فرمى الحق إلى الباطل ، ومن الحج إلى حانات الخمارين ، قيدوه وألقوه في بعض الحامل . ففعل به ، فلما ولت الأبل ، صاح أبو دلامة بأعلى صوته :

يا أيها الناس قولوا أجمعين معي	صلى الإله على موسى بن داود
كأن ديباجتي خديه من ذهب	إذا تشرق في أثوابه السود
أما أبوك فعين الجود نعرفه	وأنت أشبه خلق الله بالجود
نبئت أن طريق الحج معطشة	من الطلاء ومن شربى بتصريد ^(١)
والله ما بي من خير فتطلبه	في المسلمين وما ديني بمحمود
إني أعمد بداود وتربته	من أن أحج بكره يا ابن داود

فقال موسى : القوه عن الحمل فعليه لعنة الله ، ودعوه يذهب إلى سقر وحر نارها ، فألقوه . ومضى موسى لوجهه ، فما زال أبو دلامة يتمتع بالنزه ، ويشرب الخمر حتى اتلف العشرة آلاف درهم ، وانصرف موسى من حجه فدخل أبو دلامة يهينه ، فلما رآه . قال : أتدرى ما فاتك من الخير ؟ فقال : والله ما فاتني خير ليلا ولا نهارا — يريد الشرب والقصف — فضحك ووصله .

ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده عيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، وناس من بني هاشم ، فقال المهدي : يا أبا دلامة . قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : اهيج من شئت ممن ضمه هذا المجلس ولك الجائزة فنظر في القوم فلم ير إلا شريفاً قريباً من المهدي ، فقال : أنا أحد من في المجلس ثم أنشد :

ألا أبلغ اليك أبا دلامة فليس من الكرام ولا كرامه

(١) التصريد : التقليل وفي السقي دون الري .

إذا لبس العمامة قلت قرد وخنزير إذا نزع العمامة
فإن تلك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامة
قال : فضحك المهدي وسر التقوم إذ لم يسود بأحد منهم ، فقال له المهدي : تمن .
فقال : يا أمير المؤمنين تأمر لي بكلب صيد ، فقال : يا ابن الفاعلة وما تصنع به ؟
فقال : إن كانت الحاجة لي فليس لك أن تعرض فيها . فقال : صدقت اعطوه
كلبا ، فاعطى . فقال : يا أمير المؤمنين لا بد لهذا الكلب من كلاب . فأمر له
بغلام مملوك ، فقال : يا أمير المؤمنين أوتيتهما لي أن أصيد راجلا ؟ فقال : اعطوه
دابة ، فقال : ومن يسوس الدابة ؟ فقال اعطوه غلاماً سائساً . فقال : ومن ينحر
الصيد ويصاحه ؟ فقال : اعطوه طباحاً . فقال : ومن يأويهم ؟ فقال : اعطوه
داراً ، فبكى أبو دلامة وقال : ومن يمون هؤلاء كلهم ؟ فقال : يكتب له إلى البصرة
بمائة جريب عامرة ، ومائتي جريب . غامرة . فقال : وما الغامرة ؟ قال : التي لا نبات
فيها . قال : فأنا أعطيك مائتي الف جريب من فيافي بني أسد ، فضحك وقال :
ما تريد ؟ قال : بيت المال . قال : على أن أخرج المال منه . قال : فإذا يصير غامراً ،
فاستفرغ ضحكاً وقال : اذهب فقد جعلناها لك كلها عامرة . فقال : يا أمير المؤمنين
الذين لي أن أقبل يدك ، قال أمّ ، هذه فدعها . فقال : والله ما تمنع عيالي شيئاً أهون
عليهم من هذا ، فناولوه يده فقبلها . وقد تقدم له بعض هذا حكاية مع المنصور
والرواة يختلفون وهو أدب لا يخطب انكاره بالنسب .

وخرج أبو دلامة مع المهدي وعلي بن سليمان إلى الصيد ، فعن لهم ظبي ،
فرماه المهدي فأصابه ، ورمى علي بن سليمان فأصاب كلب الصيد ، فضحك المهدي
وقال لأبي دلامة : قل في هذا شيئاً فأشدد :

قد رمى المهدي ظبياً شكّ بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمان ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما كل أم رء يأكل زاده

فاستفرغ المهدي ضحكا ، وأمر له بجائزة .

وكان أبو العباس السفاح مولعاً بأبي دلامة ، لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً لكثرة نوادره ، وجودة شعره ، ومعرفته بأيام الناس وأخبارهم ، وكان أبو دلامة يهرب منه جهده ، ويأتي حانات الخمارين فيشرب مع اخوانه من الشعراء ، وكان يحب مجالستهم لما فيه من الراحة له وطرح الكلفة . فقال له السفاح : مالك تحيد عن مجالستنا وتهرب من مؤانستنا ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين إن الفضل والشرف والعز والخير كله في الوقوف ببابك ولزوم خدمتك ، ولكن نكره أن تملونا ، فتنقص أنفسنا من أجل ذلك ، فقال أبو العباس : لا والله ما ذلك كما ذكرت ، ولا مللتك قط ، وإنك لتعلم ذلك ، ولكنك قد اعتدت حانات الخمارين ، ومجالسة أهل المجون ، ثم أمره بلزوم قصره ووكيل به من يمنعه الخروج ، وأمره بملازمة المسجد الذي يصلي فيه السفاح ، حتى اضربه فقال :

ألم تعلموا أن الخليفة لزمني بمسجده والقصر مالى وللقصر
أصلى به الأولى مع العصر آيساً فويل من الأولى وويل من العصر
ويحبسنى عن مجلس استاذة أعلل فيه بالسمع وبالخر
ووالله مالى نيّة فى صلاته ولا اتبروا الاحسان والخير من أمرى
وما ضره والله يصلح أمره لو أنّ ذنوب العالمين على ظهري

فلما باغت الأبيات السفاح . قال : دعوه وشأنه فوالله ما أفلح قط

وشرب أبو دلامة مع حماد عجرد ، فأتى المهدي بأبي دلامة فقال استنكوه ففعلوا فوجدوا رائحة الخمر ، فأحب أن يعث به ، فأمر الترييع أن يحبسه فى بيت الدجاج ويطين عليه الباب ، ففعل ثم أمر به بعد يومين فأخرج مليباً بطيلسانه ، فأقيم بين يديه ، فقال : يا عدو الله أتشرب الخمر ؟ أما أنى لأقيم عليك الحد ، ولا تأخذنى فيك لومة لائم ، فأنشأ أبو دلامة :

أمير المؤمنين فدتك نفسى علام حبستنى وخرقت ساجى

أقاد إلى السجون بغير جرم كأتى بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لكان خيراً ولكنى حبست مع الدجاج
أمن صباء ريح المسك فيها تفرق في الإثاء لدى المزاج
عقار مثل عين الديك صرف كأنّ شعاعها لهب السراج
وقد طبخت بنار الله حتى لقد صارت من النطف النضاج
وقد كانت تحدثنى ذنوبى بأنى من عقابك غير ناج
على أنى وإن لاقيت شراً خيرك بعد ذاك الشرراج
فأمر به فأقيم عليه الحد ثم أمر له بأربعة آلاف درهم ، فلما ولى قال الربيع : يا أمير المؤمنين أما سمعت قوله :

وقد طبخت بنار الله حتى لقد صارت من النطف النضاج
قال : بلى فما يعنى بذلك ؟ قال : يعنى به الشمس . قال : ردوه نسأله عن ذلك . فلما حضر قال له المهدي : ما تعنى بنار الله ؟ أتعنى بها الشمس ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ولكن نار الله الموقدة ، التى تطلع على فؤاد الربيع مؤصدة ، وعلى من أخبرك أنى عنيت بها الشمس مطبقة ، فضحك المهدي وجلساؤه وعفا عنه ، فذهب

وخرج الربيع إلى أصحاب المنصور وهم بالباب ، وقد هرب منه سلم غلامه ، فقال لهم : أمير المؤمنين يقرئكم السلام ، ويقول لكم إن غلامى سلماً قد هرب ، ومحال أن يهرب أحد من غلمانى إلا وقد أسند أمره إلى واحد منكم . فقام أبو دلامة فقال : بلغ عنا أمير المؤمنين كما بلغتنا عنه قال : نعم ! قال : أما سلم فلا نعرف خبره ولا قصته ، ولكن هذا بديع يريد الهروب ، فرأى أمير المؤمنين فى أخذه ، وكان بينه وبين بديع تباعد ، فبأنع ذلك المنصور فهرب .

وماتت حمادة بنت على بن عبد الله بن عباس ، فصار المنصور إلى شفير

قبرها ينتظر الجنازة ، وكان أبو دلامة حاضراً فقال : ما أعددت لهذه الحفرة ؟ يا أبا دلامة .
يقال : عمة أمير المؤمنين يؤتى بها الساعة .

أخذت امرأة في زنا وطيف بها على حمل ، فمرت ببعض الحجان فقال لها :
كيف خلفت الحاج ؟ قلت : بخير وقد كانت أمك معنا ، فخرجت في نفر الأول .
وقال رجل للجهاز : أشتهى أن أرى الشيطان . فقال له : أنظر في المرأة فانك تراه .
وقال له رجل : أنا وجع من دمل في . قال له : وأين هي ؟ قال في أخس موضع
منى . قال كذبت لأنني لا أرى في وجهك شيئاً . وقال له رجل : يا أبا عبدالله ،
أنا رجل جامد العين لو مات أبي ما بكيت ، ولكن إذا سمعت الصوت الفريح
من الوجه المليح ، بكيت حتى أغى . فعلام يدل هذا ؟ قال : على أنك
لا تفلح أبداً . وقال له رجل : أردت أن أحمل أمي الى بغداد ، فخفت إن حملتها
في البحر أن تعطب ، وإن حملتها في البر أن تتمعب . قال : فخذها في سفينة^(١) .

قال بعض جاساء المتوكل : كنا نكثر عنده ذكر الجواز حتى اشتاقه ، فكتب في
حملة من البصرة . فلما دخل عليه أفحم . فقال له المتوكل : تكلم فاني احب ان استبرئ لك .
فقال : بحبضة أم بحبضتين يا أمير المؤمنين ؟ فضحك المتوكل . ثم قال له الفتح !
قد ولاك أمير المؤمنين على الكلاب والقردة . قال فاسمع لي واطع فانت
من رعيتي . فقال له : اذا وهب لك أمير المؤمنين جارية ، فما تصنع بها ؟
فقال : انا أعرف من نفسي ما تحتاج والله جارية إلا أن أقود عليها ، فضحك
المتوكل ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فمات فرحاً ولم يصل إلى البصرة .
وكان الجواز لا يدخل بيته أكثر من ثلاثة لضيقه . فدعى ثلاثة من اخوانه

(١) السفينة : أن يعطى مالا لآخر وللآخر مال في بلد المعطى فيوفيه فيستفيد

من الطريق . وهذا الذي أراده الجواز

فأتاه ستة ، ووقف كل واحد على رجل وقرعوا الباب ، فنظر من كوة أسفل الباب . وكذلك كان يعمل ، فعد ستة أرجل ، فلما فتح الباب دخلوا . فقال اخرجوا عني فاني دعوت أناساً ولم أدع كراكي

والجواز هو أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر ، وكانوا يزعمون أنهم من حمير صليبة نالهم سباً في خلافة أبي بكر وهم مواليه ، وسلم الخاسر عمه . وكان الجواز صاحباً لابن نواس حتي ماتنا ، ووصف أبا نواس . فقال : كان أظرف الناس منطقاً ، واغزرم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جواباً وأكثرهم حياءاً وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، مليح النغمة والشادة ، ملتف الأعضاء ، بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والاطراف ، وكان فصيح اللسان جيد البيان ، كثير النوادر وكان راوية للشعار ، وعلامة بالاجبار وكان كلامه شعراً غير موزون . — وأقبل ابوشراعة — والجاز في حديثه ، وكانت يدأبى شراعة كأنها كربة نخل ،^(٢) وكان أقبح الناس وجهاً ، فقال الجواز : فلو كانت أطرافه على أبي شراعة لثم حسنه . فغضب أبو شراعة فبصق الناس في وجهه

وابو شراعة شاعر مجيد وهو القائل : —

بنى رباح أعاد الله نعمتكم خير المعاد واسقى ربكم ديماً
فكم به من فتى حلو شمائله يكاد ينهل من أعطافه كرماً
لم يلبسوا نعمة الله مذ خلقوا إلا تلبسها اخوانهم نعماً

قال أبو العباس المبرد : وكان أبو شراعة حليماً مألوفاً ، جميل الخلق كريم العشرة ، وكان يقول من الشعر ما يجانب به مذاهب المحدثين ، ويقترب طريق الماضين وأهل البادية ، فشعره عربي محض ، واسمه احمد بن محمد بن شراعة القيسي ومن شعره : —

(٢) كرب النخل : أصول السعف الغلاظ العراض .

تقول ابنة البكرى حين أوّبها هزبلا وبعض الآيين سمين
لك الخير لا يدخل لأهلك رحله فانك في القوم الكرام مكين
ذريني امت من قبل حلّى محلة لها في وجوه السائلين غضون
وافدى بمالى ماء وجهى فانى بما فيه من ماء الحياة ضنين
فقلت لحاك الله لا تنى جانباً فقلت لاخوانى الكرام عيون
وله يهجو احمد بن المدبر وأخاه ابراهيم :

حجاب ابن المدبر كسروى كذاك حجاب كسرى أزدشير
شهدت بأنه من آل كسرى سلوه هل شهدت له بزور
كفأك شهادتى بالحق لولا تضاحك من أرى حول السرير
فان يكن المدبر جر مقيماً ^(١) فلست بذا كرى أهل القبور

وكتب الى سعيد بن موسى بن سعيد بن سلم الباهلى ، يستهديه نبذا ٦ .
ووجه اليه بقرابة فى غلاف :

إليك ابن موسى الخير أعملت ناقتى مجللة أثناء خوص جلالها
كتوم الدعا لا تشكى ألم السرى سواء عليها موتها واعتلالها
إذا سقيت ابصرت ما جوف بطنها وإن تركت لم يبد منها هزالها
وإن حمت حملاً تحملت حملها وإن حط عنها لم تقل كيف حالها
بعثنا بها تسمو العيون وراءها إليك وما يخشى عليها كلالها
وغنى مغنينا بصوت فشاقتى متى راجع من أم عمرو خيالها
أحب لكم قيس بن عيلان كلها ويعجبني فرسانها ورجالها
ومالى لا أهوى بقاء قبيلة أبوك لها بدر وأنت هلالها

وللجهاز مقطعات ملاح ، فى ضروب الهجاء والامتداح ، منها قوله فى خصى
كان يكايده على قينة يسمى رباح :

(١) يريد أنه ليس بعربى فان الجرامقة قوم من العجم صاروا الى الموصل فى
أوائل الاسلام .

ماللخصى رباح وللغواى الملاح
أليس زانٍ خصى غاز بغير سلاح

وفى مثله يقول ابن الرومى :

﴿ معشر أشبهوا القروء ولكن خالفوها فى خفة الأرواح
نمشة فوق صفة قتره كونيم الذباب فى الفلاح

قال الجاحظ : فى الخصى عشرة أحوال متضادة ؛ لم يخرج من ظهره مؤمن ، ولا خرج من ظهر مؤمن ، وهو أكثر الناس غيره ، وأشدهم قيادة ، وهو أضعف الناس معدة ، وأشرهم على طعام . وهو أسوأ الناس أدباً ، وهو يعلم الأدب ، وهو أغزر الناس دمة وأقسام قلباً ، وما خلا قط مع امرأة إلا حدثته نفسه أنه رجل ، ولا خلا مع رجل إلا حدثته نفسه أنه امرأة >

وقال الجاز لبعض المسجدين :

تركت المسجد الجامع والترك له ريبه
فلا نافلة تأتى ولا تشهد مكتوبه
وأخبارك تأتينا على الأعلام منصوبه
فان زدت من الغيب زدناك من الغيبه

ومثله قول أبى القاسم اسماعيل بن عباد ، فى مغن يعرف بابن غراب :

أقول قولاً بلا احتشام يقبله كل من يعيبه
ابن غراب اذا تغنى فازنى منه فى ريبه

وقال الجاز فى المتوكل :

قالوا امتدحت الامام قلت لهم أخاف ان لا أحده بصفه
وكيف يعطى على المدائح من كان أبو السمط عنده طرفه
كان أن انشادنا مدائحه انصاف كتب ليست بمؤتلفه

أخذه من قول أبى تمام :

أزكت عليك شهاب نار في الهوى بالعدل وهناً أخت آل شهاب
عدلاً شبيهاً بالجنون كأنما قرأت به الورهاء نصف كتاب
وكان أبو السمط بن أبي حفصة ، أثيراً ^(١) عند المتوكل ، وكان علي بن الجهم
يقع فيه لمنزله عند المتوكل وحسده له ، فأغرى بينهما يوماً فقال لحدون النديم :
أيهما أشعر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين طرحتني بين لحي أسدين . قال : لتقولن .
قال أعرهما بالشعر أشعرهما . فقال المتوكل : يا علي قد حكمت حدون عليك . قال :
علم رأيك فيه فساعدك . فقال المتوكل : تهاجبا . فقال علي : قد كظي الشراب ،
فإذا أفتت قلت . فقال أبو السمط بديهاً :

إن ابن جهم في الغيب يسبني ويقول لي حسناً إذا لاقاني
إن ابن جهم ليس يرحم أمه لو كان يرحمها لما عاداني
فضحك المتوكل وانخزل ابن الجهم ، فقال أبو السمط :

لعمرك ما جهم بن بدر بشاعر وهذا علي بعده يصنع الشعرا
ولكن أبي قد كان جاراً لأمه فلما تعاطى الشعر أوهمني أمرا
ولما أفاق علي بن الجهم من سكره قال :

بلاء ليس يشبهه بلاء عداوة غير ذي حسب ودين
يبيحك منه عرضاً لم يصنه ويرتفع منك في عرض مصون
ودخل الضبي علي عبد الله بن طاهر ، فأنشد شعراً حسناً وبحضرته أعرابي .
فقال الأعرابي : ممن تكون ؟ قال : من المعجم . قال : وما للمعجم والشعر وإنما
الشعر للعرب ، وكل من قاله من المعجم فأنما نزا علي أمه أعرابي . فقال :
وكذلك من لا يقول الشعر منذكم ، فأنما نزا علي أمه عجمي إذا ؟ فأفهمه .
ودخل الجواز علي بعض ولاية البصرة فأنشده :

اشكلتني الدهر وعنتني ما كان هذا أمل فيكما

(١) أثيراً من الاستثارة : يريد أنه من خطبائه

لا تنتفى بعد ما رشتنى فافنى بعض أيادىكا
فضحك ثم قال : ثم ماذا ؟ فقال : ثوب سمرقندى هو ؟ أشدك إياه مزارعة.

وقيل لعقيل بن علقمة : لم تقصر شعرك ؟ فقال : يكفى من القلادة ما أحاط
بالعنق . وقيل لآخر مثل ذلك . فقال : لم أر المثل السائر إلا بيتاً واحداً . ولم يكن
للجهاز حظ فى التطويل ، وإنما كان يقول البيتين والثلاثة ، وإنما قال بيتاً واحداً :

وقعنا من أبى خزى على خزى من الخزى
لم يقل غير هذا ، وكذلك ابن بسام ، ومنصور بن اسماعيل الفقيه . والمصريون
يقولون : احذر منصوراً إذا رمح بالروح . وهو القائل لما ذهب بصره وجفام
الاخوان والرفقاء :

من قال مات ولم يستوف مدته بعظم نازلة نالته مضرور
وليس فى الحق أن يحى قى بلغت به نهاية ما يخشى المقادير
فقل له غير مرتاب بفعلته أو سوء مذهبه قد عاش منصور
ومن ظريف شعره :

تكاد تضيق الأرض عنه برحبها إذا نحن قلنا خيرنا البازل السمح
فان قيل من هذا البغيض أقل لكم على شرط كتمان الحديث هو الفتح
وقال منصور :

يا من يرى المتعة فى دينه حلاً وإن كانت بلا مهر
ولا يرى تسعين تطليقة تبين منها ربة الخدر
من ههنا طابت مواليكم فاجتهدوا فى الحمد والشكر

وقال :

أبى الناس أن يدعوا موسراً سليم الأديم سليم النسيب
وقد خبروك فان لم تطب بمرضك نفساً فطب بالذهب

وقال :

يا من تولى فأبدى لنا الجفا وتبدل
أليس منك سمعنا من لم يمت فسيمتل

وأتى باب بعض الأشراف الرئيسيين ، فحجبه خادم اسمه شقيف فقال :

إذا وقع الضرير على خصي فقد وقع المصاب على مصاب

وكان أم هذا الشريف أمة ثمنها ثمانية عشر ديناراً ؛ فعتب على منصور فقال :

من فاتني بأبيه ولم يفتني بأمه

ورام شتمي ظلاماً سكت عن نصف شتمه

فدفع إليه مائة دينار. وقال : أسكت عن الجميع . فانظر أعزك الله البليغ إذا شاء

كيف يجعل الجد هزلاً ، والمغرّى محلى ، وهذا المعنى إنما اهتدى إليه من قول

عنترة بن شداد العبسي وأمه أمة سوداء اسمها زبيبة :

إني امرأة من خير عبس منصّباً شطري وأحمى سائري بالمنصل

وسأستقل إن شاء الله ، ذكر ابن بسام ، ونقل ظريف ماله في غير هذا الموضع .

وكتب ابن الكلبي صاحب الخبر : إلى المتوكل أن المعروف بابن المغربي

القائد اجتاز البارحة بالجسر سكران ، فشخر ونخر ، وبربر وزنجر وجرجر ، وبأبأ

بفيه ، وخرق الشريحة ومر منصلتاً . وقال : أنا الكر كدن فاعرفوني . فضحك المتوكل

حتى استلتي . وقال : قد عرفنا ما كتب به البغيض إلا حرفاً واحداً فعلى به ، فلما

جاء قال : مامعنى قولك بأبأ بفيه ؟ قال : يامولاي لما توسط الجسر قال بفيه :

بب بب . فقال له المتوكل : انصرف في غير حفظ الله .

وركب المأمون ليلاً فاذا بثامة بن أشرس سكران ، فلما علم بالمأمون توارى عنه ،

فقصده المأمون حتى وقف عليه . فقال : ثامة ؟ قال : أي والله . قال : أسكران ؟

قال : لا والله . قال : فمن أنا ، قال : لأدرى والله . قال : عليك لعنة الله . قال :

تترى إن شاء الله . فضحك وتركه

ولما فرغ المهدي من قصره بعيسا باذ ، ركب في جماعة للنظر إليه ، فدخله مفاجأة وأخرج كل من هناك من الناس ، وبقى رجالان خفيا عن أبصار الأعوان ، فرأى المهدي أحدهما وهو دهش لا يعقل . فقال : من أنت ؟ قال : أنا أنا أنا أنا . فقال : من أنت ويلك ؟ قال : لا أدري لا أدري لا أدري لا أدري . قال : ألك حاجة ؟ قال : لا لا لا لا . قال : أخرجوه أخرج الله روحه ، فلما خرج قال المهدي للغلام أتبعه إلى منزله وصل عنه فأنى أراه حائكا ، فخرج الغلام يقفوه . ثم رأى الآخر فاستنطقه فاجابه بقلب جرى ، ولسان طلق . وقال : رجل من أبناء دعوتك . قال : فما جاء بك إلى هنا ؟ قال : جئت لأنظر إلى هذا البناء ، وأتمتع بالنظر إليه ، وأكثر الدعاء لأمير المؤمنين بطول البقاء ، وتمام النعمة ونماء العز والسلامة ، قال : أفلك حاجة ؟ قال نعم ! خطبت ابنة عمي فردني أبوها وقال لي : لا مال لك والناس إنما يرغبون في الأموال ، وأنا لها وامق وإليها تائق . قال : قد أمرت لك بخمسين ألفاً . قال : يا أمير المؤمنين قد وصلت فأجزلت الصلة وأعظمت المنة ، فجعل الله باقي عمرك أكثر من ماضيه ، وآخر أيامك خيراً من أولها ، وأتممك بما أنعم به عليك ، وأمتع رعيتك بك . فامر بتعجيل صلته ووجه بعض خدمه فقال : سل عن مهنته فأنى أراه كتاباً ، فرجع الرسولان بصحة ما تفرسه المهدي .

وأخبر رجل من لحية مديني شيئا ، فانتظر أن يقول له قطع الله عنك القذى ، فقال له : لم لم تقل لي قطع الله عنك الأسواء ؟ فقال المديني : بأبي أنت وأمي إني نظرت فلم أر شيئا أقبح من وجهك ، فكرهت أن أقول قطع الله عنك الأسواء ، فأكون قد دعوت عليك فيتركك الله بدنا بلا رأس .

قال أبو العيناء : استودع رجل عند إمام محلته قارورة زنبق فجحدته إياها ، وقام يصلي بهم شهر رمضان وقرأ « قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون » وكررها . فقال الرجل : قارورة زنبق

انفرد المهدي بن عسكده فاجتاز برجل على ماء ، فقال : ألك طعام ؟ قال :
نعم ! وقدم إليه سفرة كانت معه ، فأكل المهدي ثم غسل يده . فقال له الرجل :
أصلحك الله معي شراب فهل لك فيه ؟ قال : نعم ! فشرب ، فلما انتشى قال
للرجل : أتعرفني ؟ قال : لا . قال : أنا صديق لوزير أمير المؤمنين ، وسأسأله في
أن يسبب لك أسبابا تنتفع بها ، ثم شرب قدحا ثانيا . وقال : أتعرفني من أنا ؟
فقال : لقد قلت إنك صديق لوزير أمير المؤمنين . فقال : أنا وزير أمير المؤمنين ،
ثم شرب ثالثا . وقال : أتدرى من أنا ؟ فقال : قل لي كي أرى . قال : أنا أمير المؤمنين .
فسد الرجل ركوته ونحاهها ناحية ، فقال له المهدي : مالك عجلت برفعها ؟ قال :
شربت ثلاثة أقذاح فادعيت الخلافة ، فان شربت الرابعة ادعيت النبوة ، فليس
بيني وبينك عمل ، فضحك المهدي وأدركته الخليل فجعلوا يترجلون ويسلمون
عليه بالخلافة ، ثم ركب المهدي وأمرهم بالتحفظ على الرجل ، فاماتيةن الرجل الأمر
سألهم أن يقربوه من أمير المؤمنين ، فقبوه منه . فقال : يا أمير المؤمنين نصيحة ،
فأدناه ، فقال : مارأيت أصدق منك في دعواك ، وان ادعيت الرابعة ، فأنا أول
مؤمن بك . فضحك المهدي منه وأمر له بصلة وضمه إلى ندمائه .

قال سفيان بن عيينة — وقد رأى اسماعيل بن جامع السهمي وعليه بزة وأثواب
حسان — . فقال : أقدم أرى هذا الفتى ، فعلام يحكي ويعطى ؟ قالوا : انه يغني هؤلاء
الملوك قال : بماذا يغنيهم ؟ أتحفظون شيئا مما يقول ؟ فأنشدوه بعضهم :

أطوف نهاري مع الطائفين وأرفع من مثرى المسبل

قال : احسن ، ثم ماذا ؟ فأنشدوه :

واسجد بالليل حتى الصباح وأتلو من الحكم المنزل

قال : أجاد والله ثم ماذا ؟ فأنشدوه :

عسى فارج الكرب عن يوسف يسخر لي ربة الحمل

فقال : آه آه آمسك عليك ؛ اللهم لا تسخرها له .

وكان ابن جامع أطيّب الناس غناءً ، فاعتقد بغنائهم عقداً نفيسة ، وأموالاً جزيلة .
حكى عن نفسه قال : صمى الدهر ضماً شديداً وأنا بمكة . فانتقلت بعيالى إلى
المدينة ، فأصبحت يوماً وما أملك إلا ثلاثة دراهم ، ففى فى كمى وأنا جالس مع
بعض أهل المدينة على مناقشة ومذاكرة ، إذ قال بعضنا إنه ليبلغنا أن الرشيد
يتشوق إليك وأنت ضائع فى بلدنا . قال : فما لى من نهوض . قالوا : نحن نهضك .
فقمتم مولياً فاذا بجارية خصراء على رأسها جرة تريد الركى ، وهى تسعى بين
يدى وتترنم بصوت شج فى غنائها وتقول :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
إذا أقبل الليل المضرب بذى الهوى جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سرعاً ولا يغشى لنا النوم أعينا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما تلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فأخذ غناؤها بمجامع قلبى ، ولم أدرك منه حرفاً . فقلت : يا جارية ما أدرى
أوجهك أحسن أم صوتك؟ فلو شئت أعدت على الصوت . قالت : جاءاً وكرامة ثم
أسندت ظهرها إلى الحائط ثم غنته ، فوالله ما دار لى منه حرف . فقلت : يا جارية
فلو شئت أعدت على الصوت مرة أخرى . قالت : جاءاً وكرامة ثم أسندت ظهرها
إلى الجدار ووضعت الجرة ثم غنته فوالله ما دار لى منه حرف . فقلت : يا جارية لقد
أحسن وتفضلت فلو شئت أعدت الصوت مرة أخرى فغضبت وكلمت وقالت :
ما أعجب أحدكم يأتى إلى الجارية عليها علة فيقول أعيدى على ، فضربت يدي
إلى الثلاثة دراهم فدفعها إليها فأخذتها شبيهة المتكرهة وقالت : أنت تريد أن
تأخذ منى صوتاً أحسبك تأخذ عليه ألف دينار وألف دينار وألف دينار . فقلت :
أرجو أن يؤول الأمر الى ما تحسبين ، فانبعثت تغنى وأعملت فكرى فى غنائها
حتى دار لى الصوت وفهمته ، فانصرفت مسروراً الى منزلى أردده حتى خف على
لسانى ، ثم اقبلت أريد بغداد ، فنزل بى المكارى على باب المحول أولاً ولا أدرى

أين أتوجه ، ولا من اقصد ؟ حتى انتهى بي السير الى الجسر ، فرأيت الناس يعبرون . فعبرت معهم حتى انتهيت الى شارع الميدان ، الى باب الفضل بن الربيع . فرأيت هناك مسجداً مرتفعاً . فقلت : هذا مسجد قوم سراة ، وحضر المغرب فلم البث أن جاء المؤذن ، فاذن وأقام الصلاة فصليت ، ثم أمت مكانى حتى عاد المؤذن للعشاء ، فأقام الصلاة فصليت على تعب وجوع ، ثم انصرف الناس وبقى فى المسجد رجل ، فصلى خلفه جماعة وجماعة من الخدم جلوس ، وقوم ينتظرون فراغه ، فصلى ملياً ثم انصرف الى بجميع جسده ، وقال لى : أحسبك غريباً . قلت : أجل وليس لى بهذا البلد معرفة ، وليست صناعتى من الصنائع التى يتيمم بها الى أهل الخير . قال : وما صناعتك ؟ قلت : الغناء فوثب مبادراً ووكل بى بعض من معه ، فقلت للموكل بى : من هذا ؟ قال : سلام الأبرش . ثم انتهى الى دار من دور الخلافة فمشى بى فى دهليزها ساعة حتى انتهى الى مقصورة من مقاصيرها ، فادخلنى فيها ، ودعا لى بطعام فأتينا بمائدة عليها من كل طعام ، فأقبلت على الأكل حتى تراءت نفسى الى ثم سمعت ركضاً فى الدهليز ، واذا انسان يقول : أين الرجل ؟ قليل : هوذا . فقال : ادعوا له بفسول وطيب وخلعة حسنة ، ففعل ذلك بى وخلقت ، وأخذ ييدى الرجل وحملنى على دابته ، وأتى بى الى دار الخلافة ، فلم يزل يجاوز بى داراً بعد دار ، حتى انتهى الى دار فعدا فيها أسرة منصوبة بعضها الى بعض ، فلما انتهى بى الى تلك الأسرة ، أمرنى بالصعود فصعدت ، واذا رجل جالس وعن يمينه ثلاث جوار فى حجورهن العيدان ، وفى حجر الرجل عود ، فرحب بى ذلك الرجل ، واذا مجالس مخالية ؟ قد كان فيها قوم فقاموا عنها ، ثم لم ألبث أن خرج خادم من وراء الستر ، فقال للرجل : تغن ، فغنى بصوت فوائله ما أحسن الغناء ولا أحسن انصوت ، وهو هذا :

لم تمش ميلاً ولم تركب على جمل ولم تر الشمس إلا دونها الكلل
فقام الخادم الى الجارية التى تلى الرجل . فقال : تغنى ، فغنت بصوت لين كانت

فيه أحسن من الرجل حالا ، ثم قال للثانية فغنت ، وللثالثة فغنت بصوت أحنين ، ثم عاد الخادم فقال لى : تغن رحمتك الله ! فغنت بصوت الرجل على غير ما غناه ، فاذا نحو من خمسين خادماً يحضرون الى الأسرة ، فقال لى : ويحك لمن هذا الغناء ؟ قلت لى : فانصرفوا وخرج الخادم فقال : كذبت هذا الغناء لاسماعيل ابن جامع . قال . فسكت ، ثم دار الدور فلما انتهى الى خارج الخادم فقال : تغن رحمتك الله ! فقلت فى نفسى أى شىء انتظر ، فاندفعت أغنى بصوت لايعرف إلا لى :

عوجى على فسلمى جبر كيف الوقوف وأنتم سفر
ما نلتقى إلا ثلاث منى حتى يفرق بيننا الدهر

قال : فزلزلت عليهم الدار ، وخرج الخادم فقال : لمن هذا الغناء ؟ فقلت لى . فقال : كذبت هذا غناء اسماعيل بن جامع ، فما شعرت إلا وأمير المؤمنين وجعفر ابن يحيى قد اقبلا من وراء الستر الذى كان يخرج منه الخادم . فقال لى الربيع : هذا أمير المؤمنين قد أقبل عليك فلما صعد السرير وثبت على قدم أمير المؤمنين اقبلا فقال : ابن جامع ؟ قلت : ابن جامع ، جعلنى الله فداك . قال : اجلس يا ابن جامع ، وجلس أمير المؤمنين وجعفر فى المواضع الخالية . فقال لى : يا ابن جامع ابشروا بسط أملك ، فدعوت له . ثم قال لى : غن يا ابن جامع ، فخطر ببالى صوت الجارية المدنية فغنيته ، فنظر أمير المؤمنين إلى جعفر . وقال : اسمعت كذا قط ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ما خرق سمى مثل هذا ، فرفع الرشيد رأسه إلى خادم وقال له : كيس فيه الف دينار ، فضى الخادم فلم يلبث أن جاء بكيس فيه الف دينار ، فصيرته تحت فخذى . ثم قال : يا اسماعيل غن ما حضرك ؛ فاقبلت اقصد الى الصوت بعد الصوت ، فلم ازل كذلك إلى أن عسعس الليل ، فقال : يا اسماعيل قد اتعبناك هذه الليلة للسرور بفنائك ، فاعد على أمير المؤمنين الصوت الذى تغنيت أولاً فغنيته ، فرفع رأسه الى الخادم . فقال له : كيس فيه الف دينار ، فذكرت قول الجارية لى «إنى أحسبك تأخذ فيه الف دينار والف دينار والف دينار» ثم قال : انصرف ، فبقيت لأدري

این آقصد فی ذلك الوقت ؛ فما هو إلا أن نزلت عن الأسرة حتى وثب إلى فراشان
فاخذ أحدهما بيدي فضيا بي ولا أدري إلى أين يتوجهان ، حتى وقفا على باب داری
هذه ، فاذا أمير المؤمنين قد أمر سلاماً الأبرش فاتباع دارا ، وحشاها بالجوار والخدم
والوصفاء والفرش والطعام والشراب . ورفع إلى أحدهما اضبارة مفاتيح . فقال :
ادخل بارك الله لك . هذا مفتاح بيت مالك ، وهذا مفتاح حجر جواريك ، وهذا
مفتاح بيت فرشك وآيتك ، فدخلت الدار وأنا أيسر أهل بغداد وأحسنهم حالا ،
والحمد للرب العالمين

ومن مליح ما جاء في المغنيات والغناء قول بشار بن برد :
وصفراء مثل الزعفران شربتها على وجه صفراء الترائب رود
حسدت عليها كل شيء يمسهما وما كنت لولا حسنها بحسود
كأنّ مليكا جالسا في ثيابها تؤمل رؤياه عيون رقود
من البيض لم تسرح على أهل ثلة سواماً ولم ترفع حداج قعود
إذا نطقت صمنا وصاح لها الصدا صياح جنود واجهت لجنود
تميت به ألبابنا وقلوبنا مراراً وتحمين بعد همود
ظللن بذاك الديدن اليوم كله كأننا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس إلا أننا عند أهلها شهود وما ألبابنا بشهود
وقال :

لعمري أبي زوارها الصيد أننا لفي منظر منها وحسن سماع
تصلّى لها آذاننا وعيوننا إذا ما التقينا والقلوب دواعي
وقال :

وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش بيّوس ولم تتركب مطية راعي
جرى اللؤلؤ المكنون فوق لسانها لزوارها من مزهر ويراع
إذا قامت أطرافها العود زلزلت قلوباً دعاها للوساوس داع

كانهم في جنة قد تلاحقت محاسنها من روضة وبقاع
يروحون من تغريدها وحديثها نشاوى وما تسقيهم بصواع
لعوب بألباب الرجال إذا رنت أضيع التقي والغى غير مضاع

والشعر في هذا المعنى واسع الذرع ، سابع الذرع ، ولأبى الفتح كشاجم فيه
كل شيء مليح ، فمن ذلك قوله :

جاءت بعود كأن الحب أنحلّه فما يرى فيه إلا الوهم والشبح
فحركته وغدت في الثقل لنا صوتا به النار في الأحشاء تنفدح
بيضاء يحضر طيب العيش إن حضرت وإن نأت عنك غاب اللهو والفرح
كل الآباس عليها معرض حسن وكل ماتتغنى فيه مقترح^(١)
وهذا مقول عبد الله بن المعتز :

وغنت فأغنت عن المسمعين وارتمى بالطرب المجلس
محاسنها نزهة للعيون ومعرضها كلما تلبس

ولأبى الفتح :

جاءت بعود كأن نعمته صوت فتاة تشكو فراق فتى
محفف حفت النفوس به كأنما الزهر حوله نبتا
دارت ملاويه فيه واختلفت مثل اختلاف الديدن شبكتا
لو حركته وراء منهزم على بريد لعاج والتفتا
ياحسن صوتيهما كأنهما اختان في صنعة تراسلتا
تراه عنها ينوب إن سكنت طورا وعنه تنوب إن سكنا

وله :

آه من بحة بغير انقطاع لفتاة موصولة الايقاع
أتعبت صوتها وقد يجتنى من تعب الصوت راحة الايام

(١) في الاصل : معرب حسن والتصحيح عن ديوان المعاني

فندت تكثر السجاح وحطت طبقات الأوتار بعد ارتفاع
كأنين الحب ضعف منه صوت شكواه شدة الأوجاع

وله :

اشتهى فى الغناء بحجة حلف ناعم الصوت متعب مكدود
لا أحب الأوتار تعلو كما لا أشتهى الضرب لازماً للعود
وأحب المحييات كحبي للمبادئ موصولة بالنشيد
كهبوب الصبا توسط حالاً بين حالين شدة وركود

وله أيضاً :

غنت فظلت حالى طرباً أسمى إلى الأفلاك حين رقا
لو لم تحركه أناملها كان الهواء بقيده نطقاً
جسته عالمة بحسبها جس الطيب لمدنف عرقاً
فحسبت يمتاها وقد ضربت رعداً وختل يسارها برقاً
وأبو الفتح كشاجم هذا اسمه محمود بن الحسن بن السندى ، من أهل هذه
الصناعة وله فى الغناء كتاب مليح ، وقد دل على فعاله بمقاله :

أفدى التى كلف الفؤاد مزاجها بالعود حتى شفى إطرابا
باهت بجمع صناعتين فأظهرت كبرا لذك وأعجبت إعجابا
قالت فضلتك بالغناء وأنت لا تشدو وكنا مثلكم كتناما
فعبثت بالأوتار حتى لم أدع نغماً ولم أعقل لهن حسابا
وألفتها فأغار ذاك على يدي قلمي وعاتبها عليه عتابا
فجعلت للقرطاس جانب صدره وجعلت جانب عجزه مضرابا

وكان كامل آلات الظرف ، جامعاً للخالل الأدب والطف ، وله تأليف ملاح تدل على
معرفة وتوسعه ، وقد ذكروا أنه سمي نفسه كشاجم لما يعلمه ، فالكاف من كاتب ،
والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من منجم ، والميم من مفن .

وقال أبو عثمان سعيد بن الحسن الناجم :

لقد جاد من غانية ضربها وزاد كما زاد تغريدها
إذا نوت الصوت قبل الغنا ، انشدنا شعرها عودها
وقد قال استاذة ابن الرومي في نحوه :

ضربك في عودك لم يخرجنا عن حاله والعود في الضرب
كأنما وقعها في الحشا وقع الحيا في زمن الجذب
أخذ هذا أبو الحسن المنجم بن يوسف المصري فقال :

غنت فاخفت صوتها في عودها فكأنما الصوتان صوت العود
غيداء تأمر عودها فيطيعها أبدا ويتبعها أتباع ودود
أندى من النوار صبحاً صوتها وأرق من نشر الثنا المعهود
فكأنما الصوتان حين تمارجا ماء الغمامة وابنة العنقود

ومثل هذا

سلامة بن سعيد يجيد حث الراح
إذا تغنى زمرنا عليه بالأقداح

وقال الناجم

تأتى أغاني عابث أبدا بأفراح النفوس
تشدوا فترقص الرؤو س لها وتزمر الكؤوس

وقال :

وما صدحت عابث ومزهرها إلا وثقنا باللهو والفرح
لها غناء كاللداء في جسد أضناء طول السقام والترح
تعيه الراح فهي ما صدحت ابريقنا ساجداً إلى القدح

وقال :

إذا انت ميزت بين الغناء ميزتها الأحقق الأطيبا

تهز القريض بالحنها كما هزت الغصن ريح الصبا

وقال :

ما تغنت إلا تكشف هم
عن فؤاد وأقلعت أحزان
تفضل السمعين حسناً وطيباً
مثل ما يفضل السماع العيان

وقال :

ما نطقت عابث ومزهرها
إلا ظللنا للراح نعملها
تطلب أوتارها المموم بأو
تارها فما تستفيق تقتلها

وقال :

لها غناء مطرب معجب
يفعل ما تفعله الخمره
تشوق الأذن الى شدوها
تشوق العين الى الخضره
كأنما فرحة من زارها
فرحة من طارت له القمره
لو أن اسحاق شدا شدوها
لحلت من يسمع في سحره
منسدة في كل ألحانها
لا كالتى تحسن في الندره

وقال :

لقد برعت عابث في الغنا
يسبح سامعها معجبا
وزادت فاربت على البارح
وأصواتها سبعة السامع

وقال :

شدو ألد من ابتدا
العين في إغفائها
أحلى وأشهى من منى
نفس، وصدق رجائها

وقال ابن الرومى فى بستان جارية أم على بنت الراسبى :

واهاً لذاك الغناء من طبق
على جميع الأنام مقتدر
أضحت من الساكنى حفائزهم
سكنى الغوالى مداهن السرر
يا مشرباً كان لى بلا كدر
يا سمرأ كان لى بلا سهر

أصبحت بالترب غير راجحة عنه وقد ترجحين بالبدن
وتبعه الناجم ، فقال في عجب جارية أبي مروان :

أضحى الثرى بجوارها عطر المسالك والمسارب
حلت حفيرتها حلو المسك في سر الكواعب
يادرة كانت تضي لناظري من كل جانب

وهذا من قول بشار :

درة حيثما أديرت أضاءت ومشم من حيث ماشم فاحا
وجنان قال الآله لها كو نى فكانت زوحا ورؤوحا وراحا
وله

تلقى بتسبيحة من حسن ما خلقت وتستغفر الورى حتى بارغاد
كأنما صوّرت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجه بمرصاد
والبيت الاول من هذين قد تقدم نظيره من قول الناجم .

رجع ما انقطع ، فمن ظن به خير فأنكشف عن شر ، قال يزيد بن هارون :
كنت بالحيرة فرأيت شيخا عليه طيلسان وعلى رأسه طويلة وله سمت حسن ،
فرجوت أن يكون عنده حديث فقلت : يا شيخ عندك حديث ؟ فقال : أما حديث فلا
ولكن عندي قديم طيب ، فإذا هو خمار وسأل العقيق في بعض السنين فخرج
الناس إلى الصحراء وفيهم سفيان الثوري ، فلما كثر الناس انكفأ يريد منزله فبصر
بشيخ ضرير قد اهدف على المائة ويده عصا يتنحرق صفوف النساء وهو يبكي
بكاء شديدا ، فظن سفيان أن بكاءه لما فرط له معهن . فنظر اليه حتى إذا صار في
آخر الصفوف جنح على محبته واستقبلهن بوجهه ، وكفكف عن عبرته وأنشأ :

عليكن السلام فليس منى لكن فدننى غير السلام
تحالفت العصا لتشد ظهري وتجير عترتي عند القيام

فقال له سفيان : أما كان لك فيما مضى من عمرك عظة عن معاصي الله عز

وجل ؟ فقال : بأبى أنت تمنعني من تلك الحوراء الطرف ، الوافية الردف ، الحسنة التبختر ، الوافية التكسر ، كالظلي الغرير ، والمهابة عند الغدير ، التي يقول في صويحباتها الشاعر :

يأخذن زينتهن أحسن ما يرى فاذا عطلن فهن خير عواطل
يرميني لا يستترن بحجة إلا الصبا وعلمن أين مقاتلي
يلبسن أردية الثياب لأهلها ويحجر باطلهن جيد الباطل
فمضى سفیان يستعيز بالله منه . ومثل قوله قول كشاجم :

يقولون تب والكاس في يد أغيد وصوت المثاني والمثالث على
قللت لهم لو كنت عاينت توبة وعانيت هذا في المنام بدا لي

وما جرى ههنا شوطا في ظريف الصفات ، يطيب مغناه ويحسن معناه . قال أشجع بن عمرو :

وماجت كموج البحرين ثيابها يميل بها شطر ويمد لها شطر
إذا وصفت ما فوق مجرى وشاحها غلائلها ردت شهادتها الأزر
البحتری :

رددت ما خفقت منها الحصور الى ما في المآزر فاستقلن أردا
إذا نضون شغوف الریظ آونة قشرن عن لؤلؤ البحرين أصدافا
ابن الرومی :

النار في خديه تتقد والماء من برديه يطرد
ضدان قد جمعا كأنهما دمعي يسيع ولوعتي تقد

وثاب :

صدور فوقهن حقائق عاج ودرز زانه حسن اتساق
يقول القائلون إذا رأوه أهذا الدر من تلك الحقائق ؟

أخذه من قول عبد الله بن السمط :

كَأَنَّ الشَّدَى إِذَا مَا بَدَتْ وَزَانَ الْعُقُودَ بَيْنَ النَّحُورِ
حَقَاقٍ مِنَ الْعَاحِ مَكْنُونَةٌ حَمَلْنَ فِي الدَّرِّ شَيْئًا يَسِيرًا

أَبُو النَّجْمِ الْكَاتِبُ :

فِيَا عَجَبِي مِنْ صُورَةِ آدَمِيَّةٍ عَلاهَا يَبَاضُ الشَّمْسُ فِي صَفْرَةِ الْقَمَرِ
فَجَاءَتْ كَمَثَلِ الدَّرِّ يَشْرِقُ لَوْنُهَا وَرِيحَانَةُ الْبُسْتَانِ لِلشَّمِّ وَالنَّظَرِ
يَذْكُرْنِي رُؤْيَاكِ رِيحًا مَرِيضَةً جَرَتْ بِنَسِيمِ الرُّوْضِ فِي غُلْسِ السَّحَرِ
أَبْنُ الرَّومِيِّ :

فَالْعَيْنُ لَا تَنْفَكُ مِنْ نَظَرٍ وَالْقَلْبُ لَا يَنْفَكُ مِنْ فِكْرٍ
وَمَحَاسِنِ الْأَشْيَاءِ فِيكَ مَعًا فَمَلَأْتِيكِ مَلَاتِي بِصُرَى
وَقَالَ :

لَا شَيْءَ إِلَّا تَوَفِيهِ أَحْسَنُهُ فَالْعَيْنُ مِنْهُ إِلَيْهِ تَنْتَقِلُ
فَوَائِدُ الْعَيْنِ فِيهِ طَارِفَةٌ كَأَنَّمَا أَخْرِيَّتُهَا الْأَوَّلُ

وَقَالَ عَبْدُ الْقَادِرِ بْنِ شَعِيبِ السَّمْعِيِّ :

يَا حَصْنُ مَسْلَمَةٍ الَّذِي أَهْدَى لَنَا حُورَ الظُّبَاءِ سَقَيْتِ صُوبَ الْمَاطِرِ
قَدْ كَانَ يَبْلُغُنِي فَكَنْتُ مَكْذِبًا عَنْ حَسَنِ أَهْلِكَ فِي الزَّمَانِ الْغَابِرِ
حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَقَ نَوْرُهَا فِي الْحَيِّ بَيْنَ خِلَافِلِ وَأَسَاوِرِ
وَرَأَيْتُ غَزْلَانَ الْخُدُورِ سَوَافِرًا يَبْسُمْنَ عَنْ كَالِ الْأَقْحَوَانِ الزَّاهِرِ
فَجَنَيْتُ مِنْ ثَمَرِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى وَشَمَمْتُ مِنْ وَرَقِ السَّرُورِ الْوَاضِرِ
فَرَمَيْتُ مِنْ مِثْقَلِ مَقْتَلَةٍ يَأْمَنُ رَأْيَ لَيْثًا قَتِيلَ جَاذِرِ

وَمَرَأَ عَرَابِيَّ بِأَبْيِ نَوَاسٍ وَهُوَ يَنْشُدُ بَعْضَ الْأُمَرَاءِ :

وَيْلِي عَلَى نَجْلِ الْعِيُو نِ الْنَهْدِ وَالْقَبِ الْبَطُونِ
الْكَاثِبَاتِ عَنْ الضَّمِّ يَرِ لَنَا بِالسَّنَةِ الْجَفُونِ

قَالَ الْأَعْرَابِيُّ . وَيْلَكَ أَنْتَ وَحَدُّكَ مِنْ هَذَا ؟ بَلْ وَيْلِي أَنَا وَوَيْلُ أَبِي وَأُمِّي وَبَنِي
عَمِّي ، وَهَذَا الْفَاعِلُ الْقَائِمُ بَيْنَ يَدَيْكَ

كان رجل من التجار له ولد يتقعر في كلامه ويستعمل الغريب فجفاه أبوه استثقلاً له وتبرماً به ومما كان يأتي به ، فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت . فقال : أشتي أن أرى ولدي فأحضروهم بين يديه وأخر هذا ثم أخر حتى لم يبق سواه فقالوا له : ندعو لك بأخينا فلان ؟ فقال : هو والله يقتلني بكلامه ، فقالوا : قد ضمن أن لا يتكلم بشيء تكرهه ، فأذن لهم فلما دخل قول : السلام عليك يا أبت قل أشهد أن لا إله إلا الله وإن شئت قل أشهد أن لا إله إلا الله فقد قال الفراء : كلاهما جائز والأولى أحب إلى سيوييه . والله يا أبت ما شغلني غير أبي علي فإنه دعاني بالأمس : فأهرس وأعدس ، وأررز وأورز ، وسكجج وسبج ، وزر بج وطهيج ، وأبصل وأمصر ، ودجدج وأفلودج ولوزج . فصاح أبوه العليل : السلاح السلاح صيحوا لنا بجارنا الشماس لأوصيه أن يدفني مع النصارى وأستريح من كلام هذا البندوق .

وهاج بأبي عاقمة النحوى دم فأتوه بحجام . فقال له : أشدد قصب المحاجم ، وأرهف ظبا المشارط . وأسرع الوضع ، وعجل النزع ، وليكن شرطك وخزاً ، ومصك نهزاً ، ولا تكرهن آيياً ، ولا تردن آتياً فقال الحجام : ابعت خلف عمرو بن معديكرب ، وأما أنا فلا طاقة لي بالحرب . وهاج به مرار فسقط فأقبل قوم يعضون إبهامه ، ويؤذنون في أذنه ، فقام من غمرات غشيته . فقال : ما لكم تتكأ كئون على كتكأ كشكم على ذى جنة ؟ افرقعوا عني . فقال بعضهم : اتركوه فإن جنيته تتكلم بالهندية .

وقال أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن اليتيم : كنت أماشي أبا جعفر ابن النحاس حتى وقفنا على بائع تمر ، فقال له أبو جعفر : كيف تبغى ؟ قال : ثلاثة ونص بدرهم . قال له قل ثلاثة ونصف بدرهم . قال ثلاثة ونصف بدرهم . فقال له : قل ثلاثة ونصف بالكسر ، فضجر وقال : ونصف افرغ لسانك فنحن في

بيع وشراء لسنا في نحو . قال فأجعله أربعة ؟ قال أفعل يا بغيض ، فوزن له بدرهم فقال له أبو جعفر : أدر الصنجة من الكفة إلى الكفة ، فقال أنا أعرف ابن النحاس فانه أحكمكم . قال ابن اليتيم فقلت له : أبيت أن تنصرف إلا مصفوعاً .

وكان أبو العباس مليح الشعر وهو القائل :

لا لائى أنساك أكثر ذكرا ك ولكن بذاك يحجرى لسانى
أنت فى القلب والجوانح والرو ح وأنت المنا وأنت الأمانى
كل عضومنى يراك من الشو ق بعين غنية عن عيانى
ودخل بستان حسين بن الماذرانى فعلق بثوبه غصن ورد فقال :
عاقى الورد بنى وقال إلى آيت ن وعندى روائح الأحباب
قلت آليت لا أشمك حتى أتروى من الثنايا العذاب
وقال :

يا زائرى فى ظلمة اللب سل البهيم على وجل
حاف وقد جعل القناع على النهار من الحجل
هلاً انتعلت بوجنتى فكان يضرب بى المثل
سبحان من جعل الحدو د عذاب قلبى والمقل

قال خالد بن صفوان للفرزدق : يا أبا فراس لو رأيته صويحبات يوسف لما
أكبرته ولا قطعتن أيديهن ؟ ! فقال : وأنت يا خالد لو رأته صاحبة موسى لما
قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين .
ووهب رجل لابن سيابة ديناراً ثم بعث إليه ليأنس به ، فكتب إليه : شغلتننا
أموالنا وأهلونا . وجاور ابن سيابة قوماً فازعجوه . فقال : ولم تخرجونى من جواركم ؟
قالوا : أنت مريب ، قال : فمن أذل من مريب وأحسن جواراً . وفيه يقول
عتبة الأعور :

يا ابن الذى عاش غير مهتضم يرحمه الله أيما رجل

له رقاب الملوك خاضعة ما بين حاف منهم ومنتعل
أبوك أوهى النجاد عاتقه كم من كمي أردى ومن بطل
يأخذ من ماله ومن دمه لم يمس من دائر^(١) على وجل
في كفه صارم يقدّه يقدّ أعناق سادة نبيل
وهذا بديع في وصف حجام .

وقال آخر يصف حجاماً :

له حوّة فيها ثلاثون مخلباً مناقيرها بيض وأجوافها حمر
إذا عوج الكتاب يوماً سطورهم فليس بمعوج له أبداً سطر
وقد قال بعض المزينين :

قصصت بموسى الغدر ناصية العهد وأجريت شرط البين في جبهة الود
قططت بمقراض الجفا طرّة الوفا فجبهة وجه الود مكشوفة الجلد
وما زلت مصاصاً بجميعمة القلبى أخوا النأى في العتبى على القرب والبعد
ولأهل الصناعات من طريق صناعاتهم كلام مستظرف ، وربما اتفقت
الاستعارة مطردة للشاعر على معنى في صناعة حتى كأنه عانى تلك الصناعة بما
جرى على لسانه من البراعة ، في وصف حقائقها ، ونعت طرائفها كقول عبدالله
ابن العباس بن الفضل بن الربيع :

عرست الهوى حتى إذا أورد الهوى فأينع في أغصانه ثمر الوصل
وحفّت به أنهاره في غياضه فأصبح ملتف الخدائق بالحمل
ولم يبق إلا المجتنى من ثماره سرور التصافى والمودة والبذل
أطاف بنا ريح الوشا فهيجت سحابة هجران تكف على رسل
فمالت عزاليها عليه فأحرقت غصون الهوى والود منّا بلا دخل
ودبت سيول الهجر حول أصوله فأغصانه فاستقلعت من الأصل

(١) كذا في الأصل : ولعه من زائر

قال علي بن هشام :

حصد الحبيب وصالنا بمناجل طبع المناجل من حديد البين
والشوق يطحنه بأرحية الهوى والعين تعجنه بماء العين
والقلب يخبزه بنيران الأسى والنفس تأكله بلون لون

قال الجاحظ سألت ورّاقا عن حاله ؟ فقال : عيشى أضيق من محبرة ، وجسمى
أدق من مسطرة ، وجهى أرق من الزجاج ، ووجهى عند الناس أشد سواداً
من الخبر بالزاج ، وحظى أخفى من شق القلم ، وجسمى أضعف من قصبة ،
وطعامى أمض من الخبر ، وشرابى أمر من العفص ، وسوء الحال ألزم بى من الصمغ ،
فقلت : لقد عبّرت بلاء عن بلاء .

١. وللجاحظ فى هذا النوع رسالة كتب بها الى المعتصم وقيل الى المتوكل
فى الحُض على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب وهى :
يا أمير المؤمنين علم بنبك من أنواع الأدب ما أمكن ، فانك إن أفردتهم
بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يعرفوه ؛ وذلك أن حزاما صاحب خيلك حين
سأله عن الوقعة ببلاد الروم . قال : لقيناهم فى مقدار الاصطبل فما كان إلا بمقدار
ما يحس الرجل دابته حتى قتلناهم ؛ فتركناهم فى مثل نثير السرجين ، فلو طرحت
روثة لما سقطت إلا على ذنب بردون ، وكان قد أنشد فى الغزل :

إن يهدم الصد عن قلبى مذاوده فإن قلبى بقت الصبر معمور
ويمح امرئ فى وثاق الحب يكبحه لجام هجر على الأسقام مقرر
انل خليلك نيلا من وصالك أو حسن الرقاد فإن النوم مأسور
أمنت قتل شكالى حين ودّغنى ومبضع الحب فى كفيه مطرور
لبست برقع هجر بمد ذلك فى اصطبل ود فروث الحب منشور

وسألت بختيشوع الطيب عن مثل ذلك . فقال : لقيناهم فى مقدار ساحة
البيمارستان ؛ فما كان إلا بمقدار ما يختلف الرجل مقعدين حتى تركناهم فى محقنة

ثم قتلناهم ، فلو طرحت مبضعا لما وقع إلا على مكحل رجل . وكان قد قال في الغزل :

شرب الوصل بجنح الهجر فاستطاع بطن الوصال بالإسهال
ففؤاد الحب ينحله السهم د وقلبي معلق بالمطال
وفؤادي مبرسم ذوزحير يا ابن ماسويه ضاق احتيالي
لو بسقراط بعض مابي وجالي نوس ماتا منه بأسوأ حال
وسألت جعفر الخياط عن مثل ذلك فقال : لقيناهم في مثل سوق الخلقان
فما كان إلا بقدر ما يخيط الرجل درزاً ، حتى تركناهم في أضيق من جربان ، فلو
طرحت إبرة لما وقعت إلا على درز رجل . وكان قد قال في الغزل :

فتقت بالهجران درز الهوى ببرة من إبر الصد
فألقاب من ضيق سراويله يعثر بي في تسكة الجد
حسدني يا طيلسان الهوى منه على سوء شقا جدى
أزرار عيني فيك موصولة بعروة الدمع على خدى
يا دستبان القلب يا زيقه عذيني الدر كنز^(١) بالوعد
قد قص ما أعرف من وصله مقراض بين مرهف الحد
يا حجرة النفس ويا ذيلها مالى من وصالك من بد
ويا جربان سروى ويا جيب غرامى حلت عن عهدى
وسألت اسحاق بن ابراهيم عن ذلك - وكان زارعاً . فقال : لقيناهم في مثل
جريب من الارض ، فما كان إلا بقدر ما يسقى الرجل مشارة حتى قتلناهم عن
آخرهم ، فلو طرحت منجلاً لما سقط إلا على رأس رجل ، فصاروا مثل أكوام
التبن إذا خرج عن الحب . وكان قد قال في الغزل :

زرعت هواه في جريب مثاث وأسقيته ماء الدوام على العهد
فلما تعالى النبت واخضر يانعا وأفرك حب الحب في سنبل الود

(١) في الاصل : عذبنى (كذا) الدر كنز بالوعد

أنته أكف الهجر فيها مناجل فأسرعن فيه حين أدرك بالحصد
فياشؤم مالى إذ يعطل للشقا وياويح ثورى صار معلقه كبدى
وسألت فرجا الرخجى عن مثل ذلك - وكان خبازاً - فقال : لقيناهم فى مثل
مقدار جفنة ، فما كان إلا بقدر ما يعجن الرجل قفيزاً أو يخبز أرغفة ، حتى
صيرناهم فى أضيق من جحر التنور ، فلو طرحت جردقا لما وقع إلا فى خوان الخبز
على كثرة القتلى ، وقد كان أنشد فى الغزل :

قد عجن الهجر دقيق الهوى فى جفنة من خشب الصد
فاختمر البين فنار الهوى تزجى بشوك الهجر من بعدى
وأقبل الصد بهجرانه يفحص عن أرغفة الوجد
جرادقا للوعد مسمومة مثرودة فى قصعة الجهد
وسألت عبد الله بن عبد الصمد عن مثل ذلك - وكان مؤدبا - . فقال :
لقيناهم فى مقدار كنف فما كان إلا بمقدار ما يقرأ الصبى أمانة ، حتى تركناهم
فى أضيق من فم الرقم ، فلو طرحت دواة لما سقطت إلا على جحر قتيل . وقد
كان قال فى الغزل :

قد أمات الهجران صبيان قلى فقوآدى موته ذو خبال
كسر البين لوح وصلى فما أط مع ممن هويته فى وصال
وقع الرقم عن دواتى فمذ أطلق مولاي حبله من حبالى
مشق الحب من قوآدى لوح ين فأغرى جوانحى بالسلال
لاق كبدى دواته فداد الـ مين مذ صد مالكى ذواهمالى
وسألت الجهم بن بدر عن مثل ذلك - وكان صاحب حمام - . فقال :
لقيناهم فى مثل بيت الابتذار^(١) ، فقاتلناهم بقدر ما تخلف^(٢) النورة ، ثم ألقناهم إلى أضيق
من الأذن ، فهزمناهم بقدر ما يغسل الرجل وجهه ، فلو طرحت ليفة لما وقعت

(١) كذا ولعلها الابتذال (٢) كتب الشيخ جفى بالهامش : لعلها تحلق

إلا على ظهر رجل . وقد كان قال في الغزل :

يا نورة الهجر علفت الصفا بما بدا من ليفة الصد
يا مبذر الأسقام حتى متى تنقع في حوض من الجهد
أثقل ذيول الوصل لى مرة منك بزنبيل من الود
فالبين مذ أوقد حمامه هيج قلبي مشلح الوجد
أفسد خطمى الهوى والصفا بحاله الناقض للعهد

وسألت الحسن بن أبي قماش - وكان أبوه كناساً - . فقال : لقيناهم بقدر
ما يكنس الرجل زنبيلًا ، حتى تركناهم في أضيق من جحر المخرج ، فلورميت بنت
وردانة لما وقعت إلا على ظهر قتيل . وكان قد قال في الغزل :

أصبح قلبي للهوى مخرجا تسلح فيه فقحة الهجر
خافس الهجران أشكلنى نومي فولّى معرضاً صبرى
وبنت وردان الهوى تيمت ععلى فما أعقل ما أمرى

وسألت أحمد الشرابي . فقال : لقيناهم في مقدار بيت شراب ، فلم يكن إلا
بمقدار ما يبذل الرجل دنًا ، حتى تركناهم في أضيق من رطلية ، ثم سألت دماؤهم
كالدرداى ، فلو طرحت كأساً لما وقع إلا في كف رجل . وكان قد قال في الغزل :
شربت بكأس اللهو من راحة الهوى ورقرت خمر الوصل في قدح البين
فسألت دنان الحب يدفقها الصبا وكرت قرابات دمعى على عيني
وسألت عبد الله الطاهرى - وكان طباحاً - . فقال : لقيناهم في مقدار مطبخ
أمير المؤمنين ، فما كان إلا بمقدار ما يشوى الرجل حملاً أو جدياً أو يفرغ من طبخ
ثلاثة ألوان أو يعقد فالودجة ، حتى تركناهم في أضيق من أثافي القدر ، فلو طرحت
ملقعة لما وقعت إلا على بطن قتيل . وكان قد قال في الغزل :

شبيهه الفالودج في حمرة الخد ولوزينج النفوس الظماء
أنت جوزينج الفؤاد وفي اليد - ن كلين الخبيصة الصفراء

أنت مستهتر بسكاج ود بعد جوزابة بجنب شواء
يا قتار القدور فى يوم عرس وشبها بشهدة بيضاء
أنت أشهى إلى الفؤاد من الزبيب مد مع البرسيان وقت الغذاء
أطعم الحاسدين ألوان غمم فى قصاع الأحزان والضراء
قد غلا القلب مذخلت منك دارى غليان القدور بعد الصلاء
هام لما كسرت فيك غضارا ت سرورى مفارق الشحنةاء
إن اسفيداج وجهك يشفى من رقيق الأحزان أى شفاء
فتفضل على العميد بما ، ورد يكبت قلوب العدااء

وسألت داود الفراش عن مثل ذلك . قال : لقيناهم فى مثل ترييع الفسطاط ،
فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل بيتاً أو بيتين ، حتى تركناهم فى أضيق من
صاير بات ، ثم قتلناهم فلو رأيت نجار التراب عليهم وقد سالت دماؤهم فى حمرة
الأرمى . وكان قد أنشدنى فى الغزل :

كنس المهجر ساحة الوصل لما عثر البين فى وجوه صفائى
فلقد بث فى فراش همومى تحت خدى وسائد لضنائى
حين هيات بيت حسن من الوصل ل لأثوابه ستور إخاء
فرش المهجر لى بيوت مسوح . متكأها مطارح الحصباء
رق للصب من بواعث وجد قد تحالسنه صباح مساء

يا أمير المؤمنين : إنما ينطق اللسان بما يتصور الجنان ، ويظهر فى الكلام
ما يخطر على الأوهام ، فمن لم يعرف إلا شيئاً واحداً لم يتكلم إلا عليه ، ومن كثر
علمه كثرت خواطره ، واتسعت مذاهبه ، ورب هزل أنفع من جد ؛ إذا أصيب
به موضع الحاجة إليه ، ووضع بحيث تقع همم النفوس عليه ، والسلام ^(١) .

والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديراً على الشعر

(١) فى هذه الرسالة الألفاظ الكثيرة المعربة والعامية تركتها كالأصل لعدم
وقوفى عليها

سراً قاله / روى أبو مسلم الكشي قال حدثني إبراهيم بن رباح قال مدخني حماد بن
ابان اللاحقي بشعر فيه هذان البيتان :

بدا حين أئري باخوانه فقلل فيهم شباة العدم
وذكره العزم غيب الأمور فبادر قبل انتقال النعم

فروى هذا الشعر وعرف بالبصرة ، ثم جاءني الجاحظ فمدخني بشعر أدخل فيه
هذين البيتين فاحتملت ذلك وأثبتته ، فبينما أنا جالس يوماً في مجلس أحمد بن أبي
دواد والجاحظ في مجلسه ، إذ قال لي أحمد : ما وصفت بشيء أحسن مما مدخني به
أبو عثمان وأنشدني البيتين . فقلت : إن مادحك — أعزك الله — يجد فيك مقالا ،
والجاحظ ملأ عينيه مني ولا يستحي مني

وله في رسالة إلى أبي الفرج محمد بن نجاح قصيدة مستحسنة أولها :

أقام يدا والخفض راضٍ بحظه وذو الحظ يسرى حيث لأحد يسرى
يظن الرضا بالقوت شيئا مهوتا ودون الرضا كأس أمر من الصبر
وقد طعن أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني بديع الزمان على بلاغة الجاحظ .
فقال : هو في أحد شقي البلاغة يقف ، وفي الآخر يقتطف ، والبليغ من لم يقصد
نظمه بنثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، أفترى للجاحظ شعرا رائعا ؟ قالوا لا . قال :
فهلوا الى نثره تجوده قريب الاشارات ، بعيد العبارات ، قليل الاستعارات ،
ينقاد لعبريات الكلام ، يستعمله بنقد من بديعه يهمله

وليس هذا موضع الكلام على بلاغته ، وإلا فكنت أنبه على معائب كلامه
ومقابحه ، ومحاسن خطابه وممادحه .

وهذه أوصاف بليغة في البلاغات ، على السنة قوم من أهل الصناعات ^(١) .
اجتمع قوم من أهل البلاغات فوصفوا بلاغاتهم من طريق صناعاتهم . فقال
الجمهوري : أحسن الكلام نظاما مائتبه يد الفكرة ، ونظمته الفطنة ، ونضد جوهر

(١) هذه القطعة أوردها المؤلف في كتابه زهر الآداب باختلاف في بعض الالفاظ
وما تجده بين المربعين زيادة عنه .

معانيه في سموط الفاظه ، فاحتملته محور الرواة . وقال العطار : اطيب الكلام ما عجن
 عنبر الفاظه بمسك معانيه ففاح نسيم نشقه ، وسطعت رائحة عقبه ، فتعلقت به الرواة ،
 وتعطرت به السراة . وقال الصائغ : خير الكلام ما أحمته بكور الفكرة ،
 وسبكته بمشاعل النظر ، وحططته من خبث الاطناب ، فبرز بروز الأبريز في معنى
 وجيز . وقال الصيرفي : خير الكلام ما نقدته يد البصيرة ، واجتلتته عين الروية ،
 ووزنته بمعيار الفصاحة ، فلا نظر يزيفه ، ولا سماع يهرجه . وقال الحداد : خير
 الكلام ما نصبت عليه منفحة الروية ، وأشعلت فيه نار البصيرة ، ثم أخرجته من
 لحم الانعام ، ورققته بغطيس الافهام . وقال النجار : خير الكلام ما أحكمت نجر
 معناه بقدوم التقدير ، ونشرته بمنشار التدبير ، فصار بابا لبنت البيان ، وعارضة
 لسقف اللسان . وقال النجاد : أحسن الكلام ما لطفت رفارف الفاظه ، وحسنت
 مطارح معانيه ، فتزهت في زراعي محاسنه عيون الناظرين ، واصاغت لتمازق بهجته
 آذان السامعين . وقال الماتح : أبين الكلام ما علقت وزم^(١) الفاظه بكرب معانيه ،
 ثم ارسلته بقلب الفطن فامتحت به سقاء يكشف الشبهات ، واستنبطت به معنى
 يروى من ظم^(٢) [المشكلات] . وقال الحياط : البلاغة قميص فجر بانه البيان ،
 وجيبه العرفة ، وكلمه الوجازة ، ودخارصه الأفهام ، ودروزه الجلاوة ، ولا بسه
 جسد اللفظ ، وروحه المعنى . وقال الصباغ : أحسن الكلام ما لم تنصل بهجة
 ايجازه ، ولم تكشف صبغة إعجازه ، وقد صقلته يد الروية من كمود الاشكال ،
 فراع كواعب الآداب ، وألف عذارى الألباب . وقال البزاز^(٣) : [أحسن الكلام
 ما صدق رقم الفاظه ، وحسن نشر معانيه ، فلم يستعجم عنك نشر ، ولم يستبهم
 عليك طي] . وقال الحائك : أحسن الكلام ما اتصلت لحمة الفاظه بسدى
 معانيه ، فخرج مقوفا منيرا ، [وموشى] محبرا . وقال الرائض : خير الكلام
 ما لم يخرج عن حد التخليع الى منزلة التقريب إلا بعد الرياضة ، وكان كلمه

١ : بين آذان الدلو والعرق . والكرب : الحبل يشد في وسط
 مراق ليلى الماء . (٢) في الاصل : من الظم . (٣) في الاصل : القزاز

الذى أطمع أول رياضته ، فى تمام ثقافته . وقال الجال : البليغ من أخذ بخطام كلامه فأناخه فى مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عقلا ، والايجاز له مجالا ، لم يندعن الأذهان ، ولم يشذ عن الآذان . وقال الخنث : خير الكلام ما تسكست أطرافه ، وتشتت أعطافه ، وكان لفظه حلة ، ومعناه حلية . وقال الحمار : أبلغ الكلام ما طبخته مراجل العلم ، وصفاه راووق الفهم ، وضمته دنان الحكمة ، فتمشت فى المفاصل عذوبته ، وفى الأفكار رفته ، وفى العقول حدته . وقال الفقاعى : خير الكلام ما روحت إلفاظه غباوة الشك ، ورفعت رفته فظاظة الجهل ، فطاب جشا قطعه ، وعذب مص جرحه . وقال الطيب : خير الكلام ما إذا باشر به نه سقم الشبهة استطلقت طبيعة الغباوة فشقى من سوء التفهم ، واورث صحة التوهم . وأقال الكحال : كما أن الرمد قذى الابصار ، فالشبهة قذى البصائر ، فأكحل عين اللكنة بميل البلاغة ، واجل رمص الغفلة بمرود اليقظة . ثم قالوا اجمعون^(١) : إن الكلام لفى القواد وإنما جعل اللسان على القواد دليلا وهذا المعنى كثير وإنما أخذ من كل فن السير .

وقال رجل لغلامه : التمس لى داراً لا تكون بجوار مسجد فانى أحب الأفراح ، فاكترى له دارا بين مسجدين . فقال له : ما هذا ؟ ! قال : يا مولاي لا تدرى المعنى اهل هذا للمسجد يظنونك فى هذا ، وأهل ذا يظنونك فى ذا وأنت قد ظفرت بما تحب . وقال ابو الجهم احمد بن بدر للمتوكل وذكر نجاح بن سلمة أو غيره :

امام الهدى وابن الدعاة الى الهدى ومنهج خير العالمين محمد
أعنى على والى يجور تعبدا على عسوف الظلم غير مؤيد
ومالى ذنب عنده غير أنى عليم بما يختاره لليوم والغد
ولا خير للطار^(٢) فى قرب نائب ولا للمريب الفعل فى قرب مسجد

- (١) فى الأصل : بياض وهذا البيت بالهامش . وفى زهر الآداب ثم قال أجمعوا كلهم على أن أبلغ الكلام ما إذا أشرقت شمسه انكشف لبعسه . وإذا صدقت أنوامه اخضرت احماؤه .
(٢) الطرار : الذى يقطع النفقات ويأخذها على غفلة : حكاه فى المصباح .

صحب الغاضرى رجلا من قريش من مكة إلى المدينة فقال القرشى : يا غلام
أطعمنا دجاجة ، فأتى بها باردة ، فقال : ويحك أسخنها . ورفع غداؤهم ولم يؤت
بالدجاجة ، فلما كان العشاء قال : يا غلام عشنا فلما أتاهم العشاء قال : هات تلك
الدجاجة فأتى بها باردة ، فقال : أسخنها . فقال الغاضرى : اخبرونى عن
دجاجتكم هذه أمن آل فرعون ؟ هى فانى أراها تعرض على النار غدوة وعشيا .
فقال : ويحك يا غاضرى أكتمها علىّ ولك منى مائة دينار ؟ فقال : والله
ما كنت لأبيعها بشئ . أخذته الحمدونى فقال فى طيلسان ابن حرب :

يا ابن حرب أطلت ظلمى برفوى طيلساناً قد كنت عنه غنيا
هو فى الرفو آل فرعون فى العر ض على النار بكرة وعشيا
زرت فيه معاشرأ فازدرونى فتغنيت إذ رأونى زريا
جئت فى زى سائل كى أراكم وعلى الباب قد وقفت مليا
وكان احمد بن حرب المهلبى من المحسنين إليه ، المنعمين عليه ، وله فيه
مدائح كثيرة فوهبه طيلسانا أخضر فوجد فيه فزراً ولم يرضه [قال أبو العباس المبرد ^(١)]
فأنشدنا فيه عشر مقطعات ضمن أواخرها أبيات أغانٍ ملاحاً فاستحلينا مذهبه
فيها فجعلها خمسين شعراً فطارت كل مطير ، وسارت كل مسير ، حتى قال :

طيلسان لابن حرب ذو أيادٍ ليس تحصى
أنا فيه أشعر الناس إذا ما الشعر نصا
وأرأى صرت أدنى بعد ما قد كنت أقصى
وأتقانى الناس وازدا دوا على شعرى حرصا
ولكم قد حاز لى أردية تترى وقصا
كان دهرأ طيلسانا ثم قد أصبح شصا ^(٢)

(١) ما بين المربعين عن زهر الآداب وقد تعرض فيه لمقطعات الحمدونى وأتى منها
بما أغفل ذكره هنا لما أتى هنا بما أغفله هناك
(٢) الشخص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك .

وقال ابن الرومي في هجائه عمر الكاتب الملقب بنخرطوم ، وكان من خاصة القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير :

أغلت حانوتي لطلو ل كساده وفتحت عمرًا
يا طيلسان الحمدوني شفعت في وكننت وترا
عمرًا أخوك جعلته لي مكسبًا فأفدت وفرا
لاتبعدا من صاحب--ين لقيما ضعة وفقرا

قال ابن أبي عون : مر الحمدوني بأبن حرب وهو جالس على باب داره وعلى كتفه وسادة . قال : لأي شيء هذه يا حمدوني ؟ قال ارفع بها طيلسانك . قال :
ما تزال تهجوننا منشورا وموزونا !!
ومن طريف شعره فيه قوله :

يا طيلسان ابن حرب قد هممت بأن تودي بجسمي كما أودى بك الزمن
ما فيك من حيلة تغني ولا تمن قد أوهنت حيلتي أركانك الوهن
فلو تراني لدى الرقاء مرتبطا كأنتي في يديه الدهر مرتين
أقول حين رأي الناس ألزمه كأنما لي في حانوته وطن
من كان يسأل عنا اين منزلنا ؟ فالأقحوانة منا منزل قمن

البيت للمحرب بن خالد الخزومي . وقال :

قل لابن حرب طيلسا نك قوم نوح منه أحدث
أفنى القرون ولم يزل عمن مضى من قبل يحدث
فاذا العيون لحظنه فكأنه باللعظ يحدث
يودي إذا لم أرفه وإذا رفوت فليس يلبث
كالكلب إن تحمل عليه الدهر أو تتركه يلهث

وقال :

وهبت لنا ابن حرب طيلسانا يزيد المرء في الضعة آتضاعا

يسلم صاحبي فيقد شبرا له وأقد في ردى ذراعا
أجبل الطرف في طرفيه طولا وعرضا ما أرى إلا رقاعا
فلمست أشك أن قد كان قدما لنوح في سفينته شراعا
فقد غنيت إذ أبصرت منه جوانبه على بدني تداعي
فني قبل التفرق يا ضباعا ولايك موقف منك الوداعا

البيت للقطامي عمير بن شميم التلعلي . وقال فيه :

قل لابن حرب طيلسانك قد أوهى قواى بكثرة القدم
متبين فيه لمبصره آثار رفو أوائل الأمم
فكأنه الحر التي وصفت في ياشقيق النفس من حكم
فاذا رمناه فليل لنا قد صح قال له البلا انهدم
مثل السقيم برى فعاوده نكس فأسلمه الى سقم
أنشدت حين طغى فأعجزنى ومن العناء رياضة الهرم

والحرة التي وصفت فيما ذكر لأبي نواس :

ياشقيق النفس من حكم نمت عن ليلي ولم أنم
ما سقى الحر التي اعتجرت بخمار الشيب في الرحم
ثم انصاب الشباب لها بعد أن جازت مدى الهرم
فهي لليوم الذي بذلت وهي تلو الدهر في القدم
عتقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفم
لاحتبت في القوم مائلة ثم قصت قصة الأمم
فرعتها للمزاج يد خلقت للكأس والقلم
في ندامى سادة نجب أخذوا اللذات من أمم
فتمشت في مفاصلهم كتمشى البرء في السقم
صنعت في البيت إذ مرجت كصنيع الصبح في الظلم

فاهتدى سارى الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم^(١)
 وزعم ابن قتيبة أن هذا الشعر لوالبة بن الحباب وإنما يخاطب به أبا نواس الحكمي
 وقال غيره : بل الشعر لأبي نواس وإنما أغار على والبة في قوله :
 يا شقيق النفس من أسد لم تم عيني ولم تك
 وقال الحمدوني :

طيلسان لابن حرب جاءني قد قضى التزيق منه وطره
 أنا من خوفي عليه أبدا سامري ليس يالو حذره
 يا ابن حرب خذه أو فابث بما يشتري عجلا بصفر عشره
 فلعل الله يحيه لنا إن ضربناه ببعض البقره
 فهو قد أدرك نوحا فعسى عنده من علم نوح خبره
 أبدا يقرأ من أبصره أنذا كنا عظاما نخره

وكان يقول : أنا ابن قولي ، يريد النسب إليه كما انتسب لأبي . وقال :

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا مل من حبة الزمان وصدأ
 فحسبنا نسج العناكب إذ قيس إلى ضعف طيلسانك سدا
 إن تنسجت فيه ينجر جرا أو تبسجت منه ينقدأ قدا
 طال ترداده إلى الرفو حتى لو بعشاه وحده لتهدى

وكان أبو تمام يقول : أنا ابن قولي :

نقل فؤادك أين شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
 كم منزل في الأرض يألوه الفتى وحينه أبدا لأول منزل

وقال الحمدوني في الطيلسان :

ولى طيلسان إن تأملت شخصه تيقنت أن الدهر يفنى وينقرض
 تصدع حتى قد أمنت انصداعه وأظهرت الأيام من عمره الغرض
 فلو أن أصحاب الكلام رأونه لما روك فيه وادعوا أنه العرض

(١) في نسخة ديوانه : اختلاف في كثير من ألفاظ هذه القصيدة

وقال :

يا ابن حرب كسوتنى طيلسانا أمرضته الأوجاع فهو سقيم
فاذا ما لمسته قلت سبحا نك تحي العظام وهى رميم
طيلسان له إذا هبت الريح ح عليه بمنكبى هنيم
لو يدب الحولى من ولد الذ ر عليه لأندبته الكلام

وقال :

ان ابن حرب كسأى ثوبا نظير أنحرافه
أظل أدفع عنه وأتقى كل آفه
فقد تعلمت من خش يتى عليه الثقافه

وقف أبو العيناء على باب صاعد بن مخلد ف قيل له : إنه يصلى فانصرف ثم عاوده ،
ف قيل له : إنه يصلى . فقال : لكل جديد لذة . وكان صاعد نصرانيا ثم ارتقت به
الحال إلى أن توزر للموفق بن احمد بن المتوكل وكان أخوه المعتمد الخليفة ولم يكن
له مع الموفق أمر ولا نهى ، وقد قال المعتمد لما ملك عليه أخوه الأمر أو قيل
على لسانه :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شيء فى يديه
ولما أجاب الصولى أبا القاسم بن عبد الله ملك المغرب اقتضى ذكر ولد
العباس والخلفاء خليفة خليفة حتى انتهى إلى المعتمد فقال :

ومعتمد من بعدهم وموفق به رد من إرث الخلافة ما ذهب
منازلهم^(١) فى كل فضل وسودد وإن لم يكن فى العد منهم لمن حسب
ولما احتاج الصولى إلى ذكر الموفق لشهامته وحزامته وكأن القصيدة إنما أجاب
بها عن المقتدر بن جعفر بن المعتضد بن الموفق فلو لم يذكره لاقطع عليه ما أراد ،

(١) فى الأصل منى أزلهم لعله تحريف

وكان المعتمد مضطرباً ، وكان أمره قبل تمكن الموفق في يد وصيف حتى قال
بإذنبانة الكاتب :

يا دولة باثرة كاسفة ما تبتغى خليفة مستضعف
بين وصيف وبما يقول ما قالاه كما تقول البعغا

ودخل أبو خالد يزيد المهلبى على المعتمد مرات فأنشده قصائد على الدال .
فقال : يا يزيد ما أراك تعدو الدال ؟ فقال : وكيف أعزك الله يا أمير المؤمنين واسمى
يزيد ، وأبى محمد ، وأكنى بأبى خالد ، وأنت المعتمد ، وتسمى بأحمد ، ومن
صفاتك السيد والماجد والجواد ، فأين أدع الدال . وهذا كقول أبى صدقة المدنى
وقد قيل له ما أشد إلحافك ؟ فقال : تلوموننى على ذلك وأنا اسمى مسكين ، وكنتى
أبو صدقة ، واسم أبى صدقة ، واسم امرأتى فاقة . ووقف أبو العيناء على باب
ابراهيم بن رباح فليل هو مشغول . فقال : إذا شغل بكأس يميناه ، وبحر يسراه ،
وانتسب إلى أب لا يعرف أباه ، لم يحفل بحجاب من أتاه . ودخل أبو العيناء على
المتوكل . فقال : أى شئ تحسن ؟ قال أفهم وأفهم وأخذ من المجلس ماحوى ، فمرة
أغلب ومرة أغلب . قال كيف شربك للنبذ ؟ قال أعجز عن قليله وأفتضح
عند كثيره . قال : فما تقول فى بلدك البصرة ؟ قال : ماؤها أجاج ، وحرها عذاب ،
وتطيب فى الوقت الذى تطيب فيه جهنم . قال : ارفع حوائجك إلينا . قال قد رفعتها
إلى الله فما أحب نجاحه فليس ينفعنى شرحه ، قال نحب أن تلزم مجلسنا . قال :
يا أمير المؤمنين إن أجهل الناس من يجهل نفسه ؛ أنا امرؤ محبوب وأجوب تختلف
إشارته وقد يجوز قصده ، فيصنى إلى غير من يحدثه ، ويقبل بحديثه على غير من
يسمع منه ، وجائز أن يتكلم بكلام غير راض ومتى لم أفرق بين هذين هلكت ،
وأخرى : كل من فى مجلسك يخدمك وأنا أحتاج أن أخدم ، ولم أقل هذا جهلاً
منى بما فى هذا المجلس من الفائدة ولكنى اخترت العافية على التعرض للبلاء . قال

الفتح بن خاقان : يا أمير المؤمنين هذا رجل عاقل عارف بنفسه و بحق الملوك . قال :
فليزمننا في كل الأوقات لزوم الغرض الواجب . وبلغ أبا العيناء أن المتوكل قال :
لولا أن أبا العيناء ضرير لنادمناه . فقال : إن أعفاني أمير المؤمنين من رؤية الأهله
وقراءة الفصوص فأنا أصلح للمنادمة . وإنا هذا تولع منه بلسانه ؛ واقتدار على
الكلام ، وإلا فقد تعافى من ذلك المقام . ودخل على ابراهيم بن المدبر وعنده
الفضل اليزيدي معلم ولده و ابراهيم حارس . فقال للمعلم : في أى باب هذا ؟ قال في
باب الفاعل والمفعول به . فقال : هذا بابى و باب الوالدة أعزها الله . فغضب اليزيدي
ونهب . أخذه البحتري فقال لابراهيم بن المدبر :

أى شىء أهلك عن سر من را ء وظلّ للعيش فيها ظليل
إقتصاراً على أحاديث فضل وهو مستكره كثير الفضول
لم تكن نهزة الوضع ولا رو حك كانت إلفقاً لروح الثقل
فعلام اصطفت منكسف البال معار الحذاق ^(١) نزر القبول
إن ترده تجده أخلق من شيب القوافي ومن تعنى الطلول
مسرجا ملجما وما متع الصبح إدلاجاً للجس والتطفيل
غير أن المعلمين على حال قليلي التمييز ضمّنى العقول
فاذا ما تذكر الناس معنى من ميين الأشعار أو مجهول
قال هذا لنا ونحن كشفنا غيبه للسؤال والمستول

(١) كذا في الأصل وفي ديوانه طبع بيروت :

فعلام اصطفت منكشف الزيف معاد المخراق نزر القبول
إن تزره تجده أخلق من شيب القوافي ومن تعنى الطلول
رائح معتد وما متع الصبح إدلاجاً للشحد والتطفيل
ثم أوردت أبيات لم يذكرها الحصري كما أن الآيات الأربعة التي هنا لم يذكرها
جامع الديوان وختم القصيدة بقوله :

چل ما عنده التعمق فى الفاعل من والديه والمفعول

ضرب الأصمى فيهم الأحمر أم التحقوا بابن الخليل
أبدا شأنه التردد في الفاعل على من والديه والمفعول

قال الصولي : كان بالبصرة رجل مهلبى ظريف ملاق وكان له إخوان فقالوا له :
ألا تدعونا ؟ فقال لهم ألا تدعونني ؟ فألحوا عليه فارتبهن قطيفة له على دراهم فاشترى
لهم ما يصلحهم ودعا مغنية فكان اقتراحهم عليها :

ليت الذين يحملوا أحنوا أمّا أنا فأضربني الحزن
فقال المهلبى : أما هذا الذى تقولونه فما أدرى ما هو ؟ ولكن : أما أنا
فقطيقتى رهن ، فضحكوا وغرموا له ما أنفق . ودعا رجل قوما فلما كان مع المغرب
أراد انصرافهم وأرادوا المقام عنده ، فاقترضوه فى السراج . فقال لهم : أما سمعتم
قول الله تعالى (وإذا أظلم عليهم قاموا) / وإدعى رجل النبوة فى أيام المأمون
فأحضره المأمون وقال له : ما دأيل نبوتك ؟ قال : أن أعلم ما انعقد عليه ضميرك ،
فقال ما هو ؟ قال فى نفسك أصلحك الله إني كاذب ، فضحك منه وتركه / وأتى
المعتصم برجل ادعى النبوة . فقال ما آيتك ؟ قال آية موسى ، قال : فالى عصاك
تكن مباناً مبنياً ؟ قال حتى تقول أنا ربكم الأعلى . وأدعى آخر النبوة بالكوفة
فأدخل على واليها فقال : ما صنعتك ؟ قال حائك ، قال : نبى حائك ؟ ! قال فأردت
نبياً صيرفياً ؟ الله يعلم حيث يجعل رسالته . وسأل رجل بعض الفقهاء عن القبلة للصائم
فى رمضان ؟ فقال : تكره للشاب ويرخص فيها للشيخ ، قال : إنها فى معشوقة ؟
قال يا ابن أخى هذا يكره فى شوال . قيل لمغفل : قد غلا الدقيق . فقال : وما أبالى
إنى اشتري الخبز من السوق / قال حيان بن غضبان العجلي - وقد ورث نصف
دار أبيه - : أريد أن أبيع نصف حصتى من الدار وأشتري الباقي فتصير الدار
كلها لى . وشكا أهل بلدة إلى المأمون والياً عليهم . فقال : كذبتهم عليه
قد صح عندي عدله فيكم وإحسانه اليكم . فقال شيخ منهم : يا أمير المؤمنين
فما هذه الحجة لنا دون سائر رعيتك ، قد عدل فينا خمس سنين فانقله إلى غيرنا

حتى يشمل عدله الجميع وترى معنا الكل، فضحك منهم وصرفه عنهم قال دعبل:
ما غلبني إلا مخنث قلت له والله لا هجوتك . قال: والله لن هجوتني لاخرجن أمك
في الخيال . ورؤى بعض المرائين على باب بعض الملوك، وبين عينيه سجادة عظيمة ،
فقال له : مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت محتاج إلى أبواب الملوك فقال : إنه ضرب
على غير السكة . وعمل بعض المرائين بين عينيه سجادة دلصها بنواة وثوم وعصب
الثوم بين عينيه ونام ، فتحركت العصاة فصارت في ناحية صدغه سجادة كبيرة .
فقال له أبنه : ما هذا يا أبت ؟ فقال : أصبح أبوك ممن يعبد الله على حرف .

ومن ملح ما في هذا قول أبي نواس وقد نهاه الأمين عن الحر :

عينُ الخليفة بي موكلة عَقَدَ الخِذار بطرفها طرفي
صحَّتْ علانيتي له وأرى دين الضمير له على حرف
ولئن وعدتك تركها عدةً إني عليك لخائفٌ خُلْفى

وقال ابن المعتز :

يا أيها الجاني ويستخفي ليس تجنبك من الظرف
إنك والشوق إلينا كمن يؤمن بالله على حرف
محوت آثارك عن ودِّنا غير آثارك في الصحف
فان تحاملت لنا زورة يوماً تحاملت على ضعف

وأتى ابن عائشة إلى بعض الملوك فأنشده :

أعطف على فالكريم يعطف قد غلق الرهن وملّ المسلف

وارتهن الدف وبيع المصحف

فقال يا فاسق : أنرهن دفاوتبيع مصحفا . قال : اتكلت في المصحف أعزك الله تعالى

وأجلك . قال رجل لبهلول المجنون : قد أمر أمير المؤمنين لكل مجنون بدرهمين ، فقال له

بهلول : فهل اخذت نصيبك ثم وأودع بهلول بعض الأفنية بالكوفة عشرين درهما

ورجل خياط ينظر إليه من حيث لا يعلم به بهلول ، فلما انصرف أخذ الخياط

الدراهم فعاد بهلول يطلبها فلم يجدها فعلم أنه لم يوث إلا من الخياط . فمر به فقال :
يا فلان ؛ خذ بيدك عشرة دراهم وخذ ثلاثين وخذ كذا حتى بلغ المائة . قال :
وزدها عشرين كم يكون المال قال مائة وعشرين . قال اصبت ومضى . فقال الخياط
في نفسه : ما اخذته إلا يمضى بهذه الدراهم التي حسبها ليزيدها على العشرين فلا ردها
الى موضعها فاذا زاد عليها أخذت الجميع ففعل ، فكر بهلول الى الموضع فأخذ
الدراهم واحدا في موضعها ثم مضى ، فقام الرجل مسرعاً فلما أدخل يده امتلأت
حداً ولم يجد شيئاً فعارضه بهلول وقال : خذ في يدك كذا وكذا كم في يدك قال مائة
وعشرين . قال : ما في يدك إلا حدث ، فانتشر خبر الخياط وولع الصبيان فيه حتى
هرب من الكوفة

ولبهلول هذا حكم وكان يتشيع فقبل له يوماً : أيما أفضل أبو بكر أم علي رضي
الله عنهما ؟ فقال له : أما وأنا في كندة فعلى ، وأما وأنا في ضبة فأبو بكر ، وكندة
بالكوفة من غلاة الرافضة وبنو ضبة أهل سنة

ولما دخل الرشيد الكوفة خرج الناس للنظر إليه فناداه بهلول ثلاثاً . فقال :
من المجترى ، على في هذا الموضع ؟ قيل بهلول الجنون فرفع السجافة وقال بهلول ؟ فقال
ليبيك يا أمير المؤمنين روينا عن أيمن بن نائل قال حدثنا قدامة عن ابن عبد الله العامري
قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى جرة العقبة لا ضرب ولا طرد ولا
قيل بين يديه إليك إليك ؛ وتواضعك في سفرك هذا خير لك من تكبرك وتكبرك .
قال فبكى الرشيد حتى جرت دموعه على الأرض وقال : أحسنت يا بهلول زدنا
يرحمك الله . قال وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أيما رجل آتاه الله مالا
وجمالا وساطانا فأنفق في ماله وعف في جماله وعدل في سلطانه كتب في خالص
ديوان الله من الأبرار . قال : أحسنت يا بهلول وأمر له بمجازة سنوية فقال : يا أمير المؤمنين
ردها على من أخذتها منه فلا حاجة لي بها . فقال : يا بهلول إن كان عليك دين
قضيناه قال : يا أمير المؤمنين هؤلاء أهل الرأي بالكوفة أجمعوا على أن قضاء الدين

بالدين لا يجوز . قال : فنجري عليك ما يكفيك ؛ فرفع رأسه إلى السماء وقال :
يا أمير المؤمنين أنا وأنت في عيال الله ومحال أن يذكرك وينساني ؛ فارسل الرشيد
السجف وسار . وقيل إن بهلولاً كان يستعمل الجنون سترًا على نفسه .
/ وقال هارون الخزومي رأيت مجنونين يتنازعان رغيًا يقول أحدهما هذا أنت
تأكله ويقول الآخر بل أنت تأكله . قال : فقلت لهما — وأنا أظن أن أربح
عليهما — أنا آكله . فقالا : يا أحمق انه مع آدم فقلت وما آدمه قالا : وجىء الخلق
وصفع العنق فوليت عنهما فقالا : يا مجنون لولا بشاعة الأدم لكنا أكلناه منذ حين
وقيل لسعيد العامري — وكان من أصحاب النوبهارى — : لقد حظيت بكثرة
المال . قال : فاني بعثت مالي كله بحبة من عقل غفار الموسوس . قلت : وأى شيء
رأيت من عقله ؟ قال : رأيته يومًا وقد وقف عليه رجلان أحدهما سكران فجعل
السكران يفترى عليه وهو يفترى على الصاحي . فقلت له : لم لاتشم الذي يشتمك ؟ قال :
لأن معه شيطانًا لا أقوى عليه ، فالتفت إلى السكران وقال : يا ابن الفاعلة اتخرضه علي .
ورفع رجله من الأرض فشيعني بها موضحة ومر يعدو . فقال غفار من هذا قررت
ومرَّ عثمان بن حفص الثقفي بأبي نواس وقد خرج من علة وهو مصفر الوجه
وكان عثمان اقبح الناس وجهًا . فقال له عثمان : مالي أراك مصفرًا ؟ فقال أبو نواس :
رأيتك فذكرت ذنوبي قال وما ذكر ذنوبك عند رؤيتي ؟ فقال خفت أن يعاقبني
الله فيمسخني قردًا مثلك

ولما حبس الأمين أبا نواس دخل عليه خل الفضل بن الربيع وكان يتعهد
المحبوسين ويسأل عنهم وكانت فيه غفلة . فأتى أبا نواس وقال : ماجرمك حتى
حبست في حبس الزنادقة أرنديق أنت ؟ قال معاذ الله . قال أتعبد الكباش ؟
قال : ولكني آكله بصوفه . قال أفتعبد الشمس ؟ قال : والله ما أجلس فيها من
بعضها فكيف أعبدها . قال : أفتعبد الديك ؟ قال : لا والله بل آكله . ولقد
ذبحت ألف ديك لأن ديكًا قرني مرة فخلقت أن لا أجد ديكًا إلا ذبحته .
قال : فلأى شيء حبست ؟ قال لأني أشرب شراب أهل الجنة ، وأنام خلف

الناس . قال : وأنا أيضاً أفضل ذلك ، ثم خرج إلى الفضل فقال ماتحسون جوار الله تحبسون من لا ذنب له ، سألت رجلاً في الحبس عن خبره فقال كذا وكذا وعرفه بكل ماجرى بينه وبين أبي نواس ، فضحك ودخل على الأمين فأخبره الخبر فأمر بتخليته للحال .

وكان أبو نواس حبس في أيام الأمين مرتين ، إحداهما أنه بلغ الأمين قوله ^(١)

ومستعبد اخوانه بثرآته لبست له كبراً أبراً على الكبر
إذا ضمني يوماً وإياه مجلس رأى جانبي وعراً يزيد على الوعر
أخالفه في شكله وأجره على المنطق المنزور والنظر الشزر
فوالله لا ألقى لسانى بحاجة إلى أحد حتى أوسد في قبرى
وقد زادنى تيباً على الناس أننى أراى أغناهم وإن كنتُ ذا فقر
فلولم أنل فخراً لكانت صياتى فمى عن جميع الناس حسبي من فخر
فلا يطعمن فى ذاك منى طامع ولا صاحب التاج المحجب فى القصر

فقال : وبلغ بك الأمر إلى أن تعرض فى فى شعرك يا ابن الأخناء . فقال :

سليمان بن أبي جعفر هو والله يا أمير المؤمنين زنديقٌ وقد شهد عندى جماعة أنه شرب ماء مطر مع خمر فقبل له لم فعلت ذلك ؟ قال لا شرب الملائكة فانه كان مع كل قطرة ملكٌ ، فأمر بحبسه فقال :

يارب أن القوم قد ظلمونى وبلا اقتراف خطيئة حبسونى
والى الجحود بما عليه طويتى بالزور والبهتان قد نسبونى
أما الأمين فلست أرجو دفعه غنى فمن لى اليوم بالمأمون

فقال المأمون لما بلغه ذلك : والله لئن أدركته لأحسنن إليه ، فمات قبل

دخول المأمون بغداد . ولما دخل بها سنة أربع ومائتين وأتاه الشعراء يمدحونه .

قال : ما فعل أبو على الحسن بن هانى ؟ قالوا : توفى ، فلم يسمع منهم شعراً

(١) وردت فى باب العتاب من ديوانه مع اختلاف فى بعض الألفاظ والترتيب

وتوجع وقال : لقد ذهب ظرف الزمان بموته ، وتخطت رتبة الشعر بذهابه
 وكان أبو نواس في آخر أيام الأمين مستخفياً فلم يظهر حتى قتل لأنه كان
 أملح الناس وجهاً وكان أبو نواس إذا نظر إليه بقي باهتاً فقال فيه :
 عذب قلبي ولا أقول بمن اخاف من لا يخاف من أحد
 اذا تفكرت في هوى له مسست رأسي هل طار عن جسدي
 اني على ما ذكرت من فرقي لآمل أن أناله يدي
 وقال :

يا قاتل الرجل البري وسالماً عزَّ المليك
 كيف السبيل للثم سا لفتيك أو تقييل فيك
 الله يعلم أنني أهوى هواك واشتهيك
 واصلدُ عنك حذار أن تقع الظنون على فيك

فظهر الشعر فلم يزل أبو نواس مستخفياً . وجبسه الأمين قبل ذلك وذلك لأن
 المأمون لما خلعه بخراسان ووجه طاهر بن الحسين إليه ليحاربه كان يعمل بعيوب
 الأمين كُتُباً لتقرأ على المنابر بخراسان ، وكان مما عابه به أنه قال احتبس شاعراً
 ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هاني واستخلصه معه لشرب الخمر وارتكاب المآثم
 وانتهاك المحارم ، وهو القائل :

ألا فاستقي خمرأً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرأً إذا أمكن الجهر
 ويحُ باسم من أهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر
 قال أبو علي محمد بن المظفر الحاتمي : هذا معنى ظريف ، يقول إن الملاذ بالحواس
 الخمس وهي : النظر والسمع والشم والذوق واللمس . فقد استمعت حاسة البصر
 بالنظر إليها ، وحاسة الشم بتذوقها وطيب نكهتها ، وحاسة الذوق بطعمها ، وحاسة
 اللمس بلين اللمس ، وبقيت حاسة السمع معطلة . فقال : وقل لي هي الخمر - لتلتذ
 حاسة السمع فيكمل الاستمتاع .

ثم يذكر الأمين في خطبة العراق . فيقول : أهل فسق وخمور وفجور وماخور
 ويقوم رجل بين يديه فينشد أغاني أبي نواس كقوله :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات
فقام والليل يجلوه النهار كما يجلى التبسم عن غرّ الثنيات
ومن هنا أخذ ابن الرومى فجاء بأبداع عبارة وانصع استعارة وأصح تشبيهاً
وأملح تنبيهاً . فقال يصفُ سوداء :

يفتر ذاك السواد عن يققٍ من ثغرها كاللآلىء اليقق^(١)
كأنها والمزاح يضحكها ليلٌ تعرّى دجاء عن فلق
فاتصل بالأمين خبر المأمون فأغراه الفضل بن الربيع بأبى نواس فحبسه ٤
فكتب أبو نواس إلى الفضل من الحبس :

أنت يا ابن الربيع علمتني الخـ ير وعودتني والخير عاده
فارعوى باطنى وعاودنى حلـ مي وأحدثت رغبةً وزهاده
لو ترانى شبهتني الحسن البصـ رى فى حال نسكه أوقتاده
التسايح فى ذراعى والمصـ حف فى لبتى مكان القلاده
فاذا شئت أن ترى طرفة تهـ جب منها مليحة مستفاده
فادع بى لا عدمت تقويم مثلى فتأمل بعينك السجاده
ترى أبداً من الصلاة بوجهى توقن النفس أنها من عباده
لو رآها بعض المرائين يوماً لا شتراها يعدّها للشهادة
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتنى على يدك السعاده

فلما بلغ الشعر الفضل ضحك . وقال : من علم أن السجادة تصلح للشهادة بعد
وكلم فيه الأمين فتركه بعد أن أخذ عليه أن لا يشرب الخمر فقال :

ما من يدٍ فى الناس واحدة كيدى أبى العباس مولاها^(٢)
نام الثقة على مضاجعهم وسرى إلى نفسى فأحيّاها

(١) اليقق : شديد البياض

(٢) فى ديوانه : كيد أبو العباس أولاها .

قد كنتُ خِفْتُكَ ثُمَّ امْتَنَى
من أن أخافَكَ خَوْفَكَ اللهُ
فَغَفَوْتُ عَنِّي عَفْوًا مُقْتَدِرًا
وجبت له نَقْمًا فَأَلْفَاها^(١)

ومن قوله في ترك الشرب :

أَيُّهَا الرَّائِحَانِ بِاللَّوْمِ أَوْ مَا
لا آذُوقُ الْمَدَامَ إِلَّا شَمِيًا
نَالِي بِاللَّامِ فِيهَا إِمَامٌ
ما أَرَى فِي خِلَافِهِ مُسْتَقِيمًا
فَاصْرِفَاها إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي
لست إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا
قَمَدِي يَزِينُ التَّحْكِيمَا
كَلَّ عَنْ حَمَلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرْبِ
بِ فَأَوْصِي الْمَطِيقَ أَنْ لَا يُقِيمَا

— والتعد — فرقة من الخوارج يأمرون الناس بالخروج وهم لا يخرجون .
وزعم المبرد أنه لم يسبق إلى هذا المعنى . وقال في ذلك أيضا :

غَنِيًا بِالطَّلُولِ كَيْفَ بَنِينَا
واسقنا لفظك الثناء الثمين^(٢)
من سَلَفِ كَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ
يُتَمَنَّى بِخَيْرٍ أَنْ تَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرَ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا
وتبقى لُبَابُهَا الْمَكُونَا
فَإِذَا مَا اجْتَلَيْتِهَا فَهَبَاءٌ
يَمْنَعُ الْكَفَّ مَا تَبِيحُ الْعُيُونَا
ثُمَّ شَجَتْ فَاسْتَضْحَكَتْ عَنْ لَالٍ
لو تَجْمَعْنَ فِي يَدٍ لَا تَقْذِينَا
فِي كُؤُوسٍ كَأَنَّهُنَّ نَجْمٌ
دَائِرَاتِ بَرُوجِهَا أَيْدِينَا
طَالَعَاتُ مَعَ السُّقَاةِ عَلَيْنَا
فَإِذَا مَا غَرَبْنَ يَغْرِبْنَ فِينَا
لَوْ تَرَى الشَّرْبَ حَوْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ
قَلَّتْ قَوْمٌ مِنْ قَرَّةٍ يَصْطَلُونَا
وَعَزَالِ يَدِيرُهَا بَيْنَانِ
نَاعِمَاتِ يَزِيدُهَا الْمَرْجَ لِينَا
كَلَّمَا شَتَّ عَلَنِي بَرَضَابِ
يَتْرِكُ الْقَلْبَ لِلْسُرُورِ قَرِينَا

(١) في ديوانه : حلت له نَقْمًا فَأَكْفَاها .

(٢) في ديوانه : غَنَّا بِالطَّلُولِ كَيْفَ بَلِينَا . واسقنا نعطك الثناء الثمين . مع اختلاف
في بعض الالفاظ كقوله : بخير أن تكونا ، وخير أن يكونا . وقوله : قرينا بدله : خدينا

ذاك عيش لو دام لى غير أنى عفته مكرها وخفت الأمانة
وقال أيضاً :

أعاذل أعتبت الامام وأعتبا وأعربت عما فى الضمير وأعربا
وقلت لساقيا أجزها فلم يكن ليأبى أمير المؤمنين وأشربا^(١)
فجوزها عنى سلافا ترى لها إلى الأفق الأعلى شعاعاً مطمئناً
إذا عب منها شارب القوم خلته يقبل فى دج من الليل كوكبا
ترى حيثما كانت من البيت مشرقا ومالم تكن فيه من البيت مغربا
يدور بها رطب البنان ترى له على مستدار الاذن صدغا معقربا
سقام ومناى بعينه منية فكانت الى قلبى ألد وأطيبا
قال الحسن بن الضحاك أنشدت أبا نواس قولى :

وشا طرى اللسان مختلف الـ كـرة شاب الخجون بالنسك^(٢)
كأتما نصب كأسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك^(٣)
فلما بلغت فيه [نعر نكرة] منكرة . فقلت : مالك فقد رعنتى . فقال : هذا المعنى
انا أحق به ، ولكن سترى لمن يروى ثم أنشدنى بعد أيام :

إذا عب منها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا
فقلت هذه مصالاة يا أبا على . فقال : اتظن أنه يروى لك معنى مايج وأنا فى الحياة .
وقال فيه ابن الرومى فجاء بأحسن منهما :

ومفهف كمات ملاحته حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكؤس إلى مراشفه وتضج فى يده من الحبس

(١) فى الاصل : وقلت لساقيا ادرها فلم يكن . والتصحيح من ديوانه . وقوله :
يدور بها رطب البنان . الخ فى ديوانه :

يدير بها ساق اغن ترى له على مستدار الاذن صدغام معقربا
(٢) فى الاصل : بالنسل والنقل وكتب محمد حنفى المهدى على هامش النسخة :
الذى احفظه بالنسك وانجم الفلك . قلت وهو الصحيح

أبصرته والكأس بين فمٍ منه وبين أناملٍ خمس
وكانها وكأنَّ شاربها قريقبَل عارض الشمس
وانما اتبع أبو نواس في هذه الأشعار التي وَصفَ فيها ترك الشرب وطاعته
لأمر الأمين مذهب أبي معاذ بشار بن برد وذلك أنه لما قال :

لا يؤيسنك من مخبأة قول تغالظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يركب بعدما جمحا
فبلغ ذلك المهدي فغالظه . وقال : يحرض الناس على الفجور ويسهل لهم السبيل
اليه . فقال له خالد بن يزيد بن منصور الحميري : يا أمير المؤمنين قد افتتن النساء
بشعره وأى امرأة لا تصبو إلى مثل قوله :

عجبت فطمة من نعتي لها هل يجيد النعت مكفوف البصر
بنت عشر وثلاث قسّمت بين غصن وكثيب وقر
دُرّة بحريّة مكنونة ما زها التاجر من بين الدُرر
أذرت الدّمع وقالت ويلّي من ولوع الكفر كآب الخطر
أمّي باد هذا لعي ووشاحي حلّه قد أنتشر
فدعيني معه يا أمّي علّما في خلوة نقضى الوطر
أقبلت في خلوة تضربها واعتراها كجنون مستقر
بأبي والله ما أحسبه دمع عيني غسل الكحل قطر
أيها النّوامُ هبوا ويحكم وسلوني اليوم ما طعم السهر
فأمره المهدي أن لا يتغزل . فقال أشعاراً في ذلك منها ^(١) :

(١) وجدت في غير الاصل هذه القطعة وفيها :

لمعت الى تسومني لعب الشباب وقد طويته
وتقول إنك قد جفو ت وكنت لي شرخا حويته
مع اختلاف في بعض الالفاظ

يا منظرًا حسنًا رأيته
والله ربَّ محمدٍ
أعرضتُ عنك وربِّما
إنَّ الخليفةَ قد أبى
ويشوقني بيت الحبيب
ومُخَضَّبٍ رخص البنا
قامَ الخليفةُ دونه
ونَهَانِي الملكَ الهما
بل قد وفيت فلم أضعُ
وأنا المطلُّ على المدى

وقال :

والله لولا رضى الخليفة ما
قد عشت بين الندمان والرا
ثم نهانى المهدي فانصرفت

وقال :

أفريت عمرى وتقضى الشباب
قالآن شفعت أمام الهدى
لهوت حتى راغنى داعياً
لييك لييك هجرت الصبا
أبصرت رشدى وتركت الملى

وفي هذه الكامة يقول :

يا حامد الفعل ولم ييله
الفعل أولى ببناء الفتى
سبقت بالسيل سيل السحاب
ما جاءه من خطأ أو صواب

دع قول وأى وانتظر فعله
إذا غدا المهدي في جنده
بدا لك المعروف في وجهه
ومن شعره المطرب في العزل قوله :

أيها الساقيان ضباً شراي
إن رأيي الصدا وإن شفائي
عندها الصبر عن لقائي وعندي
ولها مبدى كثر الأفاحي
نزلت في السواد من حبة القفا
ثم قالت نلقاك بعد ليل
لم أبالي من ضنّ غنى بوصل
وقوله :

لو عاينوها لم يلوموا على البكا
فكيف تناسى من يكون حديثه
وقوله :

كانها حين لاحت في مجاسدها
حوراء جاءت من الفردوس تفتنه
من اللواتى غدت فرداً وشق لها
راحت ولم تعطه براً لقرحته
تغمة نفسه من طول صبوتها
ماشاهد القوم إلا ظل يذكرها
وقوله بشار — عجبت فطمة من نعتي لها — قد احتذاه محمد بن مناذر :

قد جدّ بي في اللعب ذو راحة من تعب

جسم من الفضة قد أشرب ماء الذهب
جارية صغيرة مشغولة باللعب
صاحت وقد روعتها بقبلة واحرّبي
أنت وربّي يا فتى تريد أن تصنع بي
إيّاك أن يدعوك عليك اليوم أمي وأبي
فلم أزل أختلها حتى علوت مركبي
وهي كغصن مالت الرّيح به مضطرب
تجود عيناها بجاري دمعها المنسكب
ومن مليح ما قيل في الصغار قول أبي نواس الحسن بن هانئ: (١)

حين أوفى على ثلاث وعشر لم يطل عهد اذنه بالشنوف
وبه غنة الصبا تعتيها بحجة الاحتلام للتشريف
حين رام أنسنا منه بعين وثني أختها من التخويف
وقال عبد الله بن الحسين الكاتب

جارية أذهلها اللعبُ عمّا يقول الهائم الصب
شكوت ما ألقاها من حبها فاقبلت تسأل ما الحب

وقال ابن المعتز:

الآن زاد على عشر بواحدة وزاد أخرى وشاب الحب بالخدع
وجاوب اللحظ منه لحظ عاشقه وجرر الوعد بين اليأس والطمع
وكان غراً بقتلى ليس يحسنه والآن بدّع في قتلى على البدع

وقال غيره:

إني بليت بطفلة هيفاء جائلة الوشاح

(١) لم أقف على هذه الايات في نسخة ديوانه

ومليحة يا ويلتي ماذا لقيت من الملاح

ما جاز عشرا سنّها بيضاء كالقمر اللياح

وقال اعرابي في جارية صغيرة وعدها أبوها أن يزوجها منه :

أعلقتني بعشقتها أبوها مليحة العينين عذب فوها

قليلة الأيام إن عدّوها لا تحسن السب إذا سبوها

وقال قيس بن الملوّح :

وعلّقت ليلى وهى غر صغيرة ولم يبد للأتراب من ثديها حجّمْ

صغيرين نرعى البهم ياليت أننا إلى الآن لم نكبر ولم تكبر البهم

مزيد المدني قالت له امرأته يوماً ليس شيء أربح من عمل النبيذ فعلته ، فأتاها برجل معه درهم واحد . فقالت له : لا أبيعك إلا جملة فأتى صاحب الشرطة فقال له إن امرأتى عندها نبيذ فوجّه الحرس وقال كونوا معه فإن كان في بيته نبيذ فأطرحوه وامرأته في الحبس ، وإن لم يكن فيه شيء فردوه إلى . فجاءوا فدخلوا منزله فوجدوا النبيذ . فقال لأمرأته : قد جئتكم بمن يأخذه جملة فكسروا جرار النبيذ وجلدوها جميعاً ومضوا بهما إلى الحبس ، فله احصلا فيه . قال لامرأته : وأز يدك فائدة عما نحن فيه لم تخطر ببالك . قالت : وما هي يا مشؤم ؟ قال : استرخنا من كرى البيت . وزُفّت إليه امرأة فاتته الماشطة وهى تجلى . فقالت : انحلهما شيئاً قال قد انحلتها تطليقة . ودفع قميصه إلى الغسال فردّه إليه وقد نقص شبراً . فقال : ليس هذا قميصى ، قميصى أتم من هذا شبراً . قال : جعلت فداك إنما تقلص فى الغسل لأنه قطن . فقال له مزيد : أقعد حاسبنى فى كم غسلة يرجع حرمازا . ودخل على بعض الموالى وكان المولى ذا مال كثير وهو على سرير ممتد وبين يديه رجل من ولد أبي بكر الصديق وآخر من ولد عمر بن الخطاب وهما على الأرض . فتجهمه وقال : قبحك الله

يا مزيد فما أكثر الخافك، وأشد إجحافك، كل يوم تأتيني سائلا. قال : لم آتاك
في مسألة وإنما أتيتك أسألك عن معنى قول الحارث بن خالد الحزومي :

إني وما نحرروا غداة مني عند الجار تؤودها العقل
لو بدلت أعلا منازلها سفلا وأصبح سفلا يعلو

فلما رأيتك فوق ورأيت هذين تحتك عرفت معنى البيتين. فقال : اعزب عليك لعنة
الله ، وارتج المجلس ضحكا . وذكر بحضرة ابن أبي عتيق شعر عمر بن أبي ربيعة
والحارث بن خالد الحزومي . فقال رجل من ولد خالد بن العاصي : صاحبنا اشعر
— يعني الحارث — فقال ابن أبي عتيق بعض قولك يا ابن أخي ؟ ! فلشعر ابن أبي ربيعة
لوطاة بالقلب وعلق بالنفس ودرك للحاجة ، ليس بشعر ما عصى الله قط أكثر مما
عصى شعر ابن أبي ربيعة ، فخذ عني ما أصف لك . أشعر قریش من رق معناه
ولطف مدخنه وسهل مخرجه وتقطعت حواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن صاحبه .
فقال الذي من ولد خالد بن العاص صاحبنا يقول :

إني وما نحرروا غداة مني عند الجار تؤودها العقل
لو بدلت أعلا منازلها سفلا وأصبح سفلا يعلو
فيكاد يعرفها الخبير بها فيردها الإقواء والمحل
لعرفت مغناها بما احتملت مني الضلوع لأهلها قبل

فقال ابن أبي عتيق : يا ابن أخي استر على صاحبك ولا تشاهد الحاضر بمثل
هذا ما يطعن عليها الحارث ، حين قلب ربعها فجعل عاليه سافله ، ما بقى عليه إلا أن
يسأل الله في حجارة من سجيل وعذاب أليم . ابن أبي ربيعة كان أحسن للربيع
مخاطبة وأجمل مصاحبة حيث يقول :

سائلا الربيع ما ليلي وقولا هجت شوقا إلى الغداة طويلا
أين حلوا أهلوكم إذ أنت مسرور بهم هل أراك جميلا
قال ساروا وامعنوا واستقلوا وبكرهى لو استطعت بديلا

سئموننا وما سئمت مقاماً واستحبوا دماً وسهولاً
 وإنما أخذ الحارث قوله: لعرفت مغناها بما احتملت البيت . من قول امرء القيس .
 قال علي بن الصباح : وأرق أبي محم . قال لي أبو محم : اتعرف لامرئ القيس أبيتاً
 سينية قالها عند موته في قروحه والحلة المسمومة غير القصيدة التي أولها :
 ألياً على الربع القديم بعسفا كأي أنادي أو أكلم أخرسا
 فقلت لا اعرف غيرها . فقال : أنشدني جماعة من الرواة وأنشد أبيتاً أولها :
 لمن طلل درست آية وغيره الزمن الأخرس
 تنكره العين من حادث ويعرفه شغف الأنفس
 وأخذه طريح بن اسماعيل الثقفي فقال وأحسن :
 تستخير الدمن القفار ولم تكن لترد أخباراً على مستخير
 فأخذه أبو نواس إلا أنه قلبه فجعل الإنكار للقلب فقال :
 ألا لاري مثلي امترى اليوم في رسم تعرفه عيني ويلفظه وهي
 أنت صور الأشياء بيني وبينه فظني كلائن وعلى كلاً علم
 قال ولو قال : تنكره عيني ويعرفه وهي ، لكان كالأول وكان أجود . فلعل
 أبا نواس قصده الخلاف وأعجبه قوله - ويلفظه وهي - لأنها لفظة جرت مليحة ، وقد
 ملح الحسن بن وهب في هذا المعنى إلا أنه لم به وأجمله ولم يذكر القلب فقال :
 ابليت جسعي من بعد جذته فما تكاد العيون تبصره
 كأنه رسم منزل خالق تعرفه العين ثم تنكره
 وزعم يحيى بن منصور الذهلي أنه يعرف معهداً حبابه بقلبه وكتما عينه فقال :
 أما يستفيق القلب إلا انبرى له تذكر ضيق من سعاد ومربع
 اخادع عن عرفانه العين أنه متى تعرف الاطلاع عيني تدمع
 وقال غيره :

هي الدار التي تعرف أم لا تعرف الدار
 ترى منها لأحبابك أعلاماً وآثاراً

فِيْبْدَى الْقَلْبُ عِرْفَانًا وَتَبْدَى الْعَيْنُ انْكَارًا

وحصلت لابي علقمة النحوى علة ، فدخل عليه أعيى الطبيب يعوده . فقال :
ما تجد ؟ قال : اكلت من لحوم هذه الجوازى فطست طسة فأصابنى وجع ما بين
الوابة إلى دابة العنق فما زال يزيد وينمى حتى خالط الخلب والشراسيف فماذا
ترى ؟ قال : خذ خرفقاً وشرققاً وشلبقة فزهقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه .
فقال : ما تقول ؟ فقال : وصفت لى من الداء ما لا أعرف ، فوصفت لك من
الدواء ما لا تعرف . قال : ويحك فما افهمتنى قال : لَمَنَ الله اقلنا إلهاماً لصاحبه .
وقال رجل اسمه 'عمر لعللى بن سليمان الاخفش علمنى مسئلة من النحو ؟ قال :
تعلم أن اسمك لا ينصرف ، فأناه يوماً وهو على شغل . فقال من بالباب . قال :
عمر . قال : عمر اليوم ينصرف . قال : او ليس قد زعمت أنه لا ينصرف قال : ذاك
اذا كان معرفة وهو الآن نكرة . وقال الصولى سكر هارون النديم عند المعتضد
سكرأ شديداً ونهض الجلساء كلهم سواه فقال : له الخادم الموكل بالندماء
انصرف . فقال : أمير المؤمنين امرنى بالمبيت هاهنا . فقال : يا أمير المؤمنين هارون
ينصرف . قال : لا ينصرف ، فلما أصبح رآه المعتضد فقال من هذا ؟ قيل هارون
ابن على . فقال : للخادم الموكل بالندماء متى تقدم للجلساء المبيت هنا . فقال : أنت
اعزك الله قلت هارون لا ينصرف . قال : إن الله إنما اردت النحو . قال ابو العبر :
قال لى أبو العباس يحيى بن أحمد بن يحيى بن ثعلب : الظبى معرفة أو نكرة ؟ فقلت :
إن كان مشوياً على المائدة فمعرفة ، وإن كان فى الصحراء فهو نكرة . فقال : ما فى
الدنيا أعرف منك بالنحو

أبو الحسن على بن سليمان كتب إلى بعض اخوانه يستعير دابة ، ودابة لا تجىء
بوزن الشعر لأنه جمع بين ساكنين :

أردت الركوب إلى حاجة فجدلى بفاعلة من دبيت
فأجابه الفتى وكان ظريفاً :

زيد بها وجع غامر فكن أنت لى فاعلا من عذرت
ومن ملح النحويين :

أفى الحق أن يعطى ثلاثون شاعراً ؟ ويحرم مادون الرضى شاعر مثلى !!
كما ساحوا عمراً بواوٍ مزيدة وضويق باسم الله فى ألف الوصل
وقال أبو الفتح البسى :

حذفت وغيرى مثبت فى مكانه كأننى نون الجمع حين يضاف

وكان المتوكل قد بسط عبادة الخنث للدخول معه على كل حال ، فدخل عليه وهو نائم مع سوداء كان يحبها ، فلما رآه أمرها أن تغطى وجهها . فقال : يا أمير المؤمنين ومن معك ؟ قال : ويليك وبلغ فضولك إلى هذا الموضوع وتمدت الجارية رجلها فبانت سوداء . فقال : يا أمير المؤمنين تنام ورجلك فى الخف . فقال المتوكل : قم عليك امنة الله ! وضحك وأمر له بصلية فأخذها وأنصرف . وكان عبادة يشرب بين يديه ويترك فى القدح فضلة . فقال : يا عبادة ماتدرى ما يقول الناس ؟ قال : وما هو ؟ قال : يقولون إن شارب النبيذ إذا شرب وعبس وجهه وفضلت فى القدح فضلة ان ابليس يضرب قفاه ويقول اشرب فضلة ما استطبت ، فمضت الأيام واصطبغ المتوكل وعبادة حاضر فشرب قدحاً كان فى يده وفضلت فضلة . فقال : يا أمير المؤمنين جاءك ارجل

وتجارى الجوارى بحضرة المتوكل فسبقتهن جارية ممشوقة . فقال : المتوكل لعبادة : اجر معها حتى ننظر من يسبق صاحبه . فقال عبادة : إن سبقتها فما لى ؟ قال : هى لك وإن سبقتك صفعتك ، فجرت معه الجارية فسبقته مرة بعد أخرى فقال : يا أمير المؤمنين كيف لا تسبقنى وهى تجرى بمدارين وأنا أركض بخرجين ،

فضحك المتوكل ووهبها له . وغفل عنه المتوكل مرة فكتب له رقعة يستأذنه في الحج فضحك . وقال : عبادة يحج ؟! على به ، فلما دخل عليه . قال له : ما خبرك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين لقد تواضعت حتى ما آكل إلا الخشكار ، ولا أشرب إلا نبيذ الدردى ، ولا أسمع إلا غناء حوراء ، فأمر له بصلة .
ألم جحظة البرمكى بهذا المعنى فقال :

إني رضيت من الرحيق	بشراب تمر كالعقيق
ورضيت من أكل السمي	ذبا كل مسود الدقيق
ورضيت من سعة الصحو	ن بمنزل ضنك وضيق
وجعلت تغريد الحما	مة منزلى عند الشروق
فقدوت كسرى صاحب الإي	وان والعيش الأنيق
وحجبت نفسى عن حجا	ب الباخلين ذوى الطريق
القاطعين مخافة الإي	ففاق أسباب الصديق

قال ابن أبي عتيق لأمرأته تمنيت أن يهدى إلينا مسلوخ فتتخذ من الطعام لون كذا ولون كذا ، فسمعت جارة له فظنت أنه أمر بعمل ما سمعته فانتظرت إلى وقت الطعام ثم جاءت فقرعت الباب . وقالت : شممت رائحة قدوركم فجئت لتطعموني منها . فقال ابن أبي عتيق لأمرأته : أنت طالق إن أقمت في هذه الدار التي جيرانها يتشممون الأمانى . ولبس مزيد جبة قليل له أتمنى أن تكون لك ؟ قال : نعم ! وأضرب عشرين سوطاً قبل ولم ويحك ؟ قال : لا يكون شيء إلا بشيء . قال الأصمعي : طاب الحجاج رجلاً فهرب منه فربس باط فيه كلب نائم في ظله . فقال : ياليتنى مثل هذا الكلب ، فما أتت ساعة حتى مر به الكلب وفي عنقه حبل فسأل عنه فقالوا جاء كتاب الحجاج وبه يأمر بقتل الكلاب . وفي كتاب للهندان ^(١) أن ناسكا كان له سمن وعسل في جرة . ففكر يوماً فقال أبيع هذه الجرة بعشرة دراهم

(١) كذا في الاصل : ولعله للهند

فاشترى خمسة اعنز فأولدهن في كل سنة مرتين فيبلغ النتاج في سنتين مائتين
وابتاع بكل أربع بقرة وازرع وينمي المال في يدي، فاتخذ المساكن والعبيد
ويولد لي ولد فأسميه كذا وأخذه بالأدب فان هو عصاني ضربت بعصاي رأسه
وكانت في يده عصا فرفعها كالضارب فأصابته الجرة فانكسرت وتبدد السمن
والعسل . قال يزيد بن معاوية : ثلاث يخلقن العقل وفيهن دليل على الضعف ،
سرعة الجواب ، وطول التمني ، والاستغراب في الضحك . وكان يقال : التمني والحلم
إخوان . وقالوا في تقيض ذلك الأمل رفيق مونس ، إن لم يبلّغك فقد أهلك . وأنشدوا :

أتاني من ليلي جواب كأنما سقتني به ليلي على ظمأ بردا
منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا
وقال اعرابي :

رفعت عن الدنيا المنى غير حبها فما أسأل الدنيا ولا استزيدها
وتحت مجارى الصدر منّا مودة تطلّع سرّاً لا ينأدى وليدها
وقيل لاعرابي : ما امتع لذات الدنيا ؟ فقال : مباحة الحبيب ومغالطة الرقيب
وأمانى تقطع بها أيامك ، وأنشد :

عليّنى بموعده وامطلى ما حبيت به
ودعيني أفوز من لك بنجوى تطلبه
ففسى يعثر الزمان بحظي فينتبه
ودخل كثير بن عبد الرحمن على عزة . فقالت : ما ينبغي أن نأذن لك في
الجلوس . قال : ولم ذلك ؟ قالت : لأنى رأيت الأحوص ألين جانباً عند القوافى
منك في شعره ، واضرع خدّاً للنساء وأنه الذى يقول :

يا أيها الملائمى فيها لأصرمها أكثرت لو كان يغنى عنك إكثار
اقصر فلست مطاعاً إذ وشيت بها لا القلب سال ولا فى حبها عار
ويعجبني قوله :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدور

وما كنت زوّاراً ولكنّ ذا الهوى إذا لم يُزَرَ لا بد أن سيزور
لقد منعتُ معروفها أم جعفر وإني إلى معروفها لفقير
ويعجبني قوله:

كم من دنيّ لها قد صرت اتبعه ولو صحا القلب عنها كان لي تبعها
لا أستطيع نزوعاً عن محبتها أو يصنع الخب بي فوق الذي صنعا
أدعو إلى هجرها قلبي فيتبعني حتى إذا قلت هذا صادق نزعا
وزادني رغبة في الحب أن منعت أشهى إلى المرء من دنياء ما منعا
وقوله :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جليدا
وما انعيش إلا ما تلذ وتشهى وإن لام ذو الشنان فيه وفندا
وإني لأهواها وأهوى لقاءها كما يشهى الصادي الشراب المبرد
علاقة حب لجّ في سنن الصبا فأبلى وما يزداد إلا تجدداً
هذان البيتان ألحقهما الضبي وغيره بهذا الوضع من شعر الأحوص ، وأنشدهما
أبو بكر بن دريد لأعرابي . فقال لها كثير : والله لقد أجاد فما استجفيت من
قولي ؟ قالت : فذلك قولك :

وكنت إذا ما جئت أجلس مجلسي وأظهرن مني هيبة لا تجهما
يحاذرن مني غيرة قد عرفتها قديماً فما يضحكن إلا تبسماً
تراهن إلا أن يؤدين نظرة بموخر عين أو يقبلن معصماً
كوأظم ما ينطقن إلا بحوره رجيعة قول بعد أن تتفهما
وكنّ إذا ما قلن شيئاً بسترة أسر الرضى في نفسه وتحرما
وقوله :

وددت وبيت الله انك بكرة هجان وإني مصعب ثم نهرب
كلانا به عدو فمن يرنا يقل على حسنهما جرباء تعدى وأجرب

نكون لدى مالٍ كثيرٍ مغفل فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
إذا ما وردنا منها صاح أهله علينا فما تنفك نجفى ونضرب
ويحك ؟ ! لقد أردت في الشنعاء ما وجدت أمنية أوطأ من هذه ، فخرج من
عندها خجلاً . وكثير إن قبح في هذا فقد ماح في قوله :

فليت قلوصى عند عزة قيدت بقيد ضعيف عرمنها فضلت
وغودر في الحى المقيمين رحلها وكان لها باغ سوى وندت
وكنت كذى رجلين رجل صحيحة وأخرى رمى فيها الزمان فشلت
وكانت كذات الظلع لما تحامات على ظلها بعد العثار استقلت
أريد ثواء عندها وأظنها إذا ما أطلنا عندها المكث ملت

وكان كثير على حدة خاطره وجودة شعره أحق الناس . ودخل عليه نفر من
قريش يعودونه وهو عليل ويهزؤون به . قال بعضهم فقلت له : كيف نجدك قال بخير
ثم قال هل سمعتم الناس يقولون شيئاً قلت نعم سمعتم يقولون انك الدجال قال أما
لئن قالوا ذلك إنى لأجد في عيني اليمنى ضعفاً مذ أيام . قال : الجاحظ حدثني ثمامة
ابن أشرس قال كان ممرور يأتى ساقية لنا سحراً فلا يزال يمشى مع دابتها ذاهباً
وراجعاً في شدة الحر والبرد فإذا أمسى توضأ وصلى وقال اللهم اجعل لنا من هذا الهم
فرجاً ومخرجاً ثم انصرف إلى بيته فكان كذلك إلى أن مات . قال : وحدثني
ثمامة قال مررت في غب مطر والأرض ندية والسماء مغيمة والرياح شمالية وإذا
شيخ أصفر كأنه جراداة وقد جلس على قارعة الطريق وحجام زنجى يحجمه وقد
وضع على كاهله واخذعيه محجمة كأنها قعب وقد مص دمه حتى كاد يستفرغه .
قال : فوقفت عليه وقلت يا شيخ لما تحتجم في مثل هذا اليوم فقال لمكان الصفار الذى
فى . قال : الجاحظ ما رأيت رجلاً عظيم الاحية إلا وجدته كوسج العقل . وقالت
أعرابية لقاض قضى عليها : عظم رأسك فبعد فهمك ، وانسدلت لحيتك فانشمر
عقلك ، وما رأيت ميتاً يقضى بين حينين قبلك . وعاب كوسج الحى ، فقراً : والبلد الطيب

يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً. فقرأ الكوسج: قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث. قال: هشام بن عبد الله يوماً في مجلسه يعرف حمق الرجل بخصال أربع؛ بطول لحيته وشناع كنيته ونقش خاتمه وإفراط شهوته. ثم رمى بصره إلى رجل طويل اللحية في أقصى المجلس فدعا به. فقال: هذه واحدة ثم سأل عن كنيته فقال كنيته أبو الياقوت الأحمر فقال وما نقش خاتمك. قال وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. وخرج مهزم ابن الفرج القبعسى^(١) فقال: أيها الأمير انى قد قلت بيتاً، وأنشد:

كفى حزناً إن الفراء كثيرة وإنى بمرى الشاهجان بلا فرو
فقال طاهر: هذه والله قافية شرود اجيزوا، فارتج عليهم. فقال مهزم أنا أولى
باجابة نفسى. وقال:

صدقت لعمري أنها لكثيرة ولكنها عند السكرام أولى الثرو
فضحك طاهر، وقال: أما لئن أغفلناك حتى حملناك على سوء القول لنفسك سنستدرك، وأمر له بعشرة أثواب من وبر الخبز والوشى، فباع منها تسعاً بتسعين ألف درهم وأمسك واحدة. قال الجاحظ: كان جعيفران الموسوس يمشى رجلاً من إخوانه على قارعة الطريق فدفع الرجل جعيفران على كلب فقال: ما هذا؟ قال: أردت أن أقرنك به. قال: فمع من أنا منذ الغداة. شرب طوقان المغنى عند الشريف الرضى فسرق رداؤه فلما أصبح افتقده. فقال: قد سرق ردائي. فقال له الشريف: سبحان الله من تهم منا أما علمت أن النبذ بساط يطوى ما عليه فقال: انشروا بساطكم حتى آخذ رداي وأطووه إلى يوم القيامة. دخل رجل أكل على قوم فأكل أكلاً ذريعاً. فقال أحدهم: عجبت من أكله وشرطه. وقال الآخر: وشقه دجاجة وقطه، وقال آخر: وأكله دجاجة وبطه. وقال آخر: كأن جالينوس تحت إبطه. فقالوا له: أما الذى قلناه فمفهوم فما معنى قولك كأن جالينوس تحت إبطه

(١) كذا فى الاصل ولم اقف على هذه النسبة

قال : اكى بناوله الجوارشفات^(١) لثلايتخم . قيل لحنث كم ورثت أختك من زوجها؟
قال : أربعة أشهر وعشرًا - يريد العدة . قال بعض العلويين لأبي العيناء : يقتضى
وقد أمرت بالصلاة على أن تقول اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد . قال نعم ! فاذا
قلت الطيبين الأخيار خرجت أنت منهم . أخذه يزيد بن محمد المهلبى فقال فى
صاحب الزنج بالبصرة :

أيها الخائن الذى دمر البصر رة أبشر من بعدها بدمار
إن تقل جدى النبى فما أنـ ت من الطيبين والأخيار
قد نفى الله فى الكتاب ابن نوح حين كان أبنه من الكفار
وإنما قال المهلبى هذا له قبل أن ينكشف أمره أنه دعى .

قال أبو بكر الصولى : وحدثنى محمد بن أبى الأز ر وقد أذكركه خبر على بن محمد
صاحب الزنج فقال ادعى أنه على بن محمد بن احمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين
ابن على رضوان الله عليهم ، فنظرت مولده ومولد محمد بن احمد الذى ادعاه فكان بينهما
ثلاث سنين وكان لمحمد بن احمد ولد اسمه على مات بعد هذا المدعى اسمه ونسبه
بزمان ، ثم رجع عن هذا النسب فادعى أنه على بن محمد بن عبد الرحمن بن رحيب
ابن يحيى المقتول بخراسان من زيد بن على . قال أبو عبد الله محمد بن على بن حمزة :
لم يكن ليحيى ولد يقال له رحيب ولا غيره لأنه قتل ابن ثمانى عشرة سنة ولا ولد
له . وقال : بشر بن محمد بن السرى بن عبد الرحمن بن رحيب هو ابن عمر من أهل
مخا^(٢) هو على بن محمد بن عبد الرحمن بن رحيب ورحيب رجل من العجم من
ضياح الرى وكانت مدته من حين نجم إلى أن قتل أربع عشرة سنة ، وجملة من قتل
(١) كذا الجوارشفات ، والمحفوظ بحذف الفاء (٢) كذا فى الأصل وفى الكامل
لابن الاثير بعد سياقه ما ادعاه أولا قال قال ابو جعفر : وكان اسمه فيما ذكر على بن
محمد بن عبد الرحيم ونسبه فى عبد القيس وأمه بنت على بن رحيب بن محمد بن حكيم
من بنى اسد بن خزيمه من قرى الرى .

ألف ألف وخمسمائة ألف وله شعر حسن مطبوع، وزعم أبو بكر بن دريد أنه عمل له أكثره وما أرى هذا يصح لأنه لا يشاكل طريق ابن دريد، فمه :

ما تغطى عساكر الليل منى	ما تجلى مضاحك الصبح غنى
جسم سيف في جوف غمد ثياب	صدر أنس من تحته قلب جنى
ميت حس وحي نفس كما الشـ	س يرى مشبها بعين التظنى
شمري إذا استقل بعزم	لم يُمرّج بليتني ولو أنى
ما ينال الكرى سويده إلا	حسوة الطائر الذي لا يُثنى
إن رماه خطب قرى الخطب رأى	فيه روع النجا وحكم التانى
كم ظلام جعلته طيلسانى	صاحي همتي وقلبي مِحنى
كم جبال قطعت في وصل أخرى	تاركا ما أخاف من سوء ظنى
مستخف بذا وذاك وهذا	لم أسمع ندامتى قرع سمنى
أنا روض الربيع في كل زهر	فيلسوف الزمان في كل فن

وقل :

لقد علمت هاشم أننا	صباح الوجوه غداة الصياح
وأذا إذا زعزعت في الوغى	ذبول الرياح ذبول الرماح
نسوق السيوف بدفع الحتوف	وتنكى الجراح بكف الجراح
ونسمو ساجداً أكف السّاح	بقسم رماح وبيض صفاح
وقرم صبحناه في داره	بكل أقب ونهد وقاح
فغودر بعد عناق الملاح	ضجيع النّجيع مراح الجراح
كليل الأنين مزال الجبين	مهين السّلاح مهيض الجناح
صلى نور عيني بنور الأفاق	وراح الأكف بماء وراح
فما طول عشقى مزاح الملاح	بمشتغل عن صياح الصباح

وقال :

اسمعاني الصياح بالامليس
واتركاني من قرع مزهر ربا
ليس تُبني العلى بذاك وهذا
عوقت^(٢) عن كل اللبانات نفسى
وخلا من هواجس النأى قلبى
واسبطرت حمالق القوم للمو
رب سيد يحى الخيس بعضب
عمته يُمْنى يدى بعضب
تخبرك الحكاة عن غدواتى
فسلوا عامرا وعارض لما
أترونى أقر بالذوم غمضا

وقال :

وإنا لتصبح أسيافنا
منايرهن بطون الأكف
ومالى فى الخلق من مشبه
وقال يخاطب بنى العباس :

بنى عمنا لا توقدوا نار فتنة
بنى عمنا إنا وأنتم أنامل
بنى عمنا وليتم الترك أمرنا
بطي على مر الليالى خمودها
تضمنها من راحتها عقودها
بدينا وأعقابا ونحن شهودها

(١) الامليس : القفلة ليس بها نبات والعيطموس : التامة الخلق من الأبل والنساء.

(٢) كذا فى الأصل وكتب الشيخ حفى بالهاش لعلمها (عوقت) بالقفاف وإلا

فأقسم لادقت القراح وإن أذق بيلغة عيش أو يبار عيدها
وقال :

لُف نفسي على قُصور بيغدا د وما قد حوته من كل خاص
وخمر هناك تشرب جهراً ورجل على المعاصي حِرَاص
لست بآبن الفواطم الزهران لم أقحم الخيل بين تلك العراض
وقتلته الموفق بعد أن جرت له معه واقعة عظيمة وجرح الموفق جرحاً في
صدره أشرف منه على الموت ، ولذلك قال ابن المعتز :

شقّ الصفوف بسيفه وشفى حرارات الأحن
دامى الجراح كأنها وردٌ تفتح في غصن

قال الجاحظ : سمعت رجلاً يقول لآخر ضربنا الساعة زنديقاً . قال : وأى شيء
الزنديق ؟ قال الذي يقطع المزيقة قلت وكيف علمت أنه يقطع المزيقة قال رأيته يأكل
التين بالخل . وهذا كما قال النظام لرجل : اتعرف فلاناً المجوسى ؟ قال : اعرفه ذاك
الذى يخلق وسط رأسه مثل اليهود قال لا مجوسياً عرفت ولا يهودياً ووصفت . باع مزيد
المدني دابة فلما كان من الغد اتاه النحاسون طمعاً فلما نظر اليهم قد أقبلوا نحوه
قام يصلي فاطال الصلاة ، فقالوا له وهم لا يعرفونه : يا عبد الله قد ذهب يومنا فأطعمهم
طول قيامه وكان أحسن الناس سمناً وأظهرهم هدياً فانفتل من صلاته . فقال : ما عدا
لكم فقد قطعتم على صلاتي . فقالوا له : قد ظهر بالدابة عيب . قال : وما عيبه قالوا
يخلع الرسن قال لا أعرفه بهذه الصفة فماذا تريدون قالوا خصلة من ثلاث اما الخطيطة
واما رد الثمن واخذ الدابة وأما اليين بالله انك ما تعرف هذا فيه . فقال : أما الثمن
فقد فرقناه واما الخطيطة فما تمكنا وأما اليين فاني ما حلفت قط على حق ولا على باطل
فاعفوني منها فانها اصعب الخطط عندي . قالوا : ما من ذلك بد فانطلق بنا إلى
الوالى فقام معهم فلما بصر به والى ضحك ، وقال : ما جاء بك أبا إسحاق فقص عليه

القصة. فقال: قد انصفك القوم فقال اعز الله الأمير أحلف وأنا في هذا السن وضرب يده على خيته وبكى، وقال ما حلفت على حق ولا على باطل والتوى. قال: لا بد فالتوى ساعة ثم قال أصلح الله الأمير فإن حملت نفسى على اليمين وحلفت واعتوتى بعد. قال: أوجعهم ضرباً واحبسهم، فلما سمع ذلك استقبل القبلة وقال: باغت السماء وكوَّرت الشمس ونثرت الكواكب وشربت البحر ولطعت ما فى المصحف من الذكر الحكيم وتوليت عاقر الناقة وسرقت عصا موسى عليه السلام ولقيت الله بذنب فرعون يوم قال أنا ربكم الأعلى، وغير ذلك من مخرج الايمان. لقد كان عندى دواب كلها تخلع أرسامها فكان هذا الحمار يقوم فيعيدها عليها ويصلحها بضمه قليلا قليلا فضحك الوالى حتى فخص برجليه وبهت النخاسون وعجبوا منه وانصرفوا عنه. وقال بعض الشعراء:

سألونى اليمين فارتعت منها كى يغفروا بذلك الارتياح

ثم ارسلتها كمنحدر السيل لى تمهأدى من المحل اليفاع

ومن ظريف ما فى هذا الكتاب ما حكاه الصولى قال كنت يوماً بين يدي أمير المؤمنين الراضى بالله إذ دخل عليه بعض الخدم برقعة دفعها صاحب الخبر الملائم لمجلس ابى عمر القاضى: يذكر أن رجلاً أحضر خصماً للقاضى وادعى عليه مائة دينار فألزم القاضى الغريم اليمين إذ لم يجد الخصم بينة فأخذ الدواة وكتب بيتين فدفعهما الى القاضى فأمر القاضى غلامه فأحضر مائة دينار ودفعها إلى الرجل والبيتان هما:

وانى لذو حلف كاذب إذا ما اضطرت وفي الأمر ضيق

وهل من جناح على مسلم يدافع بالله ما لا يطيق

فمجب الراضى من الرجل وديانته لخلاصه من الحكم، وعجب من كرم القاضى وحسن ما فعله، ثم امرنى بالركوب إلى القاضى ومسألته فى البحث عن صاحب البيتين واحضاره اليه. فلم نزل اياماً حتى حصل لنا فجئنا به إلى دار السلطان فأمر له بألف دينار وخمس خلع ومركوب حسن وأمره بملازمة الدار، ثم قلده الأهواز

وأعمالها. وخرج أبو سعيد الحر بن مرة وهو شارب الخمر يبول وعليه طيلسان خلق أبريسى فمر به بعض المكارين في الليل وتناول طيلسانه فصاح به أبو سعيد : فقال له الفتى : ما تريد ؟ قل اصرف الله عنك الأذى . ودخل على أبي سعيد اللصوص فآخذوا كل ما في داره فلما مضوا حمل أبو سعيد البارية ومضى في أثرهم ، فنظر اليه أحدهم فقال : أى شئ تصنع معنا ؟ قال : نطلب بيتاً نتحول فيه بكرة ، فضحك اللصوص وردوا عليه ما أخذوه منه . وكان يفتاد طيب اسمه نعمان لا ينجح مريض على يديه ، فقال فيه بعض الشعراء :

أقول لنعمان وقد ساق طبه نفوساً نفيسات إلى داخل الأرض
أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا خنانيك بعض الشراؤون من بعض
البيت لطرفة بن العبد . وقال : كشاجم لعيسى بن نوح النصراني
عيسى الطبيب ترفق فأنت طوفان نوح
يأبى علاجك إلا فراق جسم لروح
شتان ما بين عيسى وبين عيسى المسيح
هذاك محي ميت وذا مميت صحيح

هذا منقول من قول رجل من بني تميم ، لما دخل هلال بن أujur البصرة بعد إيقاعه بيني المهلب وقد أطافت به بنو تميم فقال شيخ من الأزد رجالهم يطيفون به كما يطيفون بعيسى بن مريم . فقال التميمي : هذا ضد عيسى بن مريم فان ذاك يحيى الموتى وهذا يميت الأحياء . قال رجل للشمسي : ما تقول في رجل أدخل أهدباً في أنفه فخرج عليه دم أترى له أن يحجم ؟ فقال : الحمد لله الذي نقانا من الفقه إلى الحجابة . وقال : له رجل ما تقول في رجل شتمني في أول يوم من شهر رمضان أترأه يؤجر قال ان قال لك يا أحمق رجوت له ذلك . دخل زاهر بن الملاء على الحجاج ففسى التسليم فقال : التحيات لله الطيبات الصلوات لله ثم ذكر التسليم فقال السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته . ودخل بعض الهاشميين على الرشيد معزياً .

فقال : يا أمير المؤمنين أحسن الله عزاك وربك عزاك وأحاله علينا وعليك بخير
ورحم فلانا ولا عرفه قليلا ولا كثيرا ، تأمر بشيء يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ! أمر
أهلك أن يدفنوك فإن موتك حياة وحياتك موت . مات أخ لأبي علقمة النحوى
فأتى ابنه يعلم أبا علقمة بموت أخيه . فقال : ما كانت علتة ؟ فقال الغلام تورمت رجلاه
فانتهى الورم إلى ركبته فقال أبو علقمة : لحنت فقل إلى ركبتيه . فقال الغلام :
قد شق عليك موت أبي حيث لم تدع بغضك ساعة ^(١) . ومرت بدادود بن المعتمر
امراة جميلة فقام يتبعها حتى أدركها . فقال : لولا ما رأيت عليك من سياء الخير لم
التبعك ، فضحكت حتى استندت إلى الحائط فقالت إنما يمنع مثلك من الطمع في
مثلى ما يرى من سياء الخير ، فإذا كان هذا هو الذى يطمع فى النساء فأنالله وإنا إليه
راجعون . وتعشق أبو القاقم السقاء قينة فبعث إليها حضر عندي اخوان فابغى الى
بجام لوزينج آكله على ذكرك : فبعثت إليه به فلما كان من الغد بعث إليها ارسل
لى بطبق مازاورد آكله على ذكرك . فقالت : جمعت فداك ذكروا ان منبع
الحب من القلب فاذا تنهى بلغ إلى الكبد ، وأنا أرى حبك لا يتجاوز معدتك . فقال :
أما فعلت هذا لأقوى على محبتك ألم تسمعى قول الشاعر :

إذا كان فى قلبى طعام ذكرتها وان جمعت لم تخطر ببالى ولا فكرى
وإن كان هذا العام قد قلّ بقله فيقبح من يهواك ياربة الخدر
ويزداد حبي ان شبت تجددأ وان جمعت يوما لم تكونى على ذكرى
ومن ملىح ما فى هذا الباب ان أبا مسعود الأعشى كان جالسا فى صحن داره فأشرفت

عليه جارية ظريفة فعضت تفاحة ورمت بها فى حجره . فتناولها وقال :

أيا تفاحة رمت فؤادى للهوى رما
لقد أهداك انسان وأهداك لأمر ما •
ليهدى لأعج الشوق إلى من عض أو شما

(١) كذا فى الأصل . ولعله : لقد شق على موت أبى حيث لم يدع بغضك ساعة

فلم تكن إلا ساعة حتى وافت جارية لها معها جام لوزينج وهى تقول : مولاتى
تقرئك السلام وتقول لك قد سمعت شعرك ورأيتك بدأت بالعض قبل الشم
فعلت انك جائع فتبلغ بهذا الجام حتى يدرك طعامنا . قال : وكيف كنت أقول ؟
قالت كنت تقول :

أيا تفاحة رضت فؤادى للهوى رضا
لقد أهداك انساناً وأهداك لما يرضى
ليهدى لالعج الشوق الى من شم أو عضا

وكان احمد بن أبى طاهر قبيح الوجه وكان له جارية من أحسن النساء ،
فضحك اليها يوماً فعبست فى وجهه . فقال لها : أضحك فى وجهك فتعبسين فى وجهى ،
فقالت : نظرت أنت الى ماسرك فضحكت ، ونظرت الى ماساءى فعبست . وليس
هذا كقول حمرة امرأة عمران بن حطان - وكان قبيحاً وكانت جميلة - انى لأرجو أن
نكون جميعاً فى الجنة . فقال : ولم ؟ قالت لأنك أعطيت مثلى فشكرت وأعطيت أنا
مثلك فصبرت ، فالصابر والشاكر فى الجنة . وخطبت بعده فلبست بعض ثيابه وخرجت
تتمثل بقوله :

وتنبس يوماً عرسه من ثيابه إذا قيل هذا يا حميرة خاطب
فانصرفوا عنها . وكان ابو الحسين جعظة اليرمكى أطيب الناس غناء وأحسنهم
مجالسة وأمتعهم مؤانسة ، وكان قبيح المنظر جداً جاحظ العينين وفيه يقول
ابن الرومى :

نبئت جعظة يستعير جعوظة من فيل شطرنج ومن سرطان
يا رحمتى منادمة تحملوا ألم العيون للذة الآذان

قال المداينى : جاء رجل الى جاره من الأشراف فقال له : جارك فلان توفى ولا

كفن له فتأمر له بكفن ، فقال : والله الآن ما عندي شيء ، ولكن تعاهدنا بعد أيام ، قال : فبماحه أصحابك الله إلى أن يتيسر الكفن . وجدت امرأة أشعب ديناراً فأنته به فقال ادفعيه إلى حتى يلد لك في كل أسبوع درهمين : فدفعته إليه فصار يدفع إليها في كل أسبوع درهمين ، فلما كان في الأسبوع الرابع طلبته منه . فقال لها مات في النفاس ، فقالت : ويلى عليك كيف يموت الدينار ، فقال لها : الويل لك على أهلك كيف تصدقين بولادته وتنكرين موته في نفاسه . سقط أحدب في بئر فذهبت حذبه وصار آدر^(١) فدخل إليه جيرانه يهثثونه فقال : لا تفعلوا فالذي جاء شر من الأول . قال ابن خالويه : استعرضت جارية فقلت لها أبكرأت أم أيش ؟ قالت : أنا أيش فاشتريتها .

قال أبو العالية : لما مات سعيد بن سلم الباهلي . قال لي الرشيد : علم فلانا تعزية يعزى بها ولد سعيد — لفتى من بني هاشم . فقلت للفتى : إذا صرت للقوم فقل أعظم الله أجركم ، وأحسن عزاءكم ورحم سعيداً ، قال : هذا طويل فقلت فقل أعظم الله أجركم وختم بالصبر على قلوبكم . قال : هذا أطول من ذاك . قال فقلت : أعظم الله أجركم وكرمه عليه يومين ، فلما كان اليوم الثالث ركب وركبنا معه ، فلما قرب من باب القوم خرجوا إليه حفاة أعظماً له ، فلما رآهم . قال : ما فعل سعيد ؟ قالوا مات قال جيد وما أظن ذلك ، فإيش عملتم به ؟ قالوا دفناه . قال أحسنتم ثم انصرف . لما مات سليمان بن وهب لقي الناس عبيد الله بن سليمان يعزونه ، فأتاه بعض أولاد الأشراف . فقال : مات سليمان قال نعم ! قال ومات أبو علي قبله قال نعم ! قال ومات أبوهما قل نعم ! قال هذا كما قال الله تعالى : وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ، فأوردتهم النار وبشس القرار .

وبنو وهب من ظرفاء الكتّاب وأدبائهم ، ولهم الرسائل الحسان . والشعر الجيد وفيهم يقول أبو تمام :

(١) الآدر : من ينفق صفاقه من جانبه الأيسر

كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبي وشعب كل أديب
إن قلبي لكم لكالكبد الح را وقلبي لغيركم كالقلوب

وكلف الحسن بن وهب بهوى بنان جارية ابن حماد وكان من ظريف أخباره معها : أن الواصل تقدم إلى ايتاخ باتخاذ حلتين من رفيع الوشى على صفة دفعها إليه وأمره بتعجيلهما ، فتقدم ايتاخ في ذلك إلى سليمان بن وهب كاتبه فجاء في الحلتين حتى فرغ منهما الصانع وأحضرتا فعرضتا على الواصل فاستحسنهما وأمر بقطعهما ، فتشاغل عن قطعهما وسأل أخاه الحسن بالنيابة عنه في ذلك ، فقطع الحسن منهما قميصاً لبنان وانصرف إلى منزله فأحضرها وخلعه عليها وجلس يشرب معها . واتصل الخبر بسليمان فقامت عليه القيامة وأمر باحضار الوشايين وطلب شكلاهما فتعذر عليه ، فابتاع حلتين تقاربهما بمخمسة آلاف درهم وصدق ايتاخ عن خبره فطلبهما الواصل فدافعه ايتاخ بهما وأعمال عليه إلى أن فرغ الخياطون من الحلة التي ابتاعها سليمان بن وهب وأحضرت للواصل ، فلما لبسها انكرها ودعا ايتاخ فسأله عن السبب فصده فضحك ضحكاً كثيراً ، ودعا خادماً فأمره باحضار الحسن وبنان على الصورة التي يجدهما عليها فأحضرهما في قبة فلما رآهما الواصل قال للحسن ويلك تأخذ ثوبي تقطعه لهذاى بغير أمرى ، قال : أنت يا أمير المؤمنين تقدر على مثله وأنا لا أقدر عليه ، وأنا والله أحبها وأعجبني الثوب فتقربت منها به . فضحك ووصله وصرفهما . وفيها يقول الحسن :

أقول وقد حاولت تقبيل كفها وبي رعدة اهتز منها وأسكن
ليهنك أنى أشجع الناس كلهم لدى الحرب إلا أنى عنك أجبن
وحضرت عنده يوماً وقرب منها نار فتأذت منها . فقال الحسن :

بأنى كرهت النار حتى أبعدت فعلمت ما معنك فى إبعادها
هى ضرة لك فى التماع بهائها وهبوب نفحتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك فى القلوب صنيعها وضيائها وصلاحها وفسادها

قال أبو فراس : قال لي عبيد الله بن سليمان بن وهب - وهو وزير - أنشدني :
 مما تحفظه من شعر عمي أبي علي فأنشدته :

بنفسى وأهلى ساحر الطرف فاتره محكمة أجفانه ومحاجره
 فقال عبيد الله : لقد كان رحمه الله كثيراً ما يضع خده على خدى وأنا غلام وينشد
 هذا الشعر ويبكي . فقلت : يا سيدى كان يتعشقها ليقول شعراً . ومن طبع
 كلامه قوله : شربت البارحة على وجه الجوزاء ، فلما انتبه الفجر نمت فما افقت
 حتى لفحنى قميص الشمس .

وأنشدونا في تضمين أبيات مالك بن الرب المزنى في قصيدته :
 ألا ليت شعرى هل ابين ليلة بذات الغضا أزجى القلاص النواجيا
 وسمعت من ينشدها لابن الرومى وأخلق بها أن تكون له :

تعرض لى بعد القطيعة ما لكى وأظهر فضلا بعد ما كان جافيا
 وقد كدر الأنبات ماء شبابه فأصبح رنقا بعد ما كان صافيا
 فقلت له جرعت بالشعر نسوة فقال أجل كل العيال رثاليا
 فمنهن أختى وابنتها وخالتى وباكية أخرى تهيج البواكيا
 فبينا يعاصبنى الكلام بداه حريفان عن بعد فصاح مناديا
 خذ انى فجرانى بدمعى إليكما فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

كان معاوية بن مروان اخو عبد الملك بن مروان مغفلا ، فينا هو واقف بباب
 دمشق ينتظر عبد الملك على باب طحان إذ نظر إلى حمار يدور بالرحى وفي عنقه
 جلبجل . فقال للطحان : لم جعلت فى عنق الحمار جلبجلا . قال : لربما أدركتنى
 سائمة أو نعسة فاذا لم اسمع صوت الجلبجل علمت بأنه قد قام فصحت به .
 فقال : له معاوية أرايت إن قام وقال برأسه هكذا وهكذا وحرك رأسه ما علمك
 أنه قائم . فقال الطحان : ومن لحمارى بمثل عقل الأمير أعزه الله تعالى .
 قال بعض البرامكة : كنت بالسند فاتصل بى انى صرفت عنها وكنت كسبت

ثلاثين ألف دينار ، فحقت أن يحفوني الصارف ويُسَمَّى إليه بالمال فصغته عشرة آلاف اهليلجة كل اهليلجة ثلاثة مثاقيل وجعلتها في حمل اهليلج ، ولم ابعده أن جاء الصارف فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة فاخبرت أن بها الجاحظ وأنه عليل ، فأحببت أن اراه قبل وفاته فصرت إليه فافضيت الى باب دار لطيف فقرعته ، فخرجت إلى جارية صفراء فقالت : من أنت ؟ قلت شيخ غريب أحب أن أدخل إلى الشيخ فأسر بالنظر اليه ، فأدبت الجارية ما قلت وكانت المسافة قريبة لقصر الدهليز والحجرة فسمعتة يقول : ما يصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل . فاخبرتنى فقلت لا بد من الوصول إليه . فقال : هذا رجل اجتاز بالبصرة فسمع بي وبعثني فقال أراه قبل موته لأقول قد رأيت الجاحظ ، فدخلت فسلمت فرددا جميلا واستدنانى وقال من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت اليه فقال رحم الله آباءك وقومك السمحاء الأجواد ، الفصحاء الأنجاد ، فلقد كانت أيامهم روض الأزمنة ، ولقد انجبر بهم قوم كثير فسقيا لهم ورعيا ، فدعوت له وقلت : أنا أسأل الشيخ أنت ينشدنى شيئا من ألد الشعر أذكره به ، فانشدنى :

لئن قدّمت قبلى رجالٌ لطلما مشيت على رسلى فكنت المقدما
ولكن رأيت الدهر تأبى صروفه فتبرم منقوضاً وتنقض مبرما

ثم نهضت ، فلما قاربت الدهليز صاح بي يا فتى أرايت مفلوجا ينفعه إلا اهليلج . قلت : لا ! قال : أنا ينفعنى الاهليلج الذى معك فاهد لنا منه ، فقالت السمع والطاعة وخرجت مفرط التعجب من وقوفه على خبرى حتى كأن بعض أسبأبى كاتبه بحالى وقت أن صغته ، فانفذت اليه مائة اهليلجة . وهذا يدل على كثرة بخته وتنقيده إذ كان وهو فى هذه السن العالية والفالج الشديد تنشر عنه الأخبار ، ولا تطوى عنه الأسرار ، فكيف كان قبل هذا . ومن احدى عجائبه أنه الف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال . وقيل لأبى العيناء : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ لا يحسن . وفيه يقول الشاعر :

ولقد رأيت العلم يو ما حواه اللفظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ^(١)

وأنى أبو العيناء الجاحظ يسأله فى رجل أن يكتب له كتاب عناية إلى صاحب البصرة .
فقال : نعم ! لا تنصرف إلا به ، وكتب له الجاحظ الكتاب ، وختمه ودفعه إليه ، فأتى إلى أبى
العيناء بالكتاب فقال افضضه وأقرأه على لارى ما كتب وأعيده إليه ليختمه ، ففتحه
فاذا فيه : كتابى إليك سألتى فيه من أخافه لمن لأعرفه ، فافعل فى أمره ما تراه والسلام .
فغضب ونهض إلى الجاحظ . فقال : أعرّك باعتنائى بهذا الرجل فكشبت له مثل هذا .
فقال : لا تشكر ذلك فانها إمارة بينى وبينه إذا غنيت برجل . فقال : بل أنت ولد زنا لم
تكن قط لرشد . قال : أتشتنى . قال : لأنها إمارة لى عند الشئاء على إنسان .
ر أدعى رجل النبوة فى زمن المهدي وأدخل عليه . فقال : أنت نبى ؟ قال نعم !
قال : إلى من بعث . قال : أو تركتمونى ان أبعث إلى أحد ، بعثت بالغداة
وحبست بالعشى . فقال : صدقت أعجبك وضحك منه ووصله وأطلقه . قيل
لأشعب : ما بلغ من طمعك ؟ قال : ما رأيت عروساً تزف إلا وظننتها لى ، ولأرأيت
جنازة إلا وظننت أن صاحبها أوصى لى بشىء . ولقد اطاق بى مرة صبيان فنادوا :
يا أشعب يا أشعب . فأضجرونى ، فدفعتهم عنى بأن قلت لهم دار فلان تهب ،
فبادروا . فلما ولوا ظننت أننى صادق فتبعتهم .

قال الشافعى : رأيت بالعراق أربعة أشياء لم أر مثلاً ؛ رأيت جدّة بنت احدى
وعشرين سنة ، ورأيت قلنسوة قاض وسعت ثمانية نوى ، ورأيت شيخاً ابن زئيف
وتسعين سنة يمشى على القيان يعلمهن الغناء وضرب العود . وإذا صلى صلى قاعداً ،
ورأيت والياً سأل بعض من يلم به لى لا يجتمع الناس على بابى ؟ فقال : لأنك عدل
لا تضرب أحداً فوجه إلى امام مسجد الجامع فأمر بضربه بالسياط ، فاجتمع الناس
على بابه وأقبلوا يتزاحمون ، والرجل يقول : ما ذنبى أيها الأمير ؟ والأمير يقول له :
جملنى بنفسك قليلاً يا شيخ .

(١) فى غير الاصل : ولقد رأيت الظرف ده را ما حواه اللاحظ

وولى الحجاج أعرابياً على تبالة فجمع أهلها وقال : إن الأمير أوصانى عليكم
موا الله لا أحسن أن أقضى بين خصمين مرتين ، ووالله لا أوتى بظالم ولا مظلوم
إلا وضربته حتى أقتله ، فتناصف الناس بينهم .

قال المدائني : كان لأبي الاسود الدثلي دكان إلى صدر الرجل يجلس
فيه وحده ويضع بين يديه مائدة ويدعو إليها كل من يمر به وليس لأحد أن
يجلس : فينصرفون عنه . وكان أبخل الناس فمر به صبي من الأنصار . فقال له أبو
الاسود : هلم إلى الغداء يا فتى فأتى إليه فلم ير موضعاً يجلس فيه فتناول المائدة
فوضعها في الأرض . ثم قال : يا أبا الاسود إن كان لك في الغداء حاجة فانزل ، وأقبل
الفتى يأكل حتى أتى على جميع ما في المائدة ، وسقطت آخر الطعام من يده لقمعة على
الأرض فأخذها وقال لا أدعها للشيطان فقال أبو الاسود : والله ما تدعها للملائكة
المقربين فكيف تدعها للشياطين . ثم قال له ما اسمك ؟ قال لقمان فقال أبو الاسود : أهلك
كانوا أعلم زمانهم إذ سموك بهذا الاسم . ولم يعد بعد إلى ما كان يصنع . واسم أبي
الاسود عمرو بن ظالم من بني الدثيل من كنانة ، وكان قد أدرك حياة النبي صلى الله
عليه وسلم وسافر إلى البصرة على عهد عمر رضي الله عنه ، واستعمله على بن أبي
طالب رضي الله عنه على البصرة وكان شيعياً ، وهو أول من وضع العربية وهو القائل :

أمنت على السر أمرءا غير حازم ولكنه في الود غير مريب
إذا ع به في الناس حتى كأنه بعلياء نار آذنت بثقوب
وما كل ذي لب بموتيك نصحه وما كل موت نصحه بلبيب
ولكن متى ما جمعا عند واحد لحق له من طاعة بنصيب
وكان مجاوراً لبني قشير - وهم عمانية - وكانوا يرجونه فإذا أصبح تكاهم .
فيقولون : ما نحن رجمنك ، الله تعالى رجلك فيقول : كذبتهم يا فعلاء أنتم ترمون فتمخطئون
ولو كان الله رمانى ما أخطأنى ؛ ثم باع داره وانتقل عنهم . فقيل له : أبت دارك ؟
فقال : بل بعت جارى ، وفيهم يقول :

يقول الأزدلون بنو قشير طوال الدهر ما تنسى علياً
أحبّ محمداً حبّاً شديداً وعباساً وحمة والوصيا
فإن يك حُبهم رشداً أصيبت ولست بمخطيء إن كان غيماً

فقالوا له : أشككت ؟ فقال : مما شك الله تعالى إذ يقول وأنا أو إياكم لعلّ هذّى
أو في ضلالٍ مبين . وقال عمر بن شبة لما وقعت الفتنة أيام ابن الزبير بالبصرة
مرّ أبو الأسود على مجلس بن قشير . فقال : على ماذا أجمع أمرُكم في هذه الفتنة ؟
قالوا : لم تسألنا يا أبا الأسود ؟ . قال : لأخالفكم فإنّ الله لم يجمعكم على حق .
وأشدّ ابن شبة في هذا المعنى لبعض المحدثين :

إذا شبه الامران يوماً واشكلا على فلم أعرف صواباً ولم أدر
سألت أبا بكر خليل محمد فقلت له ما تستحب من الأمر
فإن قال قولاً قلت شيئاً خلافاً لأنّ خلاف الحق قول أبي بكر

ومن هنا أخذ أبو العيّن قوله في أحمد بن الحصب : لو تأمل أحد أخلاقه
فاجتنبها ، لاستغنى عن الآداب يطلبها . وهذا مما يقرأه أبو العيّن في كلام طويل عمله على
السنة القواد والكتاب والرؤساء وغيرهم لما نكب أحمد . فقال قال محمد بن عبد الله بن طاهر :
غدر بمن آثره وتخطى ما لا يقدره فحل به ما يحذر . وقال ابن طالون : تكبر وتجبّر ودبر
فدتر . وقال موسى بن بغا الكبير لولا أن القدر يغشى البصر لما بهى ابن الحصب فينا ولا
أمر . وقال فارس بن بغا : لم تتم له نعمة لأنه لم تكن له في الخير همه . وقال سليمان بن
يحيى بن معاذ : كان يأمر ولا يأتمر وينهى ولا يزدجر ويعبر ولا يعتبر . وقال جعفر
أبو عبد الواحد : أحسن حسنة سيئة وأصغر سيئة كبيرة . وقال مروان بن عيسى
ابن جعفر الهاشمي : كانت دولته دولة المجانين خرجت من الدنيا والدين . وقال
أبو عبد الله محمد بن زبيدة : بعد من الشرف فتحامل عليه وقرب من ضده فمال إليه .
وقال اسحاق بن ابراهيم الطاهري : كان إذا دنوت منه غرك وإذا بعدت عنه
ضرك . وقال داود بن اسحاق بن محمد بن العباس : ما أحسن قط إلا أخطأ ولا

أصاب الآ تعدى . وقال المولى بن أيوب: نعمته أعجب من نكته . وقال ميمون .
ابن ابراهيم: لو تأمل أحد أخلاقه فاجتنبها لاستغنى عن الآداب أن يطلبها . وقال
الحسن بن محمد بن أبي الشوارب القاضى: كان يحسد المسنين ويحجب أفعالهم
ويذم المسنين ويعمل أعمالهم . وقال عيسى بن فرحان شاه: أعقل منه مجنون وأجن
منه لا يكون . وقال برد الخيار: ما كان أقرب إليه مما يكره وعدوه مما يحب .
وقال ابن حمدون: لئن فضحته القدرة لقد جملته النكبة . وقال احمد بن أبي الأصبع:
ما علمت أن خدمة الشياطين أسير من خدمة المجانين ، كان غضبه إذا أطمناه
أكثر من غضبه إذا عصيناه . وقال ابراهيم بن رباح: كان لا يفهم ولا يفهم وينقض
ما يبرم . وقال سعيد بن حميد: كان يخافه الناصح ويأمنه العاص ولا يبالي أن يراه الله
مسيئاً . وقال جعفر بن الفضل الجرجاني : ما زال يستوحش من النعمة حتى أنس
بالنقمة . وقال ابراهيم بن الجراح: كان إذا أحسن اعتذر وإذا أساء أمتن . وقال محمد
ابن مجمع: مجامعه ردية وأوانيه دنية ضاعت بينهما الرعية . وقال عبد الله بن منصور:
كنت أرثى للسلطان من قربه كما أرثى للأمة من ظله . وقال ابراهيم بن المدبر:
لئن كان حكمه بالخطأ نافذا لقد أصبح الحكم فيه بالصواب ماضياً . وقال عطية
الكاتب: قد عرف غب ماضع وما حصد إلا ما زرع . وقال سلمة بن سعيد: عرف
نصيحتي فعاداني واجتهادى فنافانى . وقال ابن فراشه: كنت إذا نصحتة وقانى وإذا
أخشنته منانى . وقال محمد بن داود التستري: كان لا يرى درهما فى يد سواه إلا
حسبه حقاً له تخطاه . وقال أيوب بن سليمان: كان لا يعلم ولا يتعلم ويستصغر من يتعلم . وقال
يعقوب بن أحمد: كان عليه على وجل وعدوه على أمل . وقال ابن ثوابة الكاتب:
أساء عشرة الأحرار فأصبح مقفراً الديار . وقال عريب: لم يجاور النعمة بالشكر فحل
به ما استحقه بالكفر . وقال شاربه : ما انور بفقده الأيام وأسر به الهلاك الاسلام .
وقال محمد بن الزيات قال المعتصم: لسان بذيء وخالق ردى وطبع مسيء . وقال سعيد
ابن هارون : لقد رحم الله عباده إذ طهر منه بلاده . وقال سليمان بن بشار: اشتد

طغيانه فبعدت أوطانه. وقال ميمون بن هارون: كتب الله له البلاء صراحاً فانبت له كالنملة جناحاً. وقال سليمان بن وهب: كان سفلة المحضرسىء المنظر ردىء الخبر. وقال حجاج بن هارون: والله ما كان له فى الشرف اسباب متان ولا فى الخير عادات حسان. وقال بعض الندماء: ما رأيته ستمى على طعام قط ولا استثنى فى يمين ولا حمد الله على نعمة. وقال تمام بن كثير الهاشمى نديم المتوكل من ولد الحارث ابن العباس: كان النداء عنده عارضة والسخف مروءة وقذف المحصنات فرض. وقال سعيد الصغير: حمل حتفه بكفه ورمى نفسه بسهمه. وقال صالح الحريرى: لا يلى اليه حروان مسه الضر^(١) وقال اسحاق بن صالح بن مرشد: تعرض لسخط الله فأصبح فى لعنة الله. وقال أبو الفرج بن نجاح: ما سمعته قط إلا زارياً على الزمان عاتياً على الاخوان آمناً من الحدثان. وقال محمد بن نصير بن منصور بن بسام: صار سلطان البغى اليه فحلت دائرة السوء عليه. وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي: جهله عامر الغفلة وسفه قاهر الجملة. وقال ابراهيم بن سعيد: إن من عجائب الدهر أن يكون له فى الأمة نهى أو أمر. وقال نمرة الرائض: لو كان ابن الخصيب دابة لكدح بلجامه وتقاعس فى عنانه وحرن فى ميدانه. وقال ابن مزينة: كنت اذا وقع شعره على صدرى احسست النقصان فى عقلى. وقال أبو عبد الله الصفار: ما اكثر خطأ ابن الخصيب واحوجه الى ما نحن فيه حتى يصيب. وقال بعض كتابه: كنت أرى قلم ابن الخصيب يكتب بما لا يصيب - وهو أطول من هذا. وهذا ضد هذه الكلمات التى قيلت بعد وفاة الاسكندر نبه بها حكماء زمانه اخترت منها هنا قطعة ، لما جعل فى تابوت ذهب تقدم إليه أحدهم فقال: كان الاسكندر ينجأ الذهب فقد صار الذهب الآن يخبثوه. وقال الآخر: أنظر إلى حلم النائم كيف انقضى وإلى ظل الغمام كيف انجلى. ودخل عليه آخر فقال: قد أمت هذا الميت كثيراً من الناس لئلا يموت وقد مات الآن. وتقدم آخر فقال: مالك لا تقل عضواً من أعضائك وقد كنت تستقل

بملك العباد . ودخل آخر فقال : مالك لا ترغب بنفسك عن الجحر الضيق وقد كنت
تربغ بهاعن رحب البلاد . ودخل آخر فقال : كان لا يقدر عنده على الكلام قالان
لا يقدر عنده على السكوت . وقال آخر : كان غالباً فصار مغلوباً وآكلاً فصار
مأكولاً . وقال آخر : ما كان اقبح افراطك في التجبر امس مع شدة خضوعك اليوم .
وقلت بنت دارا بن دارا : ما ظننت غائباً بى يغلب وقال رئيس الطباخين : لصدت
الفوائد والقيت الوسائد ولست أرى عميد القوم . وقال آخر : حركنا الملك بسكونه .
وقال آخر : كان الملك امس انطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس . أخذ قوله
حركنا بسكونه - ابو اسحاق بن القاسم أبو العتاهية فقال :

يا على بن ثابت بان منى صاحب جل قدره يوم بنتنا
قد لعمرى حكيت لى غصص المو ت وحركتني لها وسكتنا
وأخذ قوله الآخر فقال :

كفى حزنا بموتك ثم انى نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وكان احمد بن الخصيب القائم بأمر المنتصر بعد قتله أباه المتوكل واستيلائه
على الخلافة فلما مات المنتصر أقره المستعين احمد بن المعتصم على ما كان ولم يطل
عمر المنتصر بعد أبيه . ومن عجائب الاتفاقات ما حكاه بعض أصحاب التواريخ : أن
المنتصر لما أصبح فى الخلافة وجلس للبيعة فرش فى الدار بساط جليل كسروى فوقف
أحد رجال المنتصر على بعض صنائعه وقد نظر إلى دارة فيها صورة رجل ميت مسجى على
سريره وقدامه ملك منتصب على سرير الملك على رأسه التاج والمرآة قيام بين يديه
وعلى رأسه سطور بالفارسية ، فلما نظر الرجل إلى الصورة قرأ ما عليها دمعت عيناه ،
فدعا به وقال له : ما هذا الذى تنظر اليه . قال : لاشىء يا أمير المؤمنين . قال : فلم بكيت ؟ قال
طرفت عينى بشئى . قال : لا بد من الصدق عما رأيت . قال : وقعت عيني يا أمير المؤمنين

على هذه الصورة فبقيت أعجب من حسن تصويرها ثم قرأت ما عليها مكتوب
 فإذا هو «هذه صورة شير ويز بن كسرى قتل أباه فلم يعيش بعده إلا تسعة شهور»
 فأنخذل المنتصر ووجم ولم يعيش إلا هذا القدر، فأقام أحمد بن الخصيب مع المستعين
 على ما كان عليه. وكانت حال أوتامش التركي قد توافقت في أيام المستعين فاستخف
 به ابن الخصيب وجاءه بعض كتابه فأسمعه ما كره فجاء إلى صاحبه فعرّفه ماجرى
 فكرب إلى المستعين فحمله على مكروهه فأمر بهدم داره واستصفاء أمواله وبعثه
 إلى أقریطش^(١) وكان ابن الخصيب غيباً جاهلاً. قال إبراهيم بن المدبر: كنت يوماً
 عنده فقدم الطعام وفيه هليون فأكب عليه، فقلت: أرائنا غيباً في الهليون فقال: بلغني
 أنه يزيد في السهاد ويؤيد في الباء، ثم جالسنا للشرب فغنت بعض القيان:

ان العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلنا

يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركاناً

فقال هذا الشعر لأبي، فقلت: قاتل الله جريراً ما كان أسرقه لشعر أهلك. وماتت
 له بنية فخرج إلى جلسائه يعصر عيفيه وقل قد قلت في هذه الصبية:

غيفض من عبراتهم وقلن لي ماذا لقيت من الهوى واقينا

فقال له بعض جلسائه: أعز الله الوزير هذا مشهور في شعر جرير. فقال: لعله وافقه.

وكان كاتب أوتامش شجاع بن القاسم وابن الخصيب عنده سحبان وأئل، وكان شجاع
 أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا يفهم وإنما علم علامات يكتبها في التواريخ. قال الحسن بن مخلد:

وصفني محمد بن عبد الله بن طاهر للمستعين وسأله أن يدخلني في جملة من ينادمه

فدعاني لمناذمته يوماً، فانا لعمود بين يديه ومنا أوتامش إذ دخل شجاع بن القاسم

ومعه شيء يريد عرضه، فنظرت إليه وقد أخرج سراويله من خفه ووقع على قدميه

ودخل تحت عقبه من إحدى رجليه وهو يسجبه ويدوسه، فغمزت محمد بن عبد الله

فضحك ورأى المستعين ذلك فسأله عن سبب ضحكه فدافعه. فقال: له بحياتي فقال

(١) أقریطش: جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر أفريقية لوبيا. حكاه ياقوت.

له: سل الحسن ياسيدي فنظر إلى وقال هيه يا حسن!! فأومأت إلى سراويل شجاع فضحك حتى استلقى، وقال: ويلك يا شجاع ما هذا؟ قال الساعة يا سيدى داسنى كلب فخرقت سراويله وثيابه، فزداد ضحك المستعين وأهل المجلس وضجر أوتامش من ضحكهم بكاتبه. وشأل شجاعا بعض الهاشميين حاجة. فقال لهم: ليس الأمر فيها إلى وهو للأمير-يعنى أوتامش- وهو يجلس أول من أمس- يعنى بعد غد - وكانت جميع أتباع شجاع تخاليط، وجملة كلامه أغاليط. قال ابن عمار عملت شعرا رانجيا لامعنى له وواقفت سعيد بن عبيد على أن يروى الشعر رجلا من الهاشميين وكان لنا صديقا وكان جلدأ شهما على أن ينشده شجاع بن القاسم ويعرفه أنه مدح له وضمننا له على ذلك ألف درهم والشعر:

شجاع لجاع كاتب لا تب معاً كجلاه ود صخر حطه السيل من عل
خبيص لبيص مستمر مقوم كثير أثير ذو شمال مهذب
بليغ لبغ كلاً شئت قلته فان كنت مسكناً عن القول فاسكت
فطين لطين آمر لك زاجر حصيف لصيف كل ذلك يعلم
أريب لبيب فيه فهم وعفة عليم بشعر حين أنشد يشهد
كريم حلیم قابض متبسط اذا جثته يوماً إلى البذل يسمح

فوقف إليه. وقال: أيها الوزير ليس الشعر من صناعتى ولكنك أحسنت إلى وإلى أهلى بما أوجب شكرك فتكافئت أبياناً مدحتك فيها فتفضل بسماعها. فقال: قد أغناك شرفك وحالك عن الشعر. فقال: لا بد أن يتفضل الأمير بسماعها، فأنشد الأبيات فشكره عليها وسرّبها سروراً زائداً ودخل إلى المستعين فأخرج له صلة عشرة آلاف درهم وأجرى له ألف درهم في كل شهر. فقال لها الطالبي: أنتم أوصلتما ذلك إلى الله لا أخذت منكم شيئاً ولولا اتساعكم لوصلتكم بما وُصِلْتُ به. وقدم إليه شاعرٌ محسنٌ فقال له: قد سبق إلى من الوزير وعده وتلاه شكر والوزير حقيق بالإنجاز وعده وقبول شكرى وأنشده:

أبو حسن يزيد المملك حُسنا ويصدق في المواعد والمقال
جبانٌ عن مذمة آملية جرى في العطية والنوال
اجل الله في سروجهر فأعطاه المهابة بالجلال

فقال له: وما يدريك أنى جبان ولم يفهم معناه . فقال : أعزك الله إنما قلت أنك تجبن عن البخل ولا تبخل بشيء، وإلا فأنت شجاع كأسمك . فقال : ما أعطيك على هذا الشعر شيئاً ولكن على ميلك وشكرك، ووقع له بألف دينار ولو فهم ما قال لجعل مكان الألف ألوفاً . وفي المستعين يقول البحترى من قصيدة طويلة :

وما لحية القصار حين تنفشت بحالبة خيراً على من يناسبه

بحور ابن جلاء على الشعر عنده ويغدو شجاع وهو للجهل كاتبه

وكان الحسن بن مخلد مضطرباً بأمر الدواوين عالماً بالدخل والخرج، ولم تكن له صناعة في الكتابة ولا استحقاق للمنادمة . قال أبو الفضل أحمد بن سليمان : جمعى والحسن بن مخلد مجلس فيه أبى فسألنى عن سئى فأخبرته وأخبرنى عن سنّه فرأيتُهُ أكبر منى بعشر سنين . فقلت له : قال لى الزبير بن بكار كانت العرب تقول العشرة بين المشايخ لدة . فغضب وظن أنى قد شتمته ، والتفت إلى أبى فقال : يا أبا أيوب ليس كل من علم شيئاً من العربية يطلق لسانه فى الناس بالشتم . فقال له أبى : انه لم يرد مكروهاً وإنما أراد التقرب منك ومعنى لدة ترب فلم يسكن إلى أن أفرقنا

سقط أبو الحارث حمير من سطح، ف قيل له : أ كان السطح مرتفعاً ؟ قال : لا تسأل عن شيء استطبت برد الهواء قبل الوصول إلى الأرض . وقال رجل : أشتهى أن أرى خلفى، فجاءه أبو الحارث بمرآة فجعلها تلقاء وجهه . وتشهى قوم ضربوا من الطعام . فقالوا : ما تشهى يا أبا الحارث ؟ فقال : الوفاء بهذا . وأكل يوماً مع قوم رؤساء فتبادروا إلى الأعين ليقتلوهما فتنحى ناحية . فقالوا : مالك ؟ قال : ظننتكم ناساً فإذا أنتم نسور . وجلس يتغدى مع الرشيد وعيسى بن جعفر فأتى

يَحْوَانٍ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَرْغِفَةٍ فَأَكَلَ أَبُو الْحَارِثِ رَغِيفَهُ قَبْلَهَا . وَقَالَ : يَا غَلَامُ فَرَسِي !
فَفَزَعَ الرَّشِيدُ وَقَالَ : وَيْلَكَ مَا لَكَ ؟ قَالَ أُرِيدُ أَنْ أُرَكِبَ إِلَى ذَلِكَ الرَغِيفِ الَّذِي
بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَضَحَكَ الرَّشِيدُ وَأَمَرَهُ بِجَائِزَةٍ . وَمَالَ أَبُو الْحَارِثِ عَلَى زُفَرِ بْنِ الْحَارِثِ
وَعِنْدَهُ جَوَارِ يَغْنِينٍ وَأَبُو الْحَارِثِ جَائِعٌ . فَقَالَ : اسْقُوا أَبَا الْحَارِثِ وَغْنِينَهُ مَا يَقْتَرِحُ
فَقَالَ : بِحَيَاتِي غْنِينٌ :

خَلِيلِي دَاوِيْمَا جَوِي ظَاهِرًا فَمَنْ ذَا يَدَاوِي جَوِي بَاطِنًا
فَقَالَ زُفَرُ غْنِينٌ :

مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ يَحْرُمُوهُ وَسَائِلُ اللَّهِ لَا يَخِيبُ
وَنَظَرَ أَبُو الْحَارِثِ إِلَى بَرْدُونَ يُسْتَقَى عَلَيْهِ الْمَاءُ فَقَالَ :
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فِي صَالِحِ الْأَخْلَاقِ نَفْسُكَ فَاجْعَلِ
لَوْ أَنَّ هَذَا الْبَرْدُونَ هَمَلَجٌ لَمَا فَعَلَ بِهِ هَذَا . وَنَصَبَ مَعَ رِفْقَاءَ لَهُ قَدْرًا وَجَعَلَ فِيهَا لَحْمًا .
فَلَمَّا تَلَهَّوْجَتْ نَشَلٌ بَعْضُهُمْ قِطْعَةً وَقَالَ تَحْتَاجُ إِلَى مِلْحٍ ، وَنَشَلٌ آخَرَ قِطْعَةً وَقَالَ تَحْتَاجُ
لِي أَبْزَارٍ ، وَنَشَلٌ آخَرَ قِطْعَةً وَقَالَ تَحْتَاجُ إِلَى بَصَلٍ ، فَرَفَعَ أَبُو الْحَارِثِ الْقَدْرَ وَقَالَ :
وَاللَّهِ تَحْتَاجُ هَذِهِ الْقَدْرَ إِلَى لَحْمٍ

وَسَرَقَ مَدَنِي قَمِيصًا فَبِعَثَهُ مَعَ ابْنِهِ يَبِيعُهُ فَسَرَقَ مِنْهُ فِي الطَّرِيقِ ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ
أَبُوهُ : بَعْتَ الْقَمِيصَ قَالَ نَعَمْ ! قَالَ : بَكَمْ ؟ قَالَ : بِرَأْسِ الْمَالِ . دَعَا بَعْضُ الْمُلُوكِ
بَأَنِي عُلْقَمَةَ الْمُرُورِ وَآخَرَ مَجْنُونٍ لِيَضْحَكُ مِنْهُمَا ، فَشَتَمَاهُ فَغَضِبَ . وَقَالَ : السَّيَاطُ
يَاجِلَادِينَ . فَقَالَا : كُنَّا مَجْنُونَيْنِ فَصَرْنَا ثَلَاثَةَ ، فَضَحَكَ وَأَجْزَلَ صِلَتَهُمَا / وَطَبَخَ بَعْضُ
الْبُخْلَاءِ قَدْرًا فَقَعَدَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ يَا كَلَانَ . فَقَالَ : مَا أَطْيَبَ هَذَا الْقَدْرَ لَوْلَا الزَّحَامُ .
قَالَتْ : أَيُّ زَحَامٍ هَـ هُنَا إِنَّمَا أَنَا وَأَنْتَ . قَالَ : كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَنَا وَالْقَدْرُ
نَزَلَ شَيْخٌ إِعْرَابِي مِنْ بَنِي نَهْشَلٍ يَكْنَى أَبَا الْأَغْرَ عَلَى بِنْتِ اخْتِ لَهُ مِنْ قَرِيشٍ
بِالْبَصْرَةِ وَذَلِكَ فِي شَهْرِ مِضَانَ ، فَخَرَجَ النَّاسُ إِلَى ضِيَاعِهِمْ وَخَرَجَ النِّسَاءُ يَصْلِينَ
فِي الْمَسْجِدِ وَلَمْ يَبْقَ فِي الدَّارِ إِلَّا الْأُمَمَاءُ ، فَدَخَلَ كَلْبٌ قَرَأَى بَيْتًا فَدَخَلَهُ وَانْصَفَقَ

الباب فسمع الأماء الحركة فظنن لصاً دخل الدار ، فذهبت إحداهن إلى أبي الأغر فأخبرته فأخذ عصاً ووقف على باب البيت . فقال : إيها والله ! إني بك لعارف فهل أنت من لصوص بني مازن وشربت نبيذاً حامضاً خبيثاً حتى إذا دارت الأقداح في نفسك منتك نفسك الأمانى فقلت أطرق درو بنى عمرو والرجال خلوف والنساء يصابين في مسجدهن فأسرقهن ، سواء لك والله ما يفعل هذا حر ، بثما منتك نفسك فأخرج بالعمو عنك وإلا دخلت بالعقوبة عليك ، وأيم الله لتخرجن أولاً تهتفن هتفة يلتقي فيها الحيان عمرو وحنظلة ويصير زيد زيداً ويحییء سعد بعدد الحصا وتسيل عليك الرجال من هاهنا وهاهنا ، ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود في بني تميم فلما رأى أنه لا يجيبه أخذه باللين . فقال : أخرج بأبي أنت منصوراً مستوراً إني والله ما أراك تعرفني ولئن عرفتني لو ثقت بقولي واطمأنت إلى أنا أبو الأغر النهشلي ، وأنا خال القوم وجلدة ما بين أعينهم لا يعصون لي رأياً ، وأنا خفير كفيل أجعلك شحمة بين أذني وعاتقي فأخرج فأنت في ذمتي ، والا فعندي قرصتان أحداهما لابن أختي البر الوصول فانتبذها حلالاً من الله ورسوله . وكان الكلب إذا سمع هذا الكلام أطرق وإذا سكت وثب يريد الخروج ، فتهافت أبو الأغر ثم قال : يا ألام الناس أراني بك الليلة في واد وأنت في آخر ، وأنت في داري قلب البضاء والصفراء وتصيح فتطرق وإذا سكت عنك وثبت تريد الخروج ، والله لتخرجن أو لألجنّ عليك ، فلما طال وقوفه جاءت جارية وقالت : أعرابي مجنون والله ما أرى في البيت أحداً ، ودفعت الباب فخرج الكلب مبادراً ووقع أبو الأغر مستلقياً . فقلن له : قم ويحك فانه كلب . فقال : الحمد لله الذي مسخه كلباً وكفى العرب حرباً .

وقد روى ابن قتيبة وغيره هذا المقام لأبي حية النخري واسمه الهيثم بن الربيع ، وعليه قول أبي علي محمد بن الحسن بن المظفر الخاتمي في الحكاية التي وضعها على أستاذه علي بن هارون وآتى فيها مليحة نادرة . وزعم أنه أحسن حس بردون في أصطبله فراعته وتوهمه لصاً - وهي طويلة في نحو أربعة أجلاد . وقال في أولها :

هذه حكاية أبي الحسن على بن هارون مع اللص الذي تخيل أنه دخل داره أخبرني بها أبو القاسم القنطري وغيره من حاشية أبي الحسن ، ولفظ بعضهم يزيد على بعض . فجمعت الروايات على اختلافها ونظمت شتيتها وهذبت العبارة عنها وأوردت المعاني مكسوة من النثر الرائع والتشبيه الواقع ما يطرب سامعه ويروق متصفحه ، ليكون وروده أغرب وحفظه أقرب . ونحلت أبا الحسن وجماعة ولده قطعاً من بارع الشعر تناسب قطع الرياض نبت القطر . صنعها على ألسنتهم ونسبها إلى ارتجازاتهم . وتمثلت عنهم بفقر من أشعار العرب أسميت قائلها ، لئلا تلبس بما اختصاصت في نظمه وما توفيتي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وقال في آخرها : لقد كان في نبأ هذه الكريمة تبصرة لمستبصر ، وتذكرة لمن تذكر . هذا ولم تقترح ^(١) فيها الأقران ، ولا تنازلت فيها الفرسان . ولا استبهمت فيها البهيم ، ولا أريق فيها مل . محجم دم ، وإنما هو تخييل جبان ، وتسويد جنان . ولقد عزونا إلى هذه الطائفة من التشبيهات الباهرة والأمثال النادرة ما يبعد جداً عن مثالها ، وأما بعثنا على ذلك أسر الشبيبة ومراح الصبا ولين الغصن وفضل القدرة واستجابة ^(٢) ما تدعيه من أفانين الكلام ، ونستغفر الله من فضول القول كما نستغفره من فضول العمل .

وأبو حية النخيري من أحسن الناس شعراً وأرقهم فيه طبعاً - على لؤثة كانت به ، وهو القائل :

سقتك الغواصي من أهاضيب فترق	ألا أيها الربع القواء ألا انطق
حرار الصبا في العارض المتألق	مرايمع وسمي تسوق نشاطه
يد الحى في زى بعينى مونق	وما أنت إلا ما أرى بعد ما أرى
صحيح ولا الشعب الذى انصاع ماتق	غراب ينادى يوم لا القلب عقله
شقيت بتعجال الغراب المنعق	جزيت غراب البين شراً لظالما

(١) كذا في الأصل ولعله : تقترح من المقارعة (٢) في الأصل واستجابة .

ورقراقة تفتّر عن متبسم كنّور الأفاحي طيب المتذوق
إذا امتضغت بعد امتناع من الضحى أنابيب من عود الأراك المخلّق
سقت شعث المسواك ماء غمامة فضيضاً بخرطوم العراق المصفق
فإن ذقت فإها بعدما سقط الندى بعطفي نجدراه رداح المنطق^(١)
شممت العرار الفض غب هميمة ونور الأفاحي في الندى المترقّق
شرقت برّيا عارضيهّا كأنّما شرقت بدار العراق المعنق^(٢)

هذا شعر ظريف الصنعة حسن الوشى في السبك : وقد ملح ماشاء في وصف الثغر
وطيب النكهة ، وهو معنى حسن جميل

قال ابو العباس بن الفرّج الرياشي سمعت الأصمعي يقول : أحسن ما قيل في
وصف الثغر قول ذى الرمة :

وتجلو بفرع من أراك كأنه من العنبر الهندي والمسك ينفح^(٣)
ذرى أقحوان واجه الليل وارتقى اليه الندى من راحة المتروّح
هجان الثنايا مغربا لو تبسمت لأخرس عنه كاد بالقول يفصح
وكتب كشاجم إلى بعض القينات وأهدى إليها سواكا :

قد بعثناه لكى تجلى به واضحا كاللؤلؤ الرطب الأغر
طاف منه العرف حتى خلته كان من ريقك يُسقى في السحر
ليتنى المهدي فيروى عطشى برد أنيابك في كلّ سحر
وأما والله لو يعلم ما حظه منك لأثنى وشكر
وقد أحسن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إذ يقول :

وإذا سألتك رشف ريقك قلت لي أخشى عقوبة ذلك الأملاك
ماذا عليك دفعت قبلك للمثرى من أن أكون خليفة المسواك

(١) - (١) كذا في الأصل ولم أجد تصحيحهما مع كثرة البحث وفي البيت الأخير
ياض بين بدار وبين تنعراق (٢) يصبح والتصليح من ديوان المعاني في الأصل

أيجوز عندك أن يكون متيم صبُّ بجمك دون عود أراك
وقال ابن الرومي :

ألا طالما سؤت الغيور وساءنى وبات كلانا من أخيه على وجر
وقبلت أفواهاً عذاباً كأنها ينابيع خمرٍ حصبت لؤلؤ البحر
وقال :

تعلك ريقاً يطرد النوم برده ويشفى القلوب الخائعات الصواديا
وهل تعب حصاؤها مثل ثغرها يصادف إلا طيب الطعم صافيا
وقال :

وما تعترها علة بشرية من النوم إلا أنها تتحير
كذلك أنفاس الرياض بسحرة تطيب وأنفاس الورى تتغير
وقال ابن المعتز :

بأبي حبيب كنتُ أعهدُهُ لى واصلاً فازورَّ جانبه
عقبُ الكلام كمسكة نفخت من فيه ترضى من يُماتيه
وقال العطوى :

ذات خدين ناعمين ضنيـنين بما فيهما من التفاح
وثنايا وريقة كغدير من غفار وروضة من أقاح

أكل الحجاج مع رجل بيضا فأقبل يأكل المخ ويرمى اليه بالبياض . فقال
الرجل : أيها الأمير عدل العجة . وكان بعض الأكَسرة يطير فلقه رجل أعور فأمر
بحبسه فأقام مدة ثم أطلقه فتعرض له فقال : لم حبستى ؟ قال : تشاءمت بك . قال :
فأنت أشأم منى خرجت من قصرِكَ فاقبقتى فلم تر الا خيراً ؛ وخرجت أنا فلقيتك
فحبستى . فقال الملك : صدق وأمر له بصلة . قال رجل لأحدب : ثن رفستك لأقيم
حديثك ! قال : إنك إذا لعظيم البركة على . قال الفضل اليزيدى : كان محمد بن

نصر من منصور بن بسام أشد الناس همّة وآلة وغناء ، وكان ناقص الأدب . وكنت
أختلف إلى ولده على يقرأ على الشعر ، فدخلت يوماً وهو يشرب وعنده عبد الله
ابن محمد بن اسحاق وكان مثله في الجهل وقد مدّت الستارة فغنت القينة :

ألا حيّ الديار بسعد إني أحبّ لبّ من سكن الديارا
أراد الظاعنون ليحزنوني فهاجوا صدع قلبي فاستطارا
فقال عبد الله بن محمد بن اسحاق لمحمد : لولا جهل الاعراب ماجرى ذكر السعد
ها هنا . فقال له محمد : لا تفعل فانه يقوى معدم ويصلح أسنانهم .
وكان على بن محمد : مليح المقطعات حلوا الشعر خبيث الهجاء ، وليس له
حظ في التطويل إنما يسنح له المعنى فاذا أراد أن يركب عليه معنى آخر استهدم
بناؤه ، وهو القائل في أبي يحيى المنجم يرثه :

قد زرت قبرك يا علىّ مُسَلِّماً ولك الزيارة من أقلّ الواجب
ولو استطعت حملتُ عنك ترابه فطالما عني حملت نواثي
ودمي فلو أنّي علمت بأنه يسقى ثراك سقاء صوب الصائب
لسكبته أسفاً عليك وحسرة وجعلت ذاك مكان دمع ساكب
ولئن ذهبت بملء قبرك سوّداً لجعل ما أبقيت ليس بذاهب

- وقد أنشد هذه الأبيات أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري لغيره . وقال :
كم قد قطعتُ إليك من ديمومة نطفُ المياه بها سواد الناظر
في ليلة فيها السماء مرّدة سوداء مظلمة كقلب الكافر
وقال في جحطة البرمكي :

يامن هجونا هفنا أنت وبيتُ الله أهجانا
سيان إن غنى لنا جحطة أو مر مجنون بنا قرنانا

وقال في المعتضد وقد ختن ولده :

انصرف الناس من ختان يرعون من جوعهم خزانا

فقلت لا تعجبوا لهذا فهكذا تختن اليتامى
وقال يستطرد بالمعتضد :

وعدت بوعدٍ فأخلفتهُ وما كانَ ضرركَ أن لا تعدُ
تنب الثناء وتأبى العطاء وما تمَّ ذلك للمعتضد
وقال فى العباس بن الحسن لما ولى الوزارة :

وزارة العباس من نحسها تستقلع الدولة من أسها
شبهتهُ حين بدى مُقبلا فى خلعٍ يُخجلُ من لبسها
خازنة الكسوة قد قدرت ثياب مولاها على نفسها
وقال ابنُ بسام فى أبيه وكان مولعاً بهجائه :

خبيصةٌ تعقد من سكره وندمة تطبخ من قنبره
عند قى أسمحُ من حاتمٍ قدرين فى انبىء على مجمره
وليس ذا فى كل أوقاته يكتسها فى الدعوة المنكره

وكان ابن المعتز يهاجيه ، فمن ذلك قوله فيه (١) :

يا ثقيلا على القلوب إذا ع ن لها أيقنت بطول الجهاد
يا قذى فى العيون يا حرقه يه ن التراقى حزاره فى الفؤاد
يا طلوع العذول ما بين ألف يا غريماً وافي على ميعاد
يا ركوداً فى يوم غيمٍ وصيف يا وجوه التجار يوم الكساد
خل عذاً فأما أنت فينا واو عمرو أو كالحديث المعاد
فأجابه ابن بسام بقوله :

فقدتك يا قذاة فى شرابٍ دخلت من الدناءة كل باب

(١) كذا فى الاصل وفى الآمالى لابی على : أنها لمحمد بن نصر بن بسام ،
ويلاحظ ان المؤلف يريد هنا ولده على بن محمد .

لنسيم الفعل أشأم من غراب وضع القدر أطفل من ذباب
وأثقل حين تبدو من رقيب وأكذب حين تنطق من سراب
واغدر للصديق من الليالي وأنكى للقلوب من العتاب
ومن ملح مافي هذا الباب قول جحظة :

يا لفظة النعى بموت الخليل يا وقفة التوديع بين الحمول
يا سربة النازح يا أجرة المذ زل يا وجه العذول الثقيل
يا طلعة النعش ويا منزلاً اقفر من بعد الأنيس الحلول
يا نهضة المحبوب عن غصبة يا نعمة قد آذنت بالرحيل
ويا كتاب جاء من مخلف للوعد مملوءاً بعذر طويل
يا بكرة الشكلى إلى حفرة مستودع فيها عزيز الشكول
يا وثبة الحافظ مستعجلاً لصرفه الثمينات عند الأصيل
ويا طبيباً قد آتى باكراً على أخى سقم بماء البقول
يا شوكة في قدم رخصة ليس إلى إخراجها من سبيل
يا عثرة الجذوم في رجله ويا صعود السعر عند الميل
ياردة الحاجب عن قسوة ونكسة من بعد برء العليل

وجحظة هذا أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك . قال أبو الحسن محمد بن محمد بن مقالة الوزير: سألت جحظة من لقبك بهذا اللقب ؟ فقال : أبو العبر لقينى فقال : ما هو حيوان إن فكّه وه أتاناً آلة للمراكب البحرية . فقلت : علق إذا فكّه وه صار قلعاً . فقال : أحسنت يا جحظة فلزمنى هذا اللقب . وكان طيب المناء حسن المسموع ؛ إلا أنه ثقيل اليد فى الضرب . وكان حلو النادرة كثير الحكاية صالح الشعر ، ولا تزال تندر له الأبيات الجيدة .

أنشدت سكينه بنت الحسين رضى الله عنها قول الشاعر :

فما للنوى لا بارك الله في النوى وعهد النوى يوم الفراق دميم^(١)

قال ابو علقمة النحوى لجارية كان يهواها : يا خريدة أخالك عروبا فما بالنا نَمَقُكَ وَتَشْنِئِينَا . فقالت : مارأيت أحدا يحب أحداً ويشتمه سواك . الخريدة الناعمة اللينة ، والعروبة المتحبة الى زوجها . وقال بلال بن أبى بردة لجلسائه : ما العروب من النساء ؟ فاجوا وأقبل اسحاق بن عبد الله بن الحارث فقالوا : قد جاءكم فسؤوه . فقال : هى الخفرة المتبدلة لزوجها وأنشد

يعرين عند بعولهن اذا خلوا فاذا خرجن فانهن خفار

واللمة المحبة . وقد حكى قول أبى علقمة عبد الرحمن الطلمحي . واتى الهيثم بن العريان بفریم قد مظل غريمه ديناراً . فقال : ماتقول ؟ قال انه ابتاعنى عنجراً واستمسأته حولا فصار لا يلقانى فى لقم إلا اقتضانى . فقال الهيثم . أمن بنى أمية أنت ؟ قال لا قال : فن اكفائهم من بنى هاشم ؟ قال لا قال : ويلي على ابن الفاعلة فعلى من تتكلم بهذا الكلام ؟! السياط فلما جرد قال : أصلحك الله ان إزارى مرعيلة فقال : دعوه فلو ترك التثاقل بالغريب فى وقت لتركه الآن : العنجر عجم الزيب . والاقم الطريق . والمرعيلة الحلقة . دخل ابو العيناء على ابن منارة الكاتب وعنده ابو عبد الله بن المرزبان . فقال لابن منارة : احب أن اعبت بابى العيناء . فقال له : لا تقوم به فابى الا العبت به ، فلما جلس أبو العيناء قال له يا أبا عبد الله لم لبست جباعة ؟ قال : وما الجباعة ؟ قال التى ما بين جبة ودراعة : قال ابو العيناء . لأنك صنديم . قل : وما صنديم ؟ قال الذى هو ما بين صفعان ونديم .

ودخل ابو بكر سيبويه المصرى^(٢) نافلة البصرة على كافور الأخشى وعنده بعض ندمائه . فقال : أيها الأستاذ دعنى اهاتره . فقال إنك لا تطيقه . قال : لا

(١) كذا فى الأصل ولعل هناك جواب لحظظة أو لغيره عن هذا البيت فسقط من الأصل .

(٢) فى دار الكتب المصرية ترجمة حافلة بنوادره واخباره وقد طبعت فى العام الدائى

من ذلك . قال شأنك قال : يا أبا بكر ما حد الرأس ؟ قال ما احاط به جربانك ، وأدبك عليه سلطانك ، ولا عبك فيه اخوانك ، فحجل الرجل . وضحك كل من حضر . وكان سيبويه هذا يشبه بأبي العيناء في سرعة جوابه وجودة بديهته وكثرة روايته . وكان الناس يتبعونه ويكتبون ما يقول ، وكان قد شرب البلاذر فعرضت له حدة مفرطة . وأحضره ابو بكر محمد بن الخازن . فقال : بلغنى بلاء لسانك وكثرة أذاك للناس وقبيح معاملتك للأشراف ، فاحذر أن تعود فيما لك منى اشد العقوبة . وصال عليه بالكلام . وكان الصبيان يتواعون به اذا مر ويصيحون : يا خازن يا خازن . أخرج عليه فيغضب فقال له ذلك يوماً صبي وأبو بكر المعيطى حاضر فضحك المعيطى . فقال للصبي : ضرب الله عنق الخازن كما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنق عقبة بن ابى معيط يوم بدر على الكفر . وضرب ظهر أهلك بالسوط كما ضرب على بن أبى طالب رضى الله عنه ظهر الوليد بن عقبة على شرب الخمر ، والحقك يا صبي بالصبية . فقام المعيطى كأنما نشر من قبر — يريد بقوله للصبي والحقك بالصبية . قول النبي صلى الله عليه وسلم لعقبة بن ابى معيط وقد قال له فمن للصبية يا محمد ؟ قال : النار والعياذ بالله منها . دخل مفلح الحسنى الحمام وكان من جملة أصحاب الحسن بن عبد الله بن طنج بن جف الفرغانى واليه ينسب . فأتى سيبويه ليدخل فقبل له : الأمير مفلح أخلاه فأصبر ساعة . فقال : أو مثلى يمنع الدخول ؟ لا أتقى الله مغسوله ، ولا باغى سوله ، ولا وقاه من العذاب مهوله . وجلس حتى خرج . فقال له : إن الحمام لا يحل إلا لأحد ثلاثة مبتلى في قوله ، أو مبتلى في دبره ، أو سلطان يخاف من شره ، فأى الثلاثة أنت ؟ قال أنا المغرور أعزك الله . وهذا كجواب أشمول الأخشىدى ، وكانت له دار مشرفة على النيل يتنزه اليها في زمان المد وطيب الهواء ، وكان يجاوره العباس بن البصرى في راقوبة له ، فاحتسب في تلك الدور وقيل لكافور إنها مبنية في فناء النيل فأمر بهدمها . فدخل ابن البصرى على كافور فأنشده :

يا أيها الأستاذ يا ذا الذي همته أعلى من السكوكب
أنظر إلى وإلى فاقى وارث لضعفى ولما حلّ بى
فأن لى بالشط راقوبة أضيق من قارورة الحلب
صغيرة ضيقة عرضها عرض سرير جاء فى مركب
كأنها رجل سارية أخرجها (١) أوزبوب
فلو رأيت الزنج فى شطنا وقد أحاطوا بأبى تغلب
عمّ ذاهمراء مصقولة وفاس ذا معتدل الحرب
فى يدهم محلب (٢) هائل يارب سلمنى من الحلب
إن أخذتنى ضربة منهم رأيتنى أرقص كالأحذب
قد احدق الصفع بجيراننا بالشط بالأقرب فالأقرب
وان تماديت وخليتنى خشيت أن أدخل فى اللواب

فضحك كافور ، والتفت إلى شمول . وقال : أنت بجواره ؟ قال : أنا مالى دار
أعز الله الأستاذ قد سلمت . وكان أبو الفضل بن خنزابة ربما رفع أنفه تيمناً .
فقال له - وقد رآه فعل ذلك - اشمّ الوزير أيده الله رائحة كريهة فشمّر أنفه ؟
فحجل فاطرق . واستعمل أبو بكر النهوض فاقبه رجل فقال : من أين يا أبا بكر ؟
فقال : من عند الزاهى بنفسه ، المذل بعرضه . الثائه على أبناء جنسه . وكانت
بنت الأخشيد تحته فلذلك قال المذل بعرضه . وأتى مسلم بن عبد الله الحسبى
وهو من أهل الحجاز وأوطن مصر فحجب عنه . فقال : قولوا له يرجع إلى لبس
العباءة ، ومص النوى ، وسكنى الفلا ، فهو أشبه به من نعيم الدنيا . وكانت دار
أبى جعفر أحمد بن نصر التاجر المغربى بمصر معروفة بالشؤم من قبل أبى جعفر
فكان أبو بكر يرميها فيقول : يا سيدتى تعودين إلى عادتك الجميلة ، وأخباره كثيرة .

(١) فى الأصل بياض وفى الوسط حرف الف فقط (٢) كذا بالخاء المهملة
فى المكانين ولعلها بالخاء المعجمة وهو المنجل .

لما جعل عيسى بن موسى وليّ العهد بعد المهدي وكان وليّ عهد المنصور ، قال لمُخَنَّث قدّم إليه وقد جُنا جناية : ما أراك تعرفني فكنت تفعل هذا الفعل ؟ قال : بلى والله أيها الأمير إني بك لعارف فانت الذي كنت غداً فصرّت بعد غدٍ . خرج مُخَنَّث في شدة الهاجرة ببغداد وهو وقت لا يتصرف فيه أحد ، فلقبه رجل فقال : لكم الليل ولنا النهار . فقال : صدقت ولكن رأيت وجهك فظننته قطعة من الليل . مرض رجل فجاء أبو العبر يعوده وقد ثقل ، فصاحت امرأته : مَنْ لي بعدك ياسيدي ؟ قال : فغمزها أبو العبر وأوماً إليها أنا لك بعده ، فلما مات الرجل وانقضت عدتها تزوجها أبو العبر فأقامت عنده حيناً ثم حضرت أبا العبر الوفاة فجاء عواده فصاحت من لي بعدك ياسيدي ؟ ففتح عينيه . وقال : لا يغمزها إلا من تكون أمه زانية .

وينا ابن أبي ليلى في مجلس القضاء إذ تقدم إليه امرأتان عجوز وشابة . فقالت الشابة : أنا أصاح الله القاضي امرأة مبدنة وقد بهرنى النفسَ فإن رأى القاضي أن يأذن لي فأحسر عن وجهي فليفعل . فقالت العجوز : أصاح الله القاضي إنها من أحسن الناس وجهاً وإنما تريد أن تحدع القاضي لأمتعها الله بما وهبها من الجمال . فقال لها ابن أبي ليلى : إذا أنت شددت قناعتك فشأنك ووجهك ، فحسرت الفتاة عن وجه جميل . ثم قالت : أصلح الله القاضي إن هذه عمتي وأنا أسميها أمي لكبر سنّها ، وإن أبي مات وخلف مالا وخلفني في حجرها فجعلت تموّني وتحسن التدبير في المال وتوفيره ، على أني إذ بلغت مبلغ النساء فخطبني ابن عم لي فزوجتني منه فكان بي وبه من الحب مالا يوتف على صفته ، ثم إن ابنة لعمتي أدركت فجمّلت هذه ترغب زوجي فيها فتاقت نفسه إليها فخطبها . فقالت : لست أزوجهما حتى يجعل أمر بنت أخي في يدي . فقال لها : قد فعلت ! فلم أشعر حتى أتاني رسولها فقال : عمّك تقرئك السلام وتقول لك إن زوجك خطب ابنتي وإني أبيت أن أزوجهما منه حتى يجعل أمرك في يدي

ففعل ذلك فأنت طالق ، فحمدت الله تعالى على ما بليت به . وإن زوج عمتي هذه قدم من سفر فسألني عن قصتي فأخبرته فقال تزوجين نفسك فقلت نعم ! على أن تجعل أمر عمتي في يدي . قال لي : فما تصنعين إذا ؟ قلت ذلك إلى إمام أن أعفو وإما أن أقصص . قال : قد فعلت ، فأرسلت إلى عمتي أن زوجك خطبني وإني أبيت عليه حتى يجعل أمرك في يدي ، ففعل فأنت طالق ! فضحك ابن أبي ليلى ! فقالت المعجوز : لاتضحك أيها القاضي فالذي بقي أكثر وأعظم . فقالت الشابة : ثم أن زوج عمتي مات فجعلت تخصمني في ميراثه فقلت لها : هو زوجي وأنا أحق بميراثه ، فأغرت ابن عمي ووكلته بخصومتى ففعل . فقلت : يا ابن العم إن الحق لا يستحي منه وقد صلحت لك إذ نكحت زوجاً غيرك فهل لك في مراجعتي ؟ فقال : كان ما كان ولا ذنب لي فيه بل كنا على أشد رغبة وأعظم محبة ثم قال أو تفعاين ؟ قلت : على أن تجعل أمر بنت عمتي بيدي . قال : قد فعلت فأرسلت إلى بنت عمتي أن زوجك خطبني وإني أبيت عليه حتى يجعل أمرك في يدي ففعل ، فأنت طالق . فقالت المعجوز : أصلح الله القاضي أيحل هذا أطلاق أنا وابنتي ؟ فقال ابن أبي ليلى : نعم بالتمس والنكس لك . ثم ركب إلى المنصور فأخبره حتى ضحك وخص برجليه ، وقال أهد الله المعجوز ولا فرج عنها .

أتى رجل نحاساً فقال : اشتر لي حماراً ليس بالصغير المحتقر ، ولا الكبير المشتهر ، إن أشبعته شكر^(١) ، وإن أجمعه صبر ، وإن خلا الطريق تدفق ، وإن كثرت الزحام ترفق ، لا يصدم بي السوارى ، ولا يدخل بي تحت البواري . إن ركبته هام ، وإن ركبه غيري نام . فقال له النحاس : أنظرني قليلاً ، فإن مسح الله ابن أبي ليلى القاضي حماراً اشتريته لك .

وكتب بعض الكتب إلى محمد بن منصور : وإن بين كل أمر يطالبه الرجا ، وبين المطلوب إليه ذريعة يتوصل بها إلى معروفه ، ولى بارتجائك لعرقى بفضلك ،

(١) كذا في الاصل . وفي الامالى لابى على : ان أقللت علفه صبر ، وإن أكثرته شكر

وكذا الوسيلة ، وما كنت متوسلا اليك بشيء هو أرجى في حاجتي ولا أصح لطلبتى من التوسل إليك بحسن الظن فيك ، وحاجتى أكرمك الله ظريفة من الجوارى لم تتداولها أيدي التجار ولا تبذلها معاودة العرض ، ولى فيها شريطة أعرضها عليك لترى رأيك فيها ، أحبها فرعاء فانه يقال إذا اتخذت الجارية فاستجد شعرها فان الشعر أحد الوجهين . وتكون رائقة البياض ، تامة القوام ، فان البياض والطول نصف الحسن . وتكون مليحة المضحك فانه أول ما يجلب المحبة ، ويكسب الخطوة ولست أكره الانكسار فى الثدى لأنه ليس للناهد عندى سوى لذّة النظر . واست من قول الشاعر :

جال الوشاح على قضيب زانه رمان ثدى ليس يقطف ناهد
فى شىء ، وأكره العجيزة العظيمة وأريدها وسطا ، لأن خير الأمور أوسطها ، لها طرف أدعج ، وحاجب أزج ، وكفل مرتج ، ومتى وافقت هذه الصفة وكانت رخيمة الكلام ، شبهة النعمة ، فهى حرة قبل أن ترسلها ، وحاجتى أبقاك الله يحملها قدرك ، ويستحقها شكرك ، وأنا بالاضعاف حرى ، وأنت بالاسعاف قمين . فأنفذ إليه محمد بن منصور خمسمائة دينار ، وكتب إليه : قد سألت أكرمك الله عن هذه الصفة فلم أجدها ، فالتمسها أنت . فان وجدت بها فهذه خمسمائة دينار تدفعها عربونا حتى أبعث إليك بالثمن والسلام .

قال أبوسودة لابنه : يا بنى تعلم خطبة النكاح فانى أريد أن أنكح أخاك ، قال : نعم ! فلما كان من الليل قال أتعلمت شيئا ؟ قال : نعم ! قال : هات . قال : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . حى على الصلاة حى على الفلاح . فقال أبوه : يا بنى لا تقم الصلاة حتى أذهب وأجىء . فانى على غير وضوء . وهذا كقول ابن أبى حفصة لما قال على بن الجهم قصيدته التى أولها :

الله أكبر والخليفة جعفر

أراد على أن يقول قصيدة بمدح أمير المؤمنين فأذنا

فقلت له لا تعجلن إقامة فلست على طهر فقال ولا أنا

قال يزيد بن أبي حبيب لرجل : من أين أقبلت ؟ قال : من أسفل الأرض .

فقال له : كيف خلفت قارون ؟ . وقال عبد الله بن خزيمه لصاحب شرطته : أين تذهب يا همام ؟ قال : ابني لك صرحا .

أسلم رجل ابنه إلى المعلم وقال له ؟ علمه الهجاء ولا تشغله بغيره ، فطال ترداده

إلى المكتب . فقال أبوه : تعلمت الهجاء ؟ قال نعم ! قال ما هجاء طير قال :

ط اس را اح الاى اء قال ما هجاء سمكة ؟ فقال سم ك ا ه ا خ ح د د ،

فأرسل إلى المعلم فحضر . فقال له : ويحك تقدمت إليك أن تعلم هذا الصبي الهجاء وقد

سألته عن هجاء طير فقال كذا وكذا وسألته عن هجاء سمكة . فقال : كذا وكذا .

فقال المعلم : تجي : إلى صبي صغير تهجيه شيئا يطير في الهواء وشيئا يغوص في قعر

البحر كيف تهجاء . فقال هجه أنت . فقال المعلم : أهجى لك الحمد ؟ قال هج . فقال :

ح م د ك س ف اتته ر ا ب و الولد وانصرف . أبو محمد النوبهاري : أتاه رجل فقال وضعت

رأسي في حجر امرأتي فقالت : ما أثقل رأسك ؟ فقلت أنت طالق إن كان رأسي

أثقل من رأسك . فقال : تطلق عليك ، فقبل له ولم ؟ فقال لئن القصاين أجمعوا على

أن رأس الكباش أثقل من رأس النعجة . وكان المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث

ابن هشام أصيبت عينه عام غزوة مسلمة القسطنطينية ، وكان يطعم الطعام حيث

نزل . فجاء أعرابي فجعل يديم النظر إلى المغيرة ولا يأكل . فقال له : مالك

يا أعرابي ؟ فقال : إنه ليعجبني كثرة طعامك وتربيتي عينك . قال : وما يريك

منها . فقال : أراك أعور تطعم الطعام وهذه صفة الدجال ، فضحك المغيرة وقال

كل يا أعرابي فان الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله .

حضر يعقوب بن اسحاق الكندي مجلساً فيه قينة ، فقالت له : اقترح .

فقال لها غنى :

لو تجسين يا عتيبة عرقى لوجدت الفؤاد قرحاً تقفا
فقلت : إن أردت جس العروق والنظر إلى الأوال ؛ فعليك بالبيارستان .
هذا البيت - في أبيات لأبي العتاهية اسماعيل بن القاسم ويكنى بأبي اسحاق
وأبو العتاهية لقب - وفيها :

قال لي أحمد ليعلم ما بي أتحب الغداة عتبة حقاً
فتأملت ثم قلت نعم هاجري في العروق عرقاً فمرقاً
قد لعمرى مل الطيب ومل ال عواد منى مما أغنى وأشقى
ليتني مت فاسترحت فإنى أبداً ما حييت منها ملقى

وكان أبو العتاهية سهل الشعر لينه وتندر له الأبيات على صحة شعره فتحسن ،
وكان يقال شعر أبي العتاهية سباطة الملوك تجد فيها الدرة والخزفة ، وأنشد الجاحظ
شعره فحبه فقال لمته ^(١) أملس المتون ليس له عيون . وقد قال ابن الرومي لرجل
أنشده شعراً سليماً من العيوب مطبوعاً عالياً من تدقيق المعاني : نحن أعزك الله نحب
مع السلامة الغنيمة . وكان الرشيد مغرمًا بشعره مستظرفاً له . قال اسحاق بن إبراهيم
الموصلى : ذكرتُ عند الرشيد بدم وكان فيه أن قيل : هو يا أمير المؤمنين على
حدائثه سنه وقصر معرفته يخالفك فيقدم العباس بن الأحنف على أبي العتاهية ،
فاستحضرني وقال : من أشعر عندك أبو العتاهية أم العباس ؟ فعرفت ما أراد فقلت :
أبو العتاهية ، فقال : أنشدني للعباس فأنشدته أحسن ما أعرف له :

أحرم منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا
صرت كأنى ذبالة نصب تضىء للناس وهي تحترق
فقال : فأنشدني لأبي العتاهية فأنشدته أحسن ما أعرف له :

كأن عتابة من حسنها دمية قس فتنت قسها
يارب لو أنسيتها بما في جنة الفردوس لم أنسها

(١) في الأصل : لهه ولينظر

إني إذاً مثل التي لم تزل دائرة في طحنها كدسها
حتى إذا لم يبق منه سوى حفنة برّ خنقت نفسها
فقال هذا الذي أنشئت لأبي العتاهية من أعابيته التي لا يلقى لها بالاً ولكن
هلاً أنشدتني قوله :

قال لي أحمد ولم يدر ما بي أحب الغداة عتبه حقا
وأنشد الأبيات ، ثم قال : أيحسن أحد أن يقول : فتنفست ثم قلت نعم . قلت
لا يا أمير المؤمنين وما أحفظ الشعر . قال : أحفظه ! وكنت أعرف به منه

ومن جيد شعر أبي العتاهية قوله لأحمد بن يوسف وكان له صديقاً قبل
الوزارة فلماً وزر للمأمون جفاة

أبا جعفر إن الشريف يهينه تناهيه من دون الأخلاء بالوفر
فإن تهمت يوماً بالذي نلت من غي فإن عزائي بالتجمل والصبر
ألم تر أن الفقير رجي له الغنى وأن الغنى يحشى عليه من الفقر
وقوله له وقد أتاه فقيل له إنه نائم :
لئن عدت بعد اليوم إني لظالم سأصرف وجهي حين تبغى المكارم
متى يظفر الغادي إليك بحاجة ونصفك محبوب ونصفك نائم
وقوله :

ميت مات وهو في ورف العيد ش مقيم في ظل عيش ظليل
في عداد الموتى وفي ساكني الدار يا أبو جعفر أخي وخليلى
لم يمت ميتة الوفاء ولكن مات عن كل صالح وجيل
وهذا القول لعمر بن مسعدة :

عيت عن العهد القديم عيتنا وضيعت عهداً كان لي ونسيتا
وقد كنت في أيام ضعف من القوى أبر وأوفى منك حين قويتا

تجاهلت عما كنت تحسن وصفه^١ ومت عن الاحسان حين حييتا
وكان عمرو بن مسعدة صديقاً له قبل ارتقاء حاله ، فامّا بلغ في أيام المأمون إلى
رتبة الوزارة سألّه حاجة فلم يقضها فتأخر عنه فغضب عمرو وحجبه فكتب إليه :

بلوت إخوان الناس يا عمرو وكلهم^٢ وجرّبت حتى أحكمتني تجاربي
فلم أر ودّ الناس إلا رضاهم فمن يزرأو يغضب فليس بصاحب
والنحدر إلى واسط فلم يعد حتى تغيّرت حال عمرو : فأما شعره في الزهد^(١) فقد
فات فيه الشعراء وبرز النظراء . وغزله يلين كثيراً ويشاكل كلام النساء ، كقوله :

لجت عتية في هجرى فقلت لها تبارك الله ما أجفاك يا ملكة^٣
إن كنت أزمعت يا سؤلى ويا أملى حقاً على عبدك المسكين بالهلكة
فقد رضيت بما أصبحت راضية هاقد هلكت على أسم الله والبركة
وربما بلغ بلينه إلى الاضحك كقوله :

عتابة النفس كاعب شكلة كحلاء بالتحسن غير مكتحله
بالله هل تذكرين يا سكنى وأنت لا تقصرين في الحجلة
أيام كنّا ونحن في صغر نلعب هالا مهلهلا هالله
وهذا وإن قصد به الهزل فليس في حلاوة قول العباس :

لست أنسى مقالها لرسولى أبدا أو تضيئى أرماسى
هات قل لى كتاب من ذا فانى منه فى خيفة وفى إيجاس
فنبذت الكتاب سرا إليها فتبدى العنوان من عباس
فرمت بالكتاب زهواً وقالت ما بقى للقرود إلا الكراسى
ولا كملاحة قوله :

جارية أعجبها حسنهما ومثلها فى الخلق لم يخلق
عرفتها أنى محب لها فأقبلت تضحك من منطقى

(١) جمع شعره في الزهد وطبع في بيروت

وانصرفت نحو فناة لها كالرشا الأغيذ في قرطوق
قالت لها قولي لهذا الفتى أنظر إلى وجهك ثم أعشق

وكان بالرملة شيخ جليل نظير لأبي بكر النابلسي في طريق الزهد، وكان الكن
اللسان. فنزل بعض الجند دار صديق له فخاف طول مكثه وأن تصير الدار نزلاً
للجند، وسار بذلك إلى الشيخ وسأله أن يبعث إليه من يعرفه بالرجل أزه من
خاصته لينتقل عنها، فأنفذ معه رسولا ثم رأى الشيخ أن قيامه آكد فنهض فلهقه.
فقام الجندی اليه. فقال: أيها الشيخ الجليل سيدي أتانى رسولك، ولا والله أقيم
أكثر من يومين ألتبس منزلاً وانتقل. فقال الشيخ: نعم! ياسيدي وشهرين إذا شئت،
وما هذا التضيق على نفسك. فقال صاحب الدار: والله أعزك الله لأن أقام بها عشرة
أيام لتصيرن داري نزلاً. فقال: يا هذا انك أن تقول، أن هؤلاء، إنما أحب اليك
أن يأتوا إلى دارك، لسبب ما، فليس الأمر كما زعمت. فقال: فسر لي أكرمك الله
هذا الكلام، وأنا أهب له الدار. وكان بالرملة أيضاً كاتب جاهل الكن،
فأرسل غلامه إلى الصوارف يبتاع له شراباً، فاشتري له زكرة شراب وحملها على
حمار وأتى الرملة. فقبض عليه أصحاب المصالح، فقالوا: زن درهماً، فامتنع فأرجلوه
عن الحمار فضربوه خمسين مفرقة وأخذوا الشراب والحمار، فأتى مولاه فأخبره.
فكتب إلى متولى النظر في أمرهم، أما بعد: فإن غلاماً، وإن حماراً، ألبسبيله، فضرباه
خمسين، رطلاً في زكرة، فأريك في إطلاق الحمار، وأبقاك. وقال بعض اخوانه:
كنت عنده فاحتجم. فقال: ما عندي اليوم شراب نبيذ، فأجلس حتى أكتب إلى
صديقي فلان يبعث لي بقنينة أشربها معك. فقلت له: أنت مطول في كتبك
فاعمل على الاختصار. فكتب: أما بعد احتجت قنينة والسلام، فقلت له: ولا
هذا كله

ومثل هذا في الاختصار، قيل إن شاعراً مدح نصر بن سيار بقصيدة فيها مائة

بيت كلها نسيب ، وإنما المدح منها في بيتين . فقال له نصر : ما تركت معنى ظريفاً ولا نسيباً مايحاً إلا أوردته في نسيبك دون مدحك . فقال : غداً أغدو عليك بغير هذا ، فغدا عليه بقصيدة أولها :

هل تعرف النار لأم الغمر دع ذا وحبر مدحة في نصر
وكتب هذا الكاتب كتاباً إلى بعض أخوانه : اشتيت ، وليس عندي إلا ،
وليس يحلو إلا من عندك ، وهو الدمكسك أصلحك الله ، يطرح المحشمة ، فأرسل إلى
ممسافراً والسلام - أراد التمكسود - وهو لحم يقطع طوايق ويشد بالمخ في ألواح
وينشر حتى يذهب ماؤه وينشف ، فإذا احتيج إلى شيء منه بل بالماء وأصلح ،
وإنما يستعمل كذا ليسافر به ولا يفسد . ولذا قال أبو العيناء : الزينبي تمكسود
الجز . وكتب رجل إلى قاض في أمر قوم من جيرانه اختصموا : إن الذي لم يجر
بينهما غير مفهوم ، وقد أردت الاستصلاح فعاد استفساداً ، فإن رأى القاضى
أدام الله عزله أن يصفح عن كتابي فإن فيه نقصاً . فقال القاضى : لا بل فيه زيادة
لام كفانا الله شرها .

وروى قبران مكتوب على أحدهما : من رآني فلا يغتر بالدنيا فإني كنت
من ملوكها أصرف الرياح كيف شئت . وعلى الآخر مكتوب : كذب إنما
كان حداداً ينفخ بالزق . وكان بالكوفة رجل باقلاًني فخرج الطائف ليلاً فأخذه
سكران ، فقال من أنت ؟ فقال :

أنا ابن الذي لا تنزل الدهر قدره وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره فمنهم قيام حولها وقعود

فقال الطائف : قد جاء عن النبي صلى الله وسلم أنه قال : « تجاوزوا عن ذوى
الهيئات » . خلوا سبيله ، فلما أصبح سأل عنه فإذا هو ابن باقلاًني . فقال :
إن لم يترك لنسبه فقد ترك لأدبه . ومثله من المعارض قول ابن شهرمة : وقد

سئل عن رجل . فقال : إن له شرفاً وقدماً وبيتاً ، فنظر فإذا هو ساقط . فقيل له في ذلك . فقال : ما كذبت شرفه أدناه ، وقدمه التي يمشى عليها ، ولا بد أن يكون له بيت يأوى اليه . وسئل آخر عن رجل . فقال : رزين المجلس ، نافذ الطعنة . فحسبوه سيداً ، فإذا هو خياط طويل الجلوس نافذ الابرة . طلب النعتي بعد ثمانين سنة أن يتزوج ، فقيل له في ذلك . فقال : أولاد الزمان فسدوا فأردت أن أذلهم باليتم ، قبل أن يذلوني بلعقوق . بعث بعض ولد عيسى بن جعفر إلى جماعة من الخنثين فأتوه . فجعلوا يلعبون ويرقصون وبقى مخنث منهم لا يتحرك . فقال : مالك قال لا أحسن شيئاً . قال : فلم دخلت يا ابن الفاعلة ؟ يا علام إئتني بسكرجة مملوءة روثاً وأخرى مملوءة جمرًا ، فأتاه بهما . فقال : والله لتأكلن من أحدهما أو لأضربنك حتى تموت . قال : يا مولاي دعني أصلي ركعتين . قال : قم فصل ، فقام يصلي فأطال . فقال له : يا ابن الفاعلة إلى كم تصلي ؟ قد صليت أكثر من عشرين ركعة . فقال : يا سيدي أنا دائب أدعو الله أن يمسحني نعمة فأقوى على أكل الجمر ، أو خبزيراً فأقوى على أكل الخرا فلم يستجب لي بعد ، فدعني أصلي وأدعو فلعله يستجاب لي ، فضحك منه ووصله . هبت ريح شديدة . فقال الناس : قامت القيامة فقال ربة الخنث : يا حمقاء القيامة هكذا على البارد بلا دابة ولا دجال ولا دخان ولا يأجوج ولا مأجوج . ورأى مخنث شيخاً هرمًا ، فقال : عدمته . كأنه قصر ابن هبيرة ذهب رسمه وبقي اسمه .

قدم قوم لأعرابي قريشا فأمن في أكله . فقيل له : يا أعرابي ما هذا ؟ قال : فالودج إلا أنكم حمضتموه ، وابتاع أعرابي غلامًا . فقالوا له : إنا نبرأ إليك من عيب فيه . قال : ما هو ؟ قالوا : يبول في الفراش . قال : إن وجد فراشاً فليفعل . وقيل لأعرابي : لم اذا غضبنا على غلام لنا قلنا له : أباعك الله في الأعراب . قال : لأننا نطيل كده . ونعمرى جلده ، ونجميع كبده .

وقال أبو تمام لرجل سرق شعره :

إنما الضيفم المصور أبو الأش بال ريبال كل خيس وغاب
من عدت خيله على سرح شعري فاستحلت محارم الآداب
ياعدأرى الكلام صرتن من بعدي سبائا تبعن في الأعراب
ورأى أعرابي سراويل في فلاة فأخذه يظنه قميصاً فلم يعرف كيف يلبسه !
فمرَّ يعدو ورماءه ، فلقبه رجل فقال : مالك يا أعرابي ؟ قال : أصبت قميصاً للشيطان
وأخاف أن يلحقني فيقول لم أخذت قميصي .

وقال الهيثم بن عدي سمعت أعرابياً يقول : دخلت حضرتكم بعد عيد
الأضحى ، فإذا أنا بجمع عظيم عليهم أنواع الثياب من بيض وحمر وصفر فكأنها
زهر البستان . فقلت في نفسي : هذا العيد الذي يذكر أصحابنا أن الحضرة يتزينون
فيه ، ثم رجعت إلى عقلي فقلت وأى عيد هو وقد خرجت بعد الأضحى ، فينا أنا
باهت أفكر في أمري إذ أخذ بيدي رجل منهم . فقال : أدخل يا أعرابي فدخلت
فإذا بمجلس منضد بالنضائد موسد بالوسائد ، وفي صدره سرير وعليه رجل جالس
والناس صموت عن يمينه وشماله . فقلت في نفسي : هذا الخليفة الذي يذكره
فقبات الأرض وقلت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقيل :
اسكت يا أعرابي هذا عروس ونحن في عرسه ، فهي إلى موضع في المجلس فجلست
فيه فقدمت هنات مدورات من خشب عليها ثياب متلاحمة النسيج فهمت أن
أسند في ثوب منها أرقعه ازارى . فقيل لي : مد يدك يا أعرابي وكل ، فإذا هو ضرب
من الخبز لا أعرفه ، ثم قدمت أنواع من الطعام حلوة وحامضة وحارة وباردة فأكلت ،
ثم أتى بأواني فيها ماء أحمر فجعلوا يصبون في أقداح ويشربون ، فناولوني منه قدحاً .
فقلت : أخاف أن يقتلني . فقالوا يا أعرابي انه يهضم ما في بطنك ، فشربته فحدث في قلبي
طرب لا أعرفه وهمت أن أهشم الذي بجانبى ، وأن أقول للآخر : يا ابن الزانية !
فأقبلوا يسألون رجلاً ويقولون أمتعنا بنفسك ، فأتى بهنات لها رأسان مشدودان

بالخيوط المحصدة ، فأقبل يضرب رأسه فيخرج منها رعد كهزير الرعد وزئير الأسد .
وأخرج رجل من كه شيئا كفيشلة الحمار ، فأقبل يردد عليه به . وأقبل آخر ينتخ
حتى كبج به الأرض . فقلت : مجنون ورب الكعبة !! ثم أقبلوا يضرعون إلى
آخر ويرغبون إليه ، فأتاهم بدابة من خشب عينها في صدرها إذا قتلت أذنها تكلم
فوها ، فطرب كل من حضر وطربت حتى تقدمت إليه . وقلت : ياسيدي ماهذه
الدابة ؟ فقال : يا أعرابي هذه يقال لها البربط . فقلت : أمنت بالله و بالبربط ، ثم
سقوني قدحاً آخر فأخذتني نومة لم يوقظني منها إلا حر الشمس من الغد .

وفي على بن عيسى يقول البحترى يهجو :

واكثرت غشيان المقابر زائراً على بن عيسى جار أهل المقابر
فإن لا يكن ميت الحياة فإنه من اللؤم ميت الجود ميت المآزر

قال ابو العيناء : محمد بن مكرم والعباس بن رستم ، تعجلا الجنة في الدنيا ،
يشربان الخمر ولا يصليان . ومما يعد من مكارم أبي الصقر : أنه لما ولى الوزارة بعد
صاعد دخل عليه ابن ثوابة فقال : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين .
قال : لا تريب عليك يا أبا العباس يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين .

ولما ولى أبو الصقر الوزارة خير أبا العيناء فيما يحب حتى يفعله به . فقال : أريد أن
يكتب لى الوزير إلى احمد بن محمد الطائي يعرفه مكاني ، ويلزمه قضاء حق مثلي من خدمه .
فكتب اليه كتابا بخطه فأوصله إلى الطائي ، فسبب له في مدة شهر مقدار ألف دينار
وعاشره أجل عشرة ، فانصرف بأجل ما يحب . وكتب إلى أبي الصقر كتابا متضمنه :
أنا أعز الله الوزير طليقتك من الفقر ، ونفيلك من البؤس ، أخذت بيدي من عثرة
الدهر وكبوة الفقر ، وعلى أية حال - حين نفذت الأولياء والأشكال ، والاخوان
والأمثال الذي يفهمون ، وهم الناس كانوا غيائا للناس ، فخلت عقدة الخلة ، ورددت
إلى . بعد النفور النعمة ، وكتبت إلى الطائي كتاباً فكأنما كان منك اليه انيسه .

وقد استكفنت به الأمور ، وأحاطت به النوائب ، فكثرت من بشره ، وأعطى من ماله
أكرمه ، ومن بره أحكمه ، ولم يزل مكرماً إلى مدة ما أقمت ، ومثقلاً من فوائده لما
ودعت ، حكمت في ماله فتحكمت ، وأنت تعرف جورى إذا تمكنت ، وزادنى من
طوله فشكرت ، فأحسن الله جزاك ، وأعظم جزاك ، وقدمنى أمامك ، وأعاذنى
فقدك وحمالك ، وقد أنفقت على ما ملكك الله ، وأنفقت من الشكر ما يسر
الله لى . والله عز وجل يقول : لينفق ذو سعة من سعته . فالحمد لله الذى جعلك اليد
العليا ، والرتبة السامية ، لا أزال الله عن هذه الأمة ما بسط لها من عندك ، وبث
فيها من رفدك

قال أبو العيناء : أنا أول من أظهر العقوق بالبصرة لوالديه . قال : أبى إن
الله قد قرن طاعته بطاعى . فقال : اشكر لى ولوالديك . فقلت : يا أبت إن الله
أمنى عليك ولم يؤمنك على . فقال : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم
وإياهم . وقال أعرابى لأبيه : يا أبت إن كبير حقك على ، لا يبطل صغير حقك ،
والذى تمت به إلى أمت بمثله ، ولست أزعم أنا سواء ، ولكن لا يحل الاعتداء .
وحكى أبو الحسين محمد بن جعفر ابن النكك^(١) البصرى عن أبيه أنه جاور
ببغداد فى أيام المقتدر رجلاً من جلة الكتاب . ونشأ له ولدان فتنا بغداد بحسبهما
فبلغ الأكبر منهما فنقله من المكتب إلى الديوان ، وأراد أن يحصنه بجارية فابتاعها
له بألف دينار وقال لا تعلم أخاك فإنه يصغر عن ذلك ، فمت داية الأصغر الأمر
إليه . وقالت : إن أباك أخص أخاك بشئ ، دونك . فقال لها : بم خصه ؟ قالت بجارية .
قال : هو إليها أحوج وأنا عنها أغنى ، غير أنى أشفق أن يتسع الحرق وما علمت أنه
فضله مذ نشأ على بشئ ، وأنا أجله عن المشافهة ولكن هاتى دواة ، فكتب إليه :

ليس لى عهد إلهى مشتكا إلا اليكا

(١) كذا فى الأصل فى المكانين ولعل الصواب : لنكك .

وأخى فى الفضل مثلى وكلانا فى يدىكا
لا تفضّله على بالحب من ناظرىكا
إنما أبناك كهيد لك فداوى مقلتيكا
إن أذقت العين كحلا هاجت الأخرى عليك

فأتبع له جارية بتمن جارية أخيه وأنفذها اليه . وحضر أبو الحسين بن النكك
عند أبي الفتح نصر بن احمد الخبز أرزى فبحره ببخور غير طائل فقال :

تبصر فى فؤادى فضل حبّ يفوق به على كلّ الصحاب
أئيناه فبحرنا بشيء من السقف المدخن بالتهاب
فقممت مبادراً وحسبت نصراً يريد بذاك طردى أو بعادى
فقال متى أراك أبا حسين فقلت له اذا آتسخت ثيابى

قال أبو على البصير لأبي العيناء: فى أى وقت ولدت من النهار؟ قال: طلوع
الشمس . قال : فذلك خرجت مكدياً لأنه وقت انتشار المساكين . فقال له
أبو العيناء : بينى وبينك مناسبة العمى ، قال : كلا ! إني من عميان الدواب ،
وأنت من عميان العصا . بلغت أبا على البصير عن أبي العيناء قوارص بظهر الغيب .
فكتب اليه : استزيد الله فى بقائك ، واستمتع به باخائك ، واستحفظه النعمى
عندك . رب مزح أعزك الله قد بعث جداً ، وجور قد أحدث قصداً ، ورب أمر
صغير خطره ، قد أعقب أمراً كبيراً آخره ، ونحن باستزادتنا بعهدك ، ومحاماتنا
على ودك ، وتمسكنا بعرى الأسباب التى بيننا وبينك ، واحتراسنا من جناية
الدهر علينا فيك ، لا تقتصر على الاستظهار بالحجة ، والابلاغ فى المعةرة ، دون
استفراغ الجهود وبلوغ الغاية فى التأنى ، والحيلة فى استرجاع ما شذ عنا منك ،
وأبطال ما نمت به الأخبار الينا عنك ، من تحليك بنا فى العيب ، وتناولك إيانا
فى الغيب ، فلا يزال أخ لك مد الله فى عمرك تعد له على نفسك ، وتوقه لك

وعليك . قد ساقط الى أحاديث عنك بطبائعها صلاح القلوب قليلاً^(١) بها بقاء المودة .
سريعة في حل عقدها وقطع مودتها ، أحاديث أكره لنفسى بدأها ولك عاقبتها ،
وكنت لا أزال ما يرد على منها بتأول لفظك وحسن الظن بمعناك ، والتماس
العذر لك على ضيق مخرجه ، وصعوبة مطلبه . وأغلب رأى لهواك ، وأقف
غضبي على عتباك ، واحفظ قصدك الى متصلاً بما بلغنى عنك ، الى حرم بيني
وبينك ، لا يجب حفظها على دونك ، حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وتمريضك
تصحيحاً ، وفي نسبته في صحتي الى العمى ، وفي حلمي الى الضعف ، الى أن يئس
الصديق من نصري ، لما رأى من اغضائي في أمر نفسي ، وقد بقي معي فضلة من
اداتي أنت تملكها دوني ، فان صنتها لي ووفرتها على من أسا الاختيار^(٢) ، ولا أعدم
أنصاراً من الأحرار ، أسعد بموازرتهم ومكاشفتهم واستغنى بنفسى عنهم . وقد كتبت
في هذا المعنى بآيات هي لما قبلها ولما يكون بعدها فرأيتك في تفهمها نفعك الله بها :

أبلغ أبا العيناء إن لا قيته قولا يكون لدائه حسناً
نبئت أنك في المغيب تسبئي واذا التقينا كنت لي سهلاً
فتروم هجري جاهداً وتقيصتي سفهاً أراه بادياً حلماً
لا تفتنم لحى فليس بأكلة واعلم بأنك واجدٌ لحماً
إني أعيدك أن تكون رميةً لسهام رام إن رمى أصمى

وشتم أبا على البصير بعض الطالبين . فقال : إنا والله ما نعي من جوابك ،
ولا نعجز عن مساءتك ، ولكننا نكون خيراً لنفسك منك ، ونحفظ ما أضعت ،
فاشكر توفير ما وفرنا منك ، ولا يفرنك بالجهل حلمنا عنك .

وأبو على هو القائل :

ألمت بنا يوم الرحيل اختلاسة فاضرم نيران الجوى النظر الخلس
تأبت قليلاً وهي ترعد خيفة كما تتأني حين ترتعد الشمس

(١) - (١) كذا في الأصل ولم أقف على صحته ولا تبين لي معناه

فخاطبها صمتى بما أنا مضرٌ وأبلسيت حتى است يسمع لى حس
وولت كما ولّى الشباب لطية طوت دونها كشعاً على بأسها النفس
وقال يمدح الفتح بن خاقان :

سمعنا بأشعار الملوك فكلها اذا عض متنيه الثقة تأوذا
سوى ما سمعنا لامرء القيس انه يكون اذا لم يشعر الفتح أوحدا
أقام زماناً يسمع القول صامتاً وتحسبه إن رام اكدى وأصلدا
فلما امتطاه راكباً ذلّ صعبه وسار فأضحى قد أغار وأنجدا
وقال يصف ليلة مطر :

وليلة عارض لا نوم فيها أرقّت لها الى الصبح الفتيق
حمى فيها الكرى عيني بيت كأنّ سماءها عين المشوق
تواصلت السحائب وهو بيت وصدّت وهو قارعة الطريق
وهذا كقول ابن المعتز :

روينا فما نزداد يارب من حياً وأنت على مافى الضمير شهيد
سقوف بيوتى صرن أرضاً أدوسها وحيطان دارى رُكّع وسجود

ذهبت ثياب رجل فى الحمام ، فجعل يقول : أنا أعلم أنا أعلم ، واللص يسمعه
ففرغ وظن أنه قد فطن به فردها . وقال له : إني سمعتك تقول أنا أعلم فما الذى
تعلم ؟ قال : أعلم أنه ان عدمت ثيابى مت من البرد . زار رجل الخصيب بن عبد الحميد
وهو أمير على مصر مستميحاً فلم يعطه شيئاً فانصرف . فأخذه أبو الندى اللص
وكان يقطع الطريق . فقال : هات ما أعطاك الخصيب . قال : لم يعطنى شيئاً ،
فضر به مائتى مفرقة يقرره على ما ظن أنه ستره عنه . ثم قدم على الخصيب بعد
ذلك زائراً فلم يعطه شيئاً . فقال : جعلت فداك تكتب إلى أبى الندى أنك لم تعطنى

شيئاً لئلا يضربني ، فضحك ووصله . ومر سالم بن أبي العقار بمحمد بن عمران الطالحي ، وكان سالم أحد الحجان . فقال له سالم : ما هذه الشيبة والهيئة الحسنة والخضاب ، ولا تنزع عما أنت فيه !! فقال : يا أباسليمان أنى لأهم بذلك فإذا مررت بمنزل ابن عمك طلحة بن بلال فرأيتك على حاله لم يخسف به ، علمت أن في الأمر فسحة بعد . ولما مرض أبو نواس دخل عليه الجمار يعوده . فقال : اتق الله فكم من محصنة قد قذفت ، ومن سيئة قد اقترفت ، وأنت على هذه الحال فتب قبل الموت . فقال : صدقت ولكن لا أفعل ! قال : ولم ؟ قال : مخافة أن تكون توبتي على يد واحد مثلك . وقال الجمار : أراد أن يكتب أبو نواس إلى اخوانه دعاءم فلم يجد قرطاساً يكتب فيه فكتب في رأس غلام له أصلع ما أراد ، ثم قال فيه : فإذا قرأتم كتابي فاحرقوا القرطاس . فضحكوا منه وتركوا للغلام جادة رأسه

تقدم الوزير على بن عيسى إلى أبي عبد الله بن الجصاص في البكور ، فأتاه نصف النهار . فقال : ما أخراك يا أبا عبد الله . قال : بمحلى أعز الله الأمير كلاب تنبح الليل أجمع ، فأسهرتني البارحة فلما كان مع وجه السحر سكن نباحها فمت فقلبتني عيني إلى الآن . فقال له : وما لك يا أبا عبد الله لا تتقدم في قنلها . قال : ومن يستطيعها أيها الوزير وكل واحد منها مثلي ومثل أبيك رحمه الله . وخرجت يده من الفرش في ليلة باردة فأعادها إلى جسده بثقل النوم فأيقظته ، فقبض عليها بيده الأخرى وصاح اللصوص اللصوص ، هذا اللص جاء ينازعني وقد قبضت عليه أدركوني لئلا يكون في يده حديدة يضربني بها ، فجأؤا بالسراج فوجدوه قد قبض بيده على يده . ودخل على ابن له وقد احتضر فبكى عند رأسه . وقال : كفك الله يا ابنى الليلة مؤنة هاروت وماروت . قالوا : وما هاروت وماروت ؟ قال : لعن الله النسيان انما أردت يأجوج ومأجوج . قالوا : وما يأجوج ومأجوج ؟ قال : فطالوت وجالوت . قالوا : فاعمالك أردت منكراً ونكيراً . قال : والله ما أردت إلا

غيرهما !! يريد ما أردت غيرهما . وغفل عنه أهله يوماً فسمعوا صياحه ، فأتوه فوجدوه في بيت كالميت . فقالوا : مالك ؟ قال : فكرت في كثرة مالى وشدة مصادرة السلطان للتجار في هذا الوقت وتعذيبه خـم بالتعليق ، فعمت نفسي ونظرت كيف صبرى ، فزحلت فلم أخلص حتى كدت أموت .

وهذه الحكايات عن ابن الجصاص تنسب إلى غيره والمحدثون مختلفون في حكاياتهم ومضطربون في رواياتهم . وكان المعتضد إذا رأى ابن الجصاص يقول : هذا الأحمق المرزوق ، وكان أوسع الناس دُنْيا ، له من المال ما لا ينتهى إلى عده ، ولا يوقف على حده . وبلغ من جده أنه قال : تمتيت أن أخسر فقيل لى : اشتر التمر من الكوفة وبعه بالبصرة ففعلت ذلك ، فاتفق أن نخل البصرة لم يحمل في ذلك العام فربحت ربحاً واسعاً . وكان المعتضد : لما زفت إليه قطر الندى بنت خمارويه بن احمد بن طولون بعث ابوها إلى ابن الجصاص مائتى ألف دينار ، وكتب إليه قد جهزناها بما قدرنا عليه ، وبالعراق طرائف لم تصل إلى أيدينا فاشتر ما تراه ، فاحتجز المال ولم يسأل عنه . وكان ابن المعتز لما خلع المقتدر لم يقيم في الخلافة إلا يومين غير تأمين ثم اضطرب حبله فهرب إلى دار ابن الجصاص فأخرج منها ، أخرجه المقتدر بعد أيام إلى القضاة والعدول ميتاً^(١)

(١) هو الحسن بن عبد الله بن الحسين ابو عبد الله بن الجصاص الجوهري . كان من أعيان التجار ذوى الثروة الواسعة ذكره ابن شاكر في فوات الوفيات وأتى له بترجمة تشتمل على طرف من أخباره ونوادره . وقال في خبر اختفاء ابن المعتز في داره واخراج المقتدر له منها : أن خادماً صغيراً لابن الجصاص وشى به فصادره المقتدر على ستة آلاف ألف دينار . وحكى عن ابن الجوزى أنه قال : أخذوا ما مقداره ستة ألف ألف دينار عينا وورقا وقماشاً وخيلاً وبقى له بعد المصادرة شيء كثير إلى الغاية من دور وقماش وأموال وبضائع وضياع ، وكانت ابتداء ثروته من ابى الجيش خمارويه بن احمد بن طولون على غير النحو الذى حكاه الحصرى هنا . توفي بعد العشرين والثلاثمائة تقريباً .

وكان سبب طلب ابن المعتز للخلافة : أن المقتدر وهو جعفر بن المعتضد وأمه أمة سوداء واسمها شعب لما استخلف أرجف الناس فيه وتكلموا في أمره . وقالوا : كيف يلي الخلافة من لم يبلغ الحلم وكان سنه يومئذ ثلاثة عشر سنة وشهراً وعشرين يوماً ، وقالوا لا بد من خلعه لأنه سادس ، قال الصولي : وقد جرى في السادس أمر طريف من الاتفاق وذلك أن الله تبارك وتعالى أورث الأرض سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده أربعة واستخلف بعد علي رضي الله عنه الحسن ابنه وهو السادس فخلع ، وسلم الأمر إلى معاوية ثم إلى يزيد بن معاوية ثم إلى معاوية بن يزيد ثم مروان بن عبد الحكم ثم عبد الملك ابن مروان ثم بويج بن الزبير في أيامه أو قبلها وهو السادس فخلع ، ثم انقضت دولة بني أمية ولم يكمل بعد الوليد ستة^(١) إنما ولي يزيد بن الوليد الناقص وإبراهيم ابن الوليد بن مروان ومروان بن محمد وهو آخر ملوك بني أمية ، ثم استفتح ملك بني العباس بأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور ومحمد بن المنصور المهدي وموسى الهادي بن المهدي وهارون الرشيد بن المهدي والأمين بن الرشيد بن المهدي وهو السادس فخلع ، ثم ولي المأمون بن الرشيد والمعتصم أخوه والواثق بن المعتصم والمتوكل ابن المعتصم والمنتصر بن المتوكل والمستعين أحمد بن المعتصم فخلع وهو السادس . قلت : أنا^(٢) وولي بعده القاهر محمد بن المعتضد والرازي أبو العباس بن المقتدر والمتقي أبو اسحاق بن المقتدر والمستكفي والمطيع الفضل بن جعفر المقتدر والطائع أبو بكر عبد الكريم بن المطيع وهو السادس فخلع وولي بعده أبو العباس القادر وهو الخليفة في هذا الزمان ، وكان الإرجاف في أول ولاية المقتدر شديداً من الخاصة والعامة فلما قتل العباس وزيره أخذ محمد بن داود بن الجراح البيعة على

(١) يريد الوليد بن عبد الملك

(٢) كذا في الأصل وقد سقط ذكر ست من الخلفاء العباسيين وهم : المعتز بالله . والمهتدي بالله والمعتمد على الله والمعتضد بالله والمستكفي بالله والمقتدر بالله

الناس لعبد الله ابن المعتز ، ووجه الى القضاة والعدول فاجتمع من القواد وغيرهم زهاء خمسة آلاف سوى الأتباع فأظهر لهم محمد بن داود عبد الله بن المعتز وكتب كتاباً خلع فيه المقتدر ، واحتج بأن امامته لا تجوز لقصوره من بلوغ الحلم وصغره عن الخلافة واستحقاق عبد الله إياها لكمالها وحسنه ومعرفته في أمور المسلمين وعلمه بشرائع الدين ، فشهد العدول على ما في الكتاب ومن حضر من أشراف بغداد وبايعوا ابن المعتز ولقبوه المنتصف ويقال الراضي ويقال القائم بالحق ، وتقلد ابن الجراح الوزارة ، وتكلم عبد الله بن المعتز وذكر المقتدر وأنه لا صلاة للناس معه ولا حج ولا غزو . وقال : قد آن للحق أن يتضح ، وللباطل أن يفتضح ، وقام وكيع فقرظه وذكر محاسنه وذكر شعر أبي العتاهية في هارون الرشيد وهو :

أنته الخلافة منقادةً إليه تبحر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها

ولم يبق في دار المقتدر حينئذ إلا نفر يسير ، وهرب بعضهم إلى ابن المعتز . فسعى مونس الخازن وسوسن في نقض هذا العقد في اليوم الثاني وجددا للناس بيعة للمقتدر ، وأخرجوا الأموال فرادا في الأعطية فأنجفل الناس اليهما ولم يبق مع ابن المعتز أحد ، فهرب إلى دارا بن الجصاص وهذا خبر طويل ليس هذا موضع استقصائه ثم خلع المقتدر بعد ذلك وقتل في الحرب ولم يقتل في الاسلام خليفة بين الصفيين غيره ، ولما ظهر ابن المعتز ميتاً رثاه الناس فقال ابن بسام :

لله درك من مئت بمضيعة ناهيك في العلم والآداب والحسب
ما فيه لو ولا ليت فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب

وطولب ابن الجصاص بالتجائه إليه وأراد المقتدر قتله . فقال : يا أمير المؤمنين انه ابن عمك وقد لجأ الى دارى وأنا غائب عنها فكتمت أمره لعل رأيك يحسن فيه ، ولست بمضاد في خلافة ولا قاذح في مملكة ، وقتلى لا ينفك ؛ وفي حياتى

لك فائدة . قل : وما فائدة حياتك ؟ قال : ادفع اليك كل يوم الف دينار . فترك ووفى في ذلك مدة

وقد استحسن لابن البسام رثاؤه لابن المعتز على سوء رأيه فيه ومهاجاته له .
وقد أحسن بديع الزمان في هذا المعنى كل الاحسان ، وقد كتب اليه ابراهيم ابن احمد بن حمزة يهنئه بمرض أبي بكر الخوارزمي — وكان بينهما من المهاجاة والمهاترة والمنازعة والمنافرة ما يطول به الشرح — الحر أطل الله بقاءك لا سيما اذا عرف الدهر معرفتي ، ووصف أحواله صفتي ، اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهي أمانى ، فاذا وجدت فهي عواري ، وان محن الأيام ان مطلت فتستنفذ وان لم تصب فكان قد ، فكيف يشمت بالحننة من لا يأمنها في نفسه ، ولا يعدها في جنسه . والشامت ان أفلت فليس يفوت ، وان لم يمت فسوف يموت ، وما أقبح الشتمة بمن أمن الإماتة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقيب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الخيار ، وظمان شر به الأحرار . فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم يسر العاقل بسلاح قاتله

وهو الفاضل شفاه الله ، وان ظاهرنا بالعداوة قليلا ، فقد باطناه ودأ جميلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدة تد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته ، والتعزن لمرضته ، وقاه الله المكروه ، ووقانى الله سماع المكروه فيه

وكان الخوارزمي رافضياً غالياً : اخبرنى من رآه بنيسابور وقد خرج سكران وقد كظه الشراب فطلب فقاعاً فلم يجده . فقال : أتعودنى الفقاع لما طلبته . فاذا كان يهتف بهذه الجملة لغير علة فكيف به مع تفريع العلل ، وتوسيع الأمل ، ممن يطابقه على كفره ، ويوافقه فى سره . وكان فاحشاً بذنباً ، مستخفاً جريئاً على ذوى الانعام عليه ، والاحسان اليه . قال اسماعيل بن عباد لما بلغه موته :

سألت بريدأ من خراسان مقبلاً أمت خوارزميكم ؟ قال لى نعم !

فقلت اكتبوا بالخص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من يكفر النعم
وكان هجا بعض الملوك فظفر به فوسمه في جبهته سطران فيهما شطران بأقبح
هجاء ، فكان يشد العمامة على حاجبيه سترأ عليهما . ولذلك قال البديع في مناظرته
إياه -- وقد ذكر مجلساً طويلاً غنى المغنى بحضرتنا

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخلد الرقيق
فقال للحاضرين : أنا أروى الشعر الذى منه هذا البيت وهذا لا يرويه .
فقلت : روايتى تخالف روايتك ، واذا أنشدتكها على روايتى ساءتلك فى استماعها ،
ولم يسرك مصنوعها . قال : وكيف روايتك ؟ قال قلت :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوسم فى الوجه الصفيق
فلما أضجرتة النكتة ، أخذته السكتة ، فحمدت ناره ، ووقف حماره
وكان البديع رحمه الله ، وهو أبو الفضل أحمد بن الحسين : قد أشرقه بريقه ،
ووعر عليه ما سهل من طريقه . وكان الخوارزمى يرميه ببغض على رضوان الله
عليه ، ويشنع عليه بذلك ويغرى به الطالبيين :

يقولون لى لا تحب الوصى	فقلت الثرى بفم الكاذب
أحب النى وآل النبى	واختص آل أبى طالب
وأعطى الصحابة حق الولا	وأجرى على سنن الواجب
فان كان نصبا ولاء الجميع	فابنى كما زعموا ناصبي
وان كان رفضاً ولاء الوصى	فلا يرح الرفض من جانبي
فله أنتم ومهتدكم	ولله من عجب عجب
وان كنتم من ولاء الوصى	على المعجب كنت على القارب
يرى الله سرى اذا لم تروه	فلم تحككون على الغائب
ألا تبصرون لرشد	ولا تهتدون الى الله بى

أعز النبي وأصحابه فما المرء إلا مع صاحب
أيرجو الشفاعة من سبهم ؟ بل المثل السوء للضارب
حنانك من طمع بارد وأبيك من أمل كاذب
يوقى المكاره قلب الجبان وفي الشبهات يد الخاطب

وكتب البديع الى بعض الرؤساء - وذ كرا الخوارزمي - : ما ألوم هذا الفاضل
على نشر شرطواه ، وموقد حرب اجتواه ، ولكني ألومه على ما نواه ، ولم يتبع فيه
هواه ، ورامه ، ولم يبلغ تمامه . وأقول : قد ضرب فأين الايجاع ؟ وأنذر فأين
الايقاع ؟ وهذه بوارقه ، فأين صواعقه ؟ وذاك وعيده ، فأين عديده ؟ وتلك
بنوده ، فأين جنوده ؟ وأنشد : هذه معاهده فأين عهوده

ما أهول رعه ، لو أمطر بعده ، اللهم لا كفران أراه أشفق لغريب أن
يظهر عواره ، ان طار طواره ، فان كان قصد هذا القصد فقد أساء الى نفسه من
حيث أحسن الى ، وأجحف بفضله من حيث أبقى على ، وأوهم الناس أنه هاب
البحر أن يخوضه ، والأسد أن يروضه ، وشجعني على لقائه ، بعد أن فزعني بإيمائه ،

فبينما كنت أنشد : ان جبنى على الفراش لنابى
إذ أنشدت : طاب ليلى وطاب فيه شرابى
وبينا كنت أقول : ما تقلبى كأنه ليس منى
إذ قلت : أين من كان موعدا لى بآنى

وبين البديع والخوارزمي مراسلات ومساجلات ، ومجالس ظريفة ومقامات ، في
ابتداء وجواب ، أخذت بوصل الحكمة وفصل الخطاب . ومن المزل والجد
فمن ظريف ما لأبى بكر من رسالة طويلة يهزأ فيها بالبديع : تواضع لنا رحمك
الله فان التواضع خلق من أخلاق السلف ، وشبكة من شباك الشرف ، وتصديق
علينا ببشرك فان الله يجزى المتصدقين ، وأحسن فان الله يحب المحسنين ، ولا ين
أخوانك فى قولك وفعلك ، ولو كنتَ فظا غليظ القلب لا نفصوا من حولك ،

لولا أنى رحمك الله لا أقول بالرجمة ، ولا أذهب مذهب التناسخية ، لظننت أنك
يونس بن فروة إذ قيل فيه :

أما ابن فروة يونس فكانه من كبره ذاك الحمار القائم
ما الناس عندك غير نفسك وحدها والناس عندك ما عداك بهائم
فقد أعجبت بنفسك الحسيسة التي لا تستحق العجب ، وأحببت ما لا يساوى
الحب ، حتى كأن كسرى أنوشروان حامل غاشيتك ، وقارون وكيل نفقتك ،
وحتى كأنك بنيت مذارة الاسكندرية من آجر دارك ، وشدت ملعب سليمان من
بقايا رخام صحنك ، وكأن خاتم الدنيا فى خنصرك ، وحساب خرجها ودخلها فى
بنصرك ، وحتى كأن الشمس تطلع من جبينك ، والغمام يندى من يمينك ، وكأن
كسرى أنوشروان صاحب نفقة اصطبل دوابك ، ونمرود بن كنعان قهرمانك
على ولدك وأهلك ، وحتى كأن الكبريت الأحمر خرف دارك ، والدرّة القيمة
فى أحسن سوارك

رحمك الله ! دَعَ لليونانية من الحكمة ما ينفق به سوقهم ، وأترك لبني العباس
من التملك ما تمشى به أمورهم ، وأبق للشمس والقمر من الحسن بمقدار ما يلوحان
به ، ويطلعان فيه ، وانظر إلى النساء من وراء حجاب ، ومن خلف برقع ، وإلا
خرجن فى عشقك من ستر الله . وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ، ولا تحمل
الحرائر على خشونة الطلاق ، ولا تذق الممالك مرارة العناق

رحمك الله ! لى حوائج إن قضيتها فقد تسلفت شكرى وثنائى ، وإن رددتنى
عنها فقد رأيت أنموذج سخطى وشكوائى ، اتفق الناس على ضياع النسخة الأولى من
كتاب العين^(١) فأملها علينا رحمك الله ! والكيمياء فقد أنفقت فيها الأموال ، وتعب
(١) كتاب العين : اختلف الناس فى مؤلفه ، والآ كثرون على أن واضع أصله
على الترتيب الذى هو عليه الخليل بن احمد بن تميم الفراهيدى البصرى النحوى
المتوفى سنة ١٧٥ واتفق الناس على أنه أول كتاب ألف فى اللغة العربية . وفى المزهرة
للسيوطى وكشف الظنون لكاتب جلى بحث عنه مستفيض .

ففيها الرجال، ثم لم يحصلوا منها إلا على مواعيد مزخرفة، وأمانى مسوقة، فما عليك لو علمتناها وأغنيت الفقراء، وزدت الأغنياء، وأرحت الناس من الضرب في البلاد، والكدة والاجتهاد، ومن أن يخدم فقير غنياً، ويتخذ بعضهم بعضاً سخريةً. والزيج الأكبر فقد انقطع أصله، ومات أهله، وهو من مفاخر الروم علينا، ومن محاسنهم دوننا. فاعمل على اصلاحه، ولا تدع النصارى يفضلون المسلمين في إبداعه، ومسجد دمشق فهو حسنة يُباهى بها أهل المغرب أهل المشرق، فابن لنا مثله، ولا تثبت علينا فضله، فإنما هي ساعة من هندستك، وجزء تستعمله من أجزاء حكمتك.

أنا لو سلمت أنك إنسان لنفيت عن نفسك الإنسانية، وقضيت عليها بالبهيمية، وصرت أعلى منك في النقص حكمة، وفي الجهل طبقة. وإذا أردت أن تعلم أني في ذمك جاد، وفي مدحك لاعب، وفي الشهادة عليك صادق، وفي الشهادة لك كاذب، فانظر إلى تهافت كلامي إذا لا ينتك وجاماتك، واصابتي الغرض وحزى المفصل إذا كاشفتك وبليتنتك، وذلك أن الصادق معان مأخوذ بيديه، والكاذب مخدول مغضوب عليه، وما كان الله ليؤقني وأنا أجامل من لا يعرف قط اجالاً ولا تجميلاً، وأفضل من لم يناسب مذ كان أفضالاً ولا تفضيلاً.

ليس يخفى عليك أكرمك الله! تطاول أهل العراق بعبد الله بن هلال الهجري صديق ابليس: فأرنا رحمك الله من عجائب صنعتك، ولطائف شيمتك، وأظهر من كتبك ما تعاكي به كتب اليونانية؛ وتكسد سمرهم وتهدم فخرهم، فإن ابليس تلميذ لك، تعلم منك وأخذ عنك، وشتان بين من يدعى أن ابليس من أعوانه، وبين من يدعى أنه من غلمانته. وهل استنظر ابليس إلى يوم الوقت المعلوم، إلا ليُدرك زمانك، ويرى برهانك، أي وفقدك فلا شيء أعزّ على منه! ولا أحسن في عيني، أما سمعت قول علي بن جبلة في أبي دلف:

إنما الدنيا أبو دلفٍ بين بادية ومُحتضرة

فاذا ولى أبو دلفٍ ولى الدنيا على أثره
ألا غضبت عليه ، واعتقدت أنه أخذ صفتك ، وأعار أبا دلف مدحتك ،
ولا سمعت قوله :

إنما الدنيا حميدٌ وعطاياهُ الجسمُ
فاذا ولى حميدٌ فعلى الدنيا السلام
ألا تمنيت لو عرفت قبره فرجته ، أو عرفت بيته فهدمته ، ولا سمعت قول
ليلي الأخيلية :

فتى كان أحبي من فتاة حيئة وأشجع من ليث بخفان خادر
إلا قلت كيف لورأت ليلي أخانا ، فتعلم كيف دعواها من دعوانا ، ولا أنشدت
قول أبي السلاء في الرشيد :

أغيتاً تحمل الناقصة أم تحمل هارونا
أم الشمس أم البدر أم الدنيا أم الدينا
فأتى والله أتعجب حين قاله في غيرك ، كيف لم ترمه جهنم بشرارها ، والشياطين
بأحجارها ، وأعجب منه قول من قال في معن بن زائدة :

مسحت معدّ وجه معن سابقاً لما جرى وجرى ذوو الأحساب
كيف يسبق غيرك في حلبة وأنت في عدادها ، أم كيف يكون غيرك سابق
جيادها ؟ أنت أيّدك الله ! بين هؤلاء الشعراء مرحوم مظلوم ، سلبوك علاك وهي
خلاك فخلوا بها سواك ، والمدح الكاذب ذم ، والبناء على غير أساس هدم^(١).

وهي طويلة جداً ، مر له فيها إحسان كثير . وإنما احتذى في أثرها مثال رسالة
أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبد الوهاب المعروفة برسالة الطول والعرض

(١) هذه الرسالة في مجموعة رسائله المطبوعة سنة ١٢٧٩ بمصر وهي طويلة من
ص ١٨٤ — ١٩٨ وعنوانها وكتب بها الى أبي الحسن البديهي الشاعر يعبت به
فيها ، وذلك مخالف لما قاله المصري من أنه كتب بها الى البديع

وتعرف برسالة التوسع والتدوير^(١) ورسالة المفاهات ، وأتبع أيضاً طريق
أبي الفضل بن العميد في رسالته لابن سمكة النحوى

وقد جمع بديع الزمان جوامع ما جرى بينه وبينه في كتاب أنفذه إلى بعض
الأشراف : أنا أكتب منه ها هنا قطعة على اختصار^(٢) ، وهو وإن كان طويلاً فليس
مملولاً ، لما لبسه من حمل البلاغة ، وحلى البراعة ، وجدته في الآذان ، وحلاوته في
الأذهان ، وفيه أنواع تنفتح لها الأسماع ، وتشرح لها الطباع ، مما ألف هذا الكتاب
له من الملح الطريفة ، والفكاهات الشريفة .

وأولها : سأل السيد امتع الله ببقائه ، أن أملى جوامع ما جرى بيننا وبين
أبي بكر الخوارزمي أعزّه الله من مناظرة مرة ، ومناظرة أخرى ، وموادعة أولاً ،
ومناظرة ثانياً ، املاء^(٣) يجعل الأسماع له عياناً . فتلقيته بالطاعة ، على حسب
الاستطاعة ، ولكن للقضية سبب لا تطيب إلا به ، ومقدمات لا تحسن إلا
معها ، وسأسوق بعون الله صدر حديثنا إلى النجف ، كما يساق الماء ، إلى الأرض الجرز .
وأولها : إنا وطننا خراسان فما اخترنا إلا نيسابور داراً ، وإلا جوار السادة
جواراً ، لا جرم إنا حططنا بها الرجل ، ومددنا عليها الطنب ، وقدئماً كنّا نسمع
بحديث هذا الفاضل فننشوقه ، ونخبر به ونخبره على الغيب فنتعشقه ، وتقدير أنا إذا
وطننا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا في العشرة عن القشرة ، [وفي المودة عن

(١) كذا في الأصل سماها التوسع والتدوير وقد طبعت هذه الرسالة بمصر ولندن
باسم الترييع والتدوير وكذا هي في فهرس مؤلفات الجاحظ .

(٢) النسخة بتمامها أوردها إبراهيم أفندي الأحذب الطرابلسي في كتابه « كشف
المعاني والبيان » عن رسائل بديع الزمان ، المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠ م وبين
نسختنا هذه والمطبوع اختلاف كثير نشير إلى بعضه في أسفل الصفحات
فائدة للبطلع .

(٣) في المطبوع : املاء يجعل السماع له عياناً . فما تلقيته إلا بالطاعة . . . إلا
ان للقصة تشبيها لا تطيب إلا به . . . صدر حديثنا إلى العجز .

الجلدة] ، فقد كانت كلمة الغربية جمعتنا ، ولحمة الأدب نظمنا ، وقد قال شاعر
القوم غير مدافع :

أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

فأخلف ذلك الظن كل الاخلاف ، واختلف ذلك التقدير كل الاختلاف ، وقد
كان اتفق علينا في ذلك الطريق [من العرب] إتفاق ، لم يوجب استحقاق ، في بز
بزوه ، وفضة فضوها ، وذهب ذهبوا به . ووردنا نيسابور براحة أتق من الراحة ،
وكيس أخل من جوف حمار ، وزى أوحش من طلعة المعلم بل أطلاعة الرقيب ، فما
حللنا إلا قصة جواره ، ولا وطننا إلا عتبة داره . هذا بعد رقعة قدمناها ، وأحوال
أنس نظمناها ، فلما أخذتنا عينه ، سقانا الدردى من أول دنه ، و [أجنانا] سوء
العشرة من با كورة فنه ، من طرف نظر بشطره ، وقيام دفع في صدره ، وصديق
استهان بقدره ، وضيف استخف بأمره ، لكنا أقطعناه جانب أخلاقه ، وولينا
خطة رأيه ، وقاربناه إذ جاذب ، وواصلناه إذ جانب ، ولبسناه على خشونته ،
وشربناه على كدورته . ورددنا الأمر في ذلك إلى زى استغثه ، ولباس استرته ،
وكاتبناه نستين قياده ، ونستميل فؤاده ، ونستقيم منآده ، بما هذه نسخته .

بسم الله الرحمن الرحيم : الأستاذ أبو بكر والله يطيل بقاءه ، أزرى بضيفه
إذ وجده يضرب [إليه] آباط القلة ، في أطار الغربية ، فأعمل في ترتيبه أنواع
المصارفة ^(١) ، وفي الاهتزاز له أصناف المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، وإشارة
بشطر الكف ، ودفع في صدر القيام ، ومضغ للكلام وتكلف لود السلام . وقد
قبت تربيته صغرا ، واحتملته وزرا ، واحتضنته بكرا ، وتأبطته شرا ، ولم آله عذرا .
فانما المرء بالمال . وثياب الجمال ، ولست مع هذه الحال ، وفي هذه الاسمال ، اتقدر
صف النعال . فلو أتى صدقه العتاب ، وناقشته الحساب ، لقلت إن بوادينا ثاغية

(١) في المطبوع : فأعمل في رتبته . في المكانين وفي نسختنا هنا : في ترتيبه وأظنه
الصواب . وفي المكان الثاني : في تربيته صغرا (بالغين المعجمة) واحسبه خطأ .

صباح ، وراغية رواح ، وناساً يجرون بالمطارف ، ولا يتمتعون المعارف :
وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل
فلوطوحت بأبي بكر إليهم طوائع الغربة : لوجد منال البشر قريباً ، ومحط الرحل
رحيباً ، ووجه المضيف خصبياً .

ورأى الأستاذ أبي بكر أيده الله ، في الوقوف على هذا العتاب الذي معناه ود ،
والمرء الذي يتلوه شهد ، موفق إن شاء الله تعالى . فأجاب بتأني نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم : وصلت رقعة سيدي ورئيسي أطال الله بقاءه إلى آخر
السكباچ^(١) ، وعرفت ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتبه وعتابه ، وصرفت
ذلك منه إلى الضجرة التي لا يخلو منها من مسه عسر ، ونبايه دهر . والحمد لله الذي
جعلني موضع نفسه^(٢) ، ومظنة مشتكى ما في نفسه ، أمّا شكاه سيدي ورئيسي
من مضايقتي إياه كما زعم في القيام ، فقد وفيت له حقه أيده الله سلاماً وقيماً على قدر
ما قدرت عليه ، ووصلت إليه ، ولم أرفع عليه إلا السيد أبا البركات [العلوي] ،
وما كنت لأؤثر أحداً على من أبوه الرسول^(٣) وأمه البتول ، وشاهده التوراة
والانجيل ، وناصره التأويل والتنزيل ، والبشير به جبريل وميكائيل . وأمّا القوم
الذين صدر عنهم سيدي فكما وصف : حسن عشرة ، وسداد طريقة ، وجمال
تفصيل وجملة ، لقد جاورتهم فأحمدت المراد ، ونلت المراد :

فان أك قد فارقت نجداً وأهله فما عهد نجد عندنا بدميم
والله يعلم نيتي للأحرار^(٤) كاوة ، ولسيدي من بينهم خاصة ، فان أعانني على

(١) السكباچ فسرّه الاحدث بقوله : هو طبيب يعمل من اللحم والخل والمرق
معرب وربما كان أصفر بوضع زعفران ونحوه فيه . (٢) نفسه : النفس محرّكة
الضرب بالناقوس وبالسكون العيب . وفي المطبوع موضع انسه .

(٣) وما كنت لأرفع احداً على من جده الرسول ... وشاهده ... وناصره . الخ
(٤) والله يعلم نيتي للأخوان ... فان أعانني الدهر على ما في نفسي بلغت إليه
ما في الفكرة ... وان قطع طريق عشرتي بالمعارضة . الخ .

بعض ما في نفسي بلغت له بعض ما فيه النية ، وجاوزت به مسافة القدرة ، وإن قطع على طريق عزمي بالمعارضة ، وسوء المؤاخذة ، صرفت عنائي عن طريق الاختيار ، بيد الاضطرار :

وما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفواً غديرها^(١)
وبعد : فحبذا كتاب سيدى إذا استوجبتنا عتياً ، واقترفنا ذنباً ، فأما أن يسلفنا العربدة فنحن نصونه عن ذلك ، ونصون أنفسنا عن احتماله ، ولست أسومه أن يقول : استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . ولكنى أسأله أن يقول : لا تثرىب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

فحين ورد الجواب وعين العذر رائدة تركناه بعرة ، وطويناه على غره ، وعمدنا لذكره فسحونا عن صحيفتنا ومحونا ، وصرنا إلى اسمه فأخذناه ونبذناه ، وركبنا خطته وتجنبنا خطته^(٢) فلا طرنا إليه ولا طرنا به . ومضى على ذلك الأسبوع ودرجت الأيام ، ودرجت الليالى ، وتطاولت المدة ، وتصرم الشهر ، وصرنا لا نغير الأيام ذكره ، ولا نودع الصدور حديثه ، وجعل هذا الفاضل يستزيد ويستعيد ، بألفاظ تقطفها الأسماع من لسانه وتوردها إلى ، وكلمات تحفظها^(٣) الألسنة من فمه وتعيدها على . فكاتبناه بما هذه نسخته :

أنا أرد من سيدى الأستاذ أطل الله بقاءه شرعة ودّه وأن لم تصف ، وألبس حلة بره وإن لم تصف ، وقصاراى أن أكيله صاعاً عن مدّ . فأتى وإن كنت فى الأدب دعى النسب ، ضعيف السبب ، سىء المنقلب ، ضيق المضطرب ، أمت إلى عشرة أهله بنية ، وأنزع إلى خدمة أصحابه بطريقة ، ولكن بقى أن يكون الخليط منصفاً فى الوداد ، إن زرت زار^(٤) وإن عدت عاد . وسيدى أيدى الله ناقشنى فى القبول أولاً ، وصارفى فى الاقبال ثانياً . فأما حديث الاقبال ، وأمر الانزال ،

(١) فى المطبوعة : معينها . (٢) وفيها : خلطته . (٣) فى المطبوعة : تقطعها الاسماع . . . وكلمات تخطفها الالسنه . (٤) فى نسختنا : وإن زدت زاد .

فنطاق الطمع ضيقٌ عنه ، غير متسع لتوقعه منه ، و بعد : فكلفة الفضل هينة ،
وفروض الود متعينة ، وأرض العشرة لينة ، وطرقها بينة ، فلم أختار قعود التعالى
مركباً ، [وصعود التعالى مذهباً] ، وهلاً داد الطير عن شجر العشرة وذاق الحلو
من ثمرها . فقد علم الله تعالى أن شوقي إليه قد كد الفواد يرحا إلى يرح ، ونكاه
قرحا على قرح ، لكنها مرة مرة ، ونفس حرة ، لم تقد إلا بالإعظام ، ولم تلق
إلا بالاجلال والاكرام ، وإذا استعفاني من معاتبتة وأعفى نفسه من كف
الفضل يتجشمها ، فليس إلا غصص الشوق أتجرعها ، وحلل الصبر أتدرعها ،
وكم اعزه من نفسي ^(١) وأنا أعلم لو أنى أعرت جناحي طائر لما طرت إلا إليه ، ولا
وقعت إلا عليه ^(٢) :

أحبك يا شمس المعالي وبدرها وإن لا منى فيك السَّهْمُ والفراق
وذاك لأن الفضل عندك باهرٌ وليس لأن العيش عندك بارد
فلما وردت عليه الرقعة ؛ حشر تلاميذه وخدمه ، وزم عن الجواب قلمه ،
وحبس للإيجاب قدمه ^(٣) ، وطلع مع الفجر علينا . ونظمت حاشيتنا دار الامام
أبي الطيب . فقلت : الآن تشرق الحشمة وتنور ، وتنبج في العشرة وتغور ، وقصدناه
شاكرين لما تاه . وانتظرنا عادة بره ، وتوقعنا مادة فضله ، فكان خلبا شمناه . وآلا
وردناه ، وصرفنا الأمر في تأخره ، وتأخرنا عنه الى ما قال عبدالله بن المعتز :
إننا على البعاد والتفرق لَنَلْتَقِيَ بالذَّكر إن لم نَلْتَقِ ^(٤)
وقول آخر وقد أحسن وزاد
أحبك في البتول وفي أيها ولكي أحبك من بعيد

- (١) في المطبوعة : ولم أعره من نفسي . فانا لو اعرت الخ .
(٢) في المطبوعة وانشدنا قول ابن عسرونا أبي الطيب . إلا أنه أوردهما بعد
بيت ابن المعتز الآتي (٣) وفيها : وجشم للإيجاف قدمه ، و طلع مع الفجر
علينا طلوعه ، ونظمتنا حاشيتنا دار الامام أبي الطيب . فقلت الخ .
(٤) في هامش نسختنا : اى بالجسم

وبقينا نلتقى خيالاً ، ونقنع بالدكر وصلاً ، حتى جعلت عواصفه تهب ، وعقار به
تدب ، وهو لا يرضى بالتعريض حتى يصرح ، ولا يقنع بالتعاف^(١) حتى يعلن ، وأفضت
الحال به وبنا معه ؛ إلى أن قال : لو أن بهذا [البلد] رجلاً تأخذه هزة الهمم ،
وتملكه أريحية الكرم ، لجمع بيني وبين فلان يعنيني

ثم رأى إذا انجلى الغبار أفرس تحت أم حمار
وودّ [فلان] بوسطاه بل ييمناه لو رحلنا وقلنا في المناخ له ، وأتى بكلمات تحذو هذا
الحدو وتنحو هذا النحو ، وألفاظاً أتقنا من علو ، فكان من جوابنا :

بعض الوعيد يذهب في البيد

وقلنا : الصدق ينبي عنك لا الوعيد

وقلنا : إن أجراً الناس على الأسد أكثرهم له رؤية .

وقد قال بعض أصحابنا : قلت لفلان لا تناظر فلاناً فإنه يغلبك . قال : أمثلي

يُغلب وعندي دوتر مجلد ، ووجدنا عندنا دفاتر مجادة ، وأجزاء مجودة ، وأنشدناه
قول حجل بن فضالة :

جاء شقيق عارضاً رُحمه إن بني عمك فيهم رماح

هل أحدث الدهر لنا توبة^(٢) أم هل رقت أم شقيق سلاح

وقلنا : انا نفتحهم الخطب ، ونوسط الحرب ، فتردها مفحمين ونصدر بلغاء :

والسننا قبل النزيل قصيرة ولكنها بعد الزال تطول^(٣)

° ° °

فمن ظن أن قد يلاقى الحرو ب وأن لا يصاب فقد ظن عجزاً

(١) في المطبوعة : بالنفاق (٢) في المطبوع : بل أحدث الدهر لنا توبة . البيت

(٣) في المطبوعة :

والسننا قبل الزال قصيرة ولكنها بعد الزال طوال

وبعده ، وقد سقط من نسختنا

فأرضك أرضك إن تأتينا تتم نومة ليس فيها حلم

فالم متى شئت لقيت منا خصما ضحيا ، ينهشك قضا ، ويأكلك خضا ،
وحملناه على قول القائل :

السلم تأخذ منا مريضيت به والحرب تأخذ من أنفاسها جرح
وقلناه :

نصحتك فالتمس يا وليك غيري طعاما إن لحى كان مرا
ألم يبلغك ، فعلت ظباه بكاطمة غداة لقيت عمرا
وجعل الشيطان يثقل بذلك أجفان طرفه ، ويقيم شعرات أنفه :

وحى ظن أن الغش نصحي وخالفني كائن قلت هجرا
واتفق أن [السيد] أبا على أدام الله عزه نشط للجمع بيننا . فدعاني فأجبت ،
وعرض على حضور أبي بكر فطلبت ، وقت هذه عدة لم أزل أنتجزها ، وفرصة
لا أزال أنتجزها ، فتجشم السيد أبو الحسن أعزه الله مكابته يستدعيه ، فاعتذر
أبو بكر بعذر في التأخر . فقلت : لا ولا كرامة للدهر أن تقعد تحت ضيمه ، أو نقبل
خسف ظلمه . وكتبت أنا له أشجذ عزيمته على البدار ، وألوى رأيه عن الاعتذار ،
وأعرفه مافى ذلك من ظنون تشبهه ، وتهم تتجه ، وتناذير^(١) تختلف ، واعتقادات
تخلف ، وقدنا إليه مراكوبا لنكون قد ألزمناه الحج ، وأعطيناه الراحة . فجا،نا بطبقة
أف ، وعدد تف

كل بغيض طوله أصبع وأنفه خمسة أشبار

مع أصحاب عانات ، وأرباب جربانات ، وسرحنا الطرف منه ومنهم في أحى
من أسد النمر ، وأعطس من أنف النمر ، فرأينا رجالا جوفاء ، قد حلقوا صوفاء ، فأما
المعرة ، ولم نخش المضرة .

والمناظرة بينهما يطول ذكرها ، ويعظم قدرها ، ويخرج بها الكتاب عن

(١) في المطبوع : ونصاوير بدل وتناذير وقوله : وعدد تف . في نسختنا : دلف

لحده . ولكنى ألع منها باليسير ، إذ لو ذكرت جميع المعارضات والمناقضات ، والمبادهة والمواجهة ، لأضعفت على ما كتبت .

فمن ذلك ان البديع قال قلت له : اقترح على غاية ما فى طوقك ، ونهاية ما فى وسعك ، حتى اقترح عليك أر بعائة صنف من الترسل ؛ فإن سرت فىها برجلين ، ولم أطر بجناحين ، فلك فيها السبق .

مثال ذلك ، أن أقول لك : اكتب كتابا يقرأ جوابه منه ؛ هل يمكنك أن تكتب ؟

أو أقول لك : اكتب كتاباً على المعنى الذى اقترح وأنظم شعراً وأفرغ منهما فراغاً واحداً ، هل كنت تمد لهذا ساعداً ؟

أو أقول لك : اكتب كتاباً فى المعنى الذى أقول وأنص عليه . وأنشد من القصائد ما أريده من غير تناقل ولا تفاقل ، حتى إذا كتبت ذلك قرىء من آخره إلى أوله وانتظمت معانيه إذا قرىء من أسفله ؛ هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً ، أو تحيل قدحاً ، أو تصيب نجحاً ؟

أو قلت لك : اكتب كتاباً إذا قرىء من أوله إلى آخره كان كتاباً ، وإذا عكست سطروره مخالفة كان جواباً ، هل كنت فى هذا العمل وارى الزند ؟ قاصد القصد .

أو قلت لك : اكتب كتاباً على المعنى الذى اقترح لا يكون فيه معنى متصل من واو تتقدم الكلمة أو منفصل عنها ، بديهية هل كنت تفعل ^(١) ؟

أو قلت لك : اكتب كتاباً خالياً من الألف واللام ، لا تصب معانيه إلا على قلب الفاظه ، ولا تخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تقف من ذلك موقفاً مشهوراً ؟ أو يبعثك ربك مقاماً محموداً .

(١) فى المطبوعة : كتاباً فى المعنى الذى تقترح ، ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة ، أو دال يفصل عن الكلمة بديهية ، ولا يحم فيها قلبك

أو قلت لك : اكتب كتاباً أوائل سطوره كلها ميم ، وآخرها جيم ، على المعنى الذى أريد ، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة ، أو تخطو فى أرضه خطوة ؟

أو أقول لك : اكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل ، هل كنت تحظى منها بطائل ؟ [أو تبلى لهاتك بناطل] .

أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا قرئ ، معوجاً ، أو سرد معرجاً ، كان شعراً ، هل كنت تقطع فى ذلك سعراً ؟ بلى والله تصيب ، ولكن فى بدنك ، وتقطع ولكن من شعر ذقنك .

أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا فسر من وجه كان مدحاً ، وإذا فسر من وجه آخر كان قدحاً ، هل كنت تقدر على هذه العمدة ؟ أو تخرج من هذه العهدة .
أو أقول لك : اكتب كتاباً كنت قد حفظته دون أن لحظته ، هل كنت تثق من نفسك به ؟ بل أست المباين أعلم .

فقال أبو بكر : هذه الأبواب شعبة . فقلت : وهذا القول طريدة ، فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها ، حتى أباحك عن مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها ، وأثير فيها قلمك ، واسبر لسانك وفمك . فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان . فقلت : أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة ، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم ، المتداول بكل يد وفم ، ولا تحسن هذه الشعبة . فقال : نعم ! فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل ، وأنا بلك بهذا النبل ، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك ، ويعارض انشأى بانشاءك . فأقترح كتاباً يكتب فى النقود وفسادها ، وفى التجارات وكسادها ووقوفها ، والبضاعات وانقطاعها ، والأسعار وغلانها .

فكتب أبو بكر بما نسخته ، بسم الله الرحمن الرحيم : الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة ؛ بهما يتوصل إلى جنات النعيم ، ويخلد فى نار الجحيم ، قال الله تعالى : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم إن صلاتك

سكنُ لهم والله سميع عليم . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الاكبار ، وأنكرناه أعظم الانكار ، لما نراه من الصلاح للعباد ، وننويه من الخير للبلاد ، وتعرفنا في ذلك بما يربح الناس في الزرع والضرع - إلى كلمات لم تعلق بحفظنا . فقلت : إن الانكار والاكبار ، والبلاد والعباد ، وجنات النعيم ونار الجحيم ، والزرع والضرع^(١) . قد نبت عن العد ، وزلت عن اليد . وقد كتبت كما ترى بما ساوق فيه اللسان القلم ، وسابقت اليد الغم ، ولا أطالبك بمثل ما أنشأت . فاقراه ولك اليد . وناولته الرقعة فبقى وبقيت الجماعة ، وبهت وبهت الكافة

وهذا ما كتب البديع ارتجالاً ، بسم الله الرحمن الرحيم : الله شاء ، إن ، المحاضر صدور بها وتملاً ، المنابر ظهور لها وتفرع ، الدفاتر وجوه بها وتمشق ، المحابر بطون لها ترشق آثارا كانت ، فيه آمالنا مقتضى على أياديه في ، تأييده الله أدام الأمر جرى وإذا ، المسلمين ظهور عن الثقل هذا ويرفع ، الدين اهل عن الكل هذا يحبط أن في اليه تنضرع ونحن ، واقفة والتجارات ، زائفة والنقود ، صيارفة اجمع الناس صار فقد ، كريما نظرا اليها لينظر ، شيمه مصاب وانجعنا ، كرمه بارقة وشمنا ، همه على أموالنا رقاب وعلقنا ، احوالنا وجوه له وكشفنا ، آمالنا وفود اليه بعثنا فقد ، نظره بحميل يتداركنا أن ، ونعماءه تأييده وبقائه الله أدام ، الحال الجليل الأمير رأى ان . وصلى الله على النبي محمد وآله وصحبه وسلم . فجعلت اقراه منكوساً ، واسرده معكوساً ، والعيون تبرق وتحار . فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين ، وقال الناس فقد عرفنا الفاضل من المفضل ، ثم بلنا الى اللغة والعروض والنحو والشعر والحفظ ، فلما برد ضجر الناس وقاموا

(١) في المطبوع : قد نبتت في المعد . ولم تزل في اليد . وقد كتبت وكتبت . ولا اطالبك بمثل ما أنشأت . (الى ان قال) وبهت الكافة . وقالوا لي : اقراه فجعلت اقراه منكوساً ، واسرده معكوساً ، والعيون تزرق وتحار . وكانت نسخة ما أنشأناه : بسم الله الخ .

يفدوننى بالأمهات ، ويشتمون الفرس المنبت^(١) ، وقام ابو بكر فغشى عليه [وقت
اليه] قلت :

يعزّ على في الميران أنى قلت مناسبى جلدًا وقهرا
ولكن رمت شيئًا لم يرمه سواك فلم اطق ياليت صبرا

وخرجت وقد اجتمع الناس . فتلقونى بالشفاه تقبيلًا ، وبالأفواه تبجيلًا ،
وانتظروا خروجه الى أن غابت الشمس فلم يظهر . حتى خفره الليل بجنوده ، وخلع
عليه الظلام خلع بروده^(٢)

رجع الى ما انقطع : كان بمصر شريف من ولد العباس يعرف بأبى جعفر الشق ،
شبيه بابن الجصاص فى الغفلة والجد والنعمة . قال ابو القاسم بن محمد التنوخى : بعثى
أبى إليه من قرية تعرف بتلا يستقرضه عشرة أراذب قمحًا وثلاثين زوج بقر ،
وكتب معى بذلك رقعة ، فأتيت اليه وسلمت عليه ودفعت اليه الرقعة . فقال :
ذكرت أباك بخير وحرسه واسعده ، فهو صاحبى وصديقى وخليطى ، واين هو
الآن ؟ قالت : بقرية تلاء عزّ الله سيدى الشريف . قال : نعم ! حفظه الله هو
بالفسطاط معنا وقد انقطع عنا كذا ما كنت أظنه إلا غائبًا . قالت : لا ياسيدى
هو بتلا . قال : فمالك ما قلت لى ؟ فما كان سبيله أن يونسى بركة من قبله .
قلت : ياسيدى قد دفعت اليك رقعته . قال : وأين هى ؟ قلت : تحت البساط
فأخذها وقراها . وقال قل لى الآن : كان لك أخ أعرفه حار الرأس حاد الذهن
يُحسن النحو والعروض والشعر فما فعل الله به ؟ قلت : أنا هو أعزك الله . قال :
كبرت كذا ، وعهدى بك تأتىنى معه وأنت بزقة مخطة لعقة قرد لاش قلت : نعم !

(١) فى المطبوعة : وقاموا عن المجلس يفدوننى بالامهات والاب ، ويشيعونه
باللعن والسب (٢) الكلمات التى تقدمت بين مربعين هى من المطبوعة ، وقد
تركنا ألفاظا وجملا اختصرها الحصرى قصدا ، ومن احب الوقوف على ما دار
بينهما من جميع المناظرة فعليه بالنسخة المطبوعة .

أيد الله الشريف . قال : وما الذى جئت فيه . قلت له : والذى بعثنى إليك برقعة يسألك فيها قرض عشرة أرادب قمحا وثلاثين زوج بقر . قال : وهو الآن بالفسطاط ؟ قلت : لا ياسيدى هو بتلا . قال : نعم ! وإنما ذاك الفتى أخوك ؟ قلت : لا أنا هو ، فهو يراجعنى الكلام ، وقد ضجرت من شدة غفلته وكثرة نسيانه لما أقول له حتى أقبل كاتبه أبو الحسين . فقال له : سل هذا الفتى ما أراد . فسألنى فعرفته فأخبره . فقال له : نفذ له حاجته فوقم لى الكاتب بما أراد . وقال : تلقانى للقبض بالديوان ، فشكرت الشريف ونهضت . فقال : اصبر يا بنى فقد حضر طعامنا وقدم الطعام وفيه حصرية غير محكمة ، فرفع يده وقال : مثل مطبخى يكون فيه مثل هذه على بالطباخ ، فأتى فقال له ما هذا العمل ؟ فقال : ياسيدى إنما أنا صانع وعلى قدر ما أعطى أعمل ، وقد سألت المنفق يشتري لى ما أحتاج إليه فتأخر عنى فعملت على غير تمكن فجاء التقصير كما ترى . فقال : على بالمنفق فأحضر . فقال : مالى قليل ؟ قال : لا ياسيدى بل عندك نعم واسعة . قال : فما لك تضايقنا فى النفقة ولا توسع كما وسع الله علينا . قال : ياسيدى إنما أنفق ما أعطى وقد سألت الجهمذ أن يدفع لى فتأخر عنى . فقال : على بالجهمذ فأتى به . فقال : مالك لم تدفع للمنفق شيئاً . قال : لم يوقع لى الكاتب . فقال للكاتب : لم لم تدفع إليه شيئاً ؟ فتلعثم فى الكلام ولم يكن عنده جواب . فقال للكاتب : قف هاهنا فوقف ، ووقف خلفه . الجهمذ ، ووقف خلف الجهمذ المنفق ، وخلف المنفق الطباخ . وقال : نفيت من العباس إن لم يصفع كل واحد منكم من يديه بأكثر مما يقدر عليه فتصافعوا . قال : فخرجت وأنا متعجب من غباوته ورقته فى هذا الحكم .

ودخل عليه كاتبه أبو الحسين فوجده يبكى بكاء شديداً ، ويقول : وأتقصام ظهراه ، وأهلا كاه . فقلت : ما للشريف لا أبكى الله عينه ؟ فقال : ماتت الكبيرة - يريد أمه - وكان باراً بها . فقلت : ماتت ؟ قال : نعم ! فشقت جيبى وأظهرت من الجزع ما يجب للمثل ، ثم اتى أنكرت الحال إذ لم أجد لذلك دليلاً ،

لا أحد يعزبه ، ولا في الدار حركة ، فبقيت حائرة حتى أتت الخادمة . فقالت :
الكبيرة تقرئك السلام وتقول لك إيش تأكل اليوم ؟ قال : قولى لها ، ومتى
أكلت قط بغير شهوتك . فقلت : يا سيدى والكبيرة في الحياة ؟ فقال : وإيش
تظن أنها ماتت من حق ؟ إنما رأيت البارحة في المنام كأنها راكبة على حمار
مصرى تسقيه من النبل ، فذكرت قول الشاعر : اذا ذهب الحمار بأم عمرو . البيت
المشهور .

وقال أبو الحسين كاتبه : وأتيت إليه يوماً وقد ماتت والدتي فعرفته فبكى ، وقال :
ماتت كبيرتى ومرييتى ، وهو كان أكبر منها بأربعين سنة . ثم قال لغلامه :
يا بشر قم فحشى بعشرين ديناراً فأتاه بها . فقال : خذها فاشتر بمشرة دنانير كفنّاً
وتصدق بخمسة دنانير على القبر ، وأقبل بصرف الخمسة الباقية فيما يحتاج إليه من
تجهيزها . ثم قال لغلام آخر : امض أنت يا لؤلؤ الى فلان صاحبنا لا يفوتك
يفسلها ، فاستحييت منه . وقالت : يا سيدى أبعت خلف فلانة جارة لنا تغسلها .
قال : يا أبا الحسين ما تدع عقلك في فرح ولا حزن كأن حرمك ما هي حرمى ؟
كيف يدخل عليها من لا تعرفه . قلت : نعم ! تأذن لى بذلك . قال : لا والله
ما يغسلها إلا فلان ! فقلت : وكيف يغسل رجل امرأة قل : وإنما أمك امرأة والله
لقد أنسيت

وكان يوماً عند أبى بكر المادرائى ثم خرج وهو طيب الخلق ، فاجتاز بابن
زنبور ، فسمع خفق أوتار وغناء في داخل الدار فوقف يسمع ، فرآه غلام لابن زنبور
فدخل فأعلم مولاه فخرج حافياً . وقال : يا مولاي الشريف تشرفنى بالدخول قال :
نعم ! فدخل فقدم له طعاماً فأكل وشرب ثلاثة أقداح وغنى ثلاثة أصوات
وانصرف ، فنام ليلته فلما أصبح . قال : يا بشرى جئنى الساعة بأبى شامة العابر ،
فأتاه به فقال : رأيت البارحة كأنى خرجت من دار اخوانى فاجتزت بدار حسنة
فسمعت خفق العيدان ، وغناء القيان ، فخرج الى صاحب الدار فأدخلنى فأفضيت

الى بستان فى الساحة ، أمامه نهر جليل ، فى صدره شاذروان . وقد فرش المجلس بأنواع الديباج الثقيل . وضربت شارة فيها غرائب الصور وعجائب الصنائع ، وفيها قيان بأيديهن العيدان وهن يغنين أحسن الأغاني ، فقدم لى خوان عليه من كل الألوان فأكلت وشربت وغذيت وانصرفت ، فمسرله الرؤيا على مايسره . فأمر له بخمسة دنانير ، ثم مر بعد أيام بابن زنبور وهو جالس على باب داره . فقال له : يا سيدى الشريف ما تشرفنى بعودة . قال : الى ماذا ؟ قال تمنى الى عادة حضورك . قال : ومتى تقدم لى ذلك ؟ قال : ليلة كذا . قال : وإنما خدعنا العابر وأخذ متاعنا بالباطل امضوا اليه وردوا الخمسة دنانير منه ، ثم فكر ساعة . وقال : دعوه لعله أنفقها وهو فقير .

وشرب مرة أخرى عند ابن زنبور الكاتب ومعه ابن المادرائى ، وحضر القيان فغنين أطيب غناء ، فقام الشريف الى قضاء الحاجة فأنت دابة ابن المادرائى فانصرف والشريف فى الخلاء ف قضى حاجته وعاد الى موضعه ، وكان ابن زنبور لما انصرف أبو بكر رجع فى دستانه ، فالتفت اليه الشريف . وقال : يا أبا بكر هذا الكلب ابن زنبور عنده مثل هذا السماع الطيب ولا يمتنعنا به كل وقت ، إنما يدعوننا من مدة الى مدة . فقال له ابن زنبور : هو على قدر ما يتفق له من الفراغ وهو مشغول مع سلاتانه فى أكثر أيامه . قال : لا والله ! ما هو إلا كلب تجلب فاعل صانع . فقال له : أعز الله الشريف أبو بكر انصرف وأنا ابن زنبور . فقال له : اعذرنى والله ما ظننتك إلا ابن المادرائى ؟ فقال : أراك تشتمنى غائبا وحاضرا .

وقال له بعض أصحاب الأخشيد : أحب أن تبكر الى بالغداة فى حاجة للأمير أيده الله ، وذكر الحاجة . فقال : أنا آتيك أول الناس كلهم ، فمضى وأكل وشرب أقداحا ونام القائلة فاستيقظ بالعشى ، فقام مذعورا فلبس ثيابه وركب الى الرئيس فاستأذن عليه فدخل . وقال : اعذرنى أعزك الله فقد ضربنى النوم والله ما صليت

الصباح من السرعة ، ولقد آثرت الحجيء اليك عايها وأنا أستغفر الله عليها ، فضحك حتى استلقى . وقال له : قد احتجنا الى تأخير الأمر الى الغد إن شاء الله . قال : فانا أبكر اليك على كل حال وانصرف .

قال بعض الرواة : خرجنا نريد البصرة فنزلنا على ماء لبنى سعد ، فاذا أعرابية نائمة فأنبهناها للصلاة ، فأتت الماء فوجدته باردا فتوجهت الى القبلة قاعدة ولم تمس الماء فكبرت ثم قالت : اللهم قمت وأنا عجلى . وصليت وأنا كسلى ؟ فأغفر لى عدد الثرى ، قال فمعجبنا وقلنا : ما تجوز لك الصلاة وما هذه بقراءة . قالت : والله إن هذه لصلاتى منذ أربعين سنة . وقام أعرابى وقد حضرت الصلاة فقال حى على العمل الصالح قد قامت الفلاح ثم تقدم فكبر . وقال : اللهم احفظ لى حسبى ونسبى ، وأردد على ضالتى ، واحفظ هملى ، والسلام عليكم . وصلت أعرابية فى شهر رمضان فقرأ الامام السجدة فسجد وسجدت الناس ، فخرجت تحضر وتنادى : صعق الناس ورب الكعبة ، وقامت القيامة !! وقام أعرابى يصلى وخلفه قوم جلوس . فقال : الله أكبر أفلح من هب الى صلاته ، وأخرج الواجب من زكاته ، وأطعم المسكين من فخلاته ، وحافظ على بعيره وشاته . فضحك القوم . فقال : أمن هيئتمى ضحككم ؟ أشهد عند الله على عمى أنها سمعت ذلك من فى مسيلة .

وقف أعرابى يسأل فقال له رجل : يا أعرابى هل لك فى خير مما تطلب ؟ قال : ما هو ؟ قال : أعلمك سورة من القرآن . فقال : لا والله إنى لأحسن ما إن عملت به لكفانى ؟ أحسن منه خمس سور ، فاستقرأته فقرأ : الحمد ، والنصر ، والكوثر ، وسكت . فقلت : هذه ثلاث فأين الاثنان ؟ قال : إنى وهبتهما لابن عمى وعلمته إياها ولا والله لا أرجع فى شىء أبدا . دخل أعرابى الحمام فلما أحس بوجهه أنشأ يقول :

أدخلت فى بيت هم مهندس قد ضربوه بالرخام الأملس

فسكّ سمى واستطار نفسى وقلت فى نفسى بالتوسوس
أدخلت فى النار ولما أرمس
وقل أعرابى فى الظلى بالنورة :

أناس عليهم كسوة لا تجهم سرايل خضر ليس فيها بنائق
بيعموها تاجر لا يقيمهم بيهم تلك السرايل حاذق
وقال أبو الفتح كشاجم :
ومجرد كالسيف أسلم نفسه بمجرد يكسوه مالا ينسج
ثوبا تمزقه الأنامل رقة ويدوب من نظر العيون وينهج
فكأنه لما استقل بجسمه نصفان ذا عاج وذا فيروزج

وهب سليمان بن أبى جعفر لأعرابى كساء شامية ، فلما أتى أهله وأبصره
صبيانهم تطايروا فرعا من بين يديه ، وقالوا : لقد أصابت أبانا داهية فأنشد :
طرحت عمامتى ولبست تاجا على عنقى له ذنب طويل
تصايح صبيتى لما رأوه وقالوا جاء سعلالة وغول
قيل لأعرابى : اتعرف أبا عمرة — يريد الجوع ؟ — قال : وكيف لا أعرفه
وهو متربع على كبدى . وقيل لآخر أتتخمون ؟ قال : وما التخمة إن كانت
الى يدور منها الرأس فما تفارقنا يريد الجوع . ومرا أعرابى بمرآة ملقاة فى مزبلة
فنظر وجهه فيها فاذا هو سمج بغيض ، فرمى بها . وقال : ما طرحك أهلك من
خير . ونظر مزيد فى المرآة وجهه فرآه قبيحا . فقال : الحمد لله ! الذى لم يحمده على
المكروه سواء . والشئ يذكرك بما قاربته ، رأى الخطيئة وجهه فى بئر فقال :
ارى لى وجهها قبح الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله
ولهذا خبر ذكرت الرواة : أن الزبرقان بن بدر استعدى على الخطيئة
عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال هجانى بقوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فقال عمر : ما أرى هذا هجاء ، وكان أعلم بذلك من كل أحد ولكنه أراد
درة الحدود بالشبهات . فقال الزبير بن ثابت : هذا حسان بن ثابت . فقال : على بحسان
فأنشده الشعر . فقال : ما هجاء يا أمير المؤمنين ولكن سلاح عليه ، فأحضر الخطيئة .
وقال : ها تمّ الشفرة أقطع لسانه ، فاستشفع فيه فحبسه فكتب إليه من الحبس :

ماذا تقول لأفراخ بنى مرخ زغب الحواصل لاماء ولا شجر
غادرت كاسهم فى قعر مظامة فاعفر هداك مليك الناس يا عمر
أنت الامام الذى من بعد صاحبه ألفت إليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت لها الأثر
فبكى عمر وأحضره . فقال : قد والله يا أمير المؤمنين هجوت أبى وامراتى وأمى .
قال : وكيف ذلك ؟ قال قلت لأبى :

ولقد رأيتك فى المنام تسومنى وأنا بنيك فساءنى فى المجلس
وقلت لأمى :

تنحى فاجلسى منى بعيداً أراح الله منك العالمينا
أغربالا إذا استودعت سرّاً وكانوا على المتحدثينما
وقلت لامراتى :

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى بيت قعيدته لكاع
وأطلعت فى بئر فرأيت وجهى قبيحاً فقلت :

أبت شفتاى اليوم إلا تكلماً بسوء فلا أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجهها قبح الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله

فتبسم عمر . وقال : فان عفونا عنك أتهجو بعدها أحداً ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ،
وعلى بذلك عهد الله ! فقال : لكأنى بفتى من قریش قد نصب لك نمرقة
فاتكأت عليها ، وأقبلت تنشده فى أعراض المسلمين . قال : أعوذ بالله
يا أمير المؤمنين . قال بعض الرواة : فوالله لقد رأيت عند عبيد الله بن زياد على

الحال التي ذكر عمر ، فقلت له : لكان أمير المؤمنين عمر كان حاضراً لك اليوم ،
فتأوه . وقال : رحم الله ذلك المرء فما أصدق فراسته .

ومن ملبح ما قيل في مرآة . قول كشاجم يصف مرآة أهداها :
أخت شمس الضحى في الشكل والاشراق غير الإعشاء للأجفان
ذات طوق مشرف من لجين أجريت فيه صفرة العقيان
فهو كذالة الحيطه بالبد ر لست مضين بعد ثمان
وعلى ظهرها فوارس تاهو بيزة تعدو على غزلان
لك فيها إذا تأمات قال حسن مخبر بنيل الأمانى
لما يكن قبلها في الماء جرم حاضر نفسه بغير أوان
هى شمس فإن مثالك يوماً لاح فيها فأنما شمسان
فأنقها منك بالذى ما رآه خائف فأننى بغير أمان
وقال ابن المعتز :

مبينتى لى كل مارمت نظرة وناصحتى مع فقد كل صديق
يقابلى منها الذى لاعدته باجة ماء وهو غير غريق
أشار في البيت الأول إلى قول ذى الرمة وذكر ناقته :

ذا أذن جسر وذفرى أسيلة وخذ كمرآة الغريبة أسجح
يريد أن الغريبة لا تصح لها ، نهى تجلوا مرآتها وتحافظ عليها . وقال أبو الحسن
ابن يونس المصرى يصف غلاماً :

يجرى النسيم على غلالة خده وأرق منه ما يمر عليه
ناواته المرآة ينظر وجهه فعمست فتنة ناظريه إليه

وأهدى بعض الكتاب الى رئيسه مرآة . فقال : من أين وقع اختيارك عليها ؟
قال : لتذكرنى بها كلما نظرت الى وجهك الحسن . وقالت امرأة سقراط له : ما أقبح

وجهنك . قال : لولا أنك من المرايا الصديقة لتبين لك حسن وجهي / وكانت امرأته كثيرة الأذى له . أقبلت يوما تشتمه وهو ملج ينظر في كتاب ولا يلتفت اليها ، وهي تغسل ثوبا فأخذت الغسالة وأراقها عليه . فقال : مازلت تبرقين وترعدين حتى امطرت . ولما مضى به ليقتل ، أقبلت تبكي وتصيح وامظلوماه . فقال : أكان يسرك أن أقتل ظالما ؟ ومر هو وغيره من الحكماء بامرأة مصلوبة فقال : ليت يشمر لنا مثل هذا الثمر .

سرق حمار أبي العيناء فتخلف عن أبي الصقر . فقال له : ماخلفك عنا يا أبا عبد الله ؟ قال : سرق حماري . قال وكيف سرق ؟ قال : لم أكن مع اللص فأخبرك قال : مامنمك أن تأتينا على غيره . قال : أقعدني عن الشراء قبة ذات يساري ، وعن الكراء ذلة المكارى ، وعن الاعارة منة العواري . وقيل له : ما بقى أحد يحب أن يلقى . قال : إلا في بشر ! وذكر له ولد عيسى بن موسى ، وكانت أنوفهم كبارا معوجة . فقال : كأن أنوفهم قبور نصبت على غير القبلة . ونظر مخنث رجلا كبير الأنف فيه شعر . فقال : كان أنفه كنيف مملوء شسوعا . قال ابو حاتم السجستاني : قدم علينا أعرابي كأن أنفه كوز في عظمه ، فضحكنا منه . فقال : أتضحكون من أنني ؟ وأنا والله ما اسمي في قومي إلا الأفطس . وقال محمد بن عبد الملك الزيات في عيسى بن زئنب :

إن عيسى أنف أنفه أنفه ضعف لضعفه
لو تراه وهو في السر ج وقد مال بمطفه
لحسبت الأنف في السر ج وعيسى مثل ردفه <

قال أبو العيناء لابنه وهو مريض : أي شيء تشتهي ؟ قال : اليم . وكان في مجلس اسماعيل بن اسحاق القاضي ، فدخل رجل ومشى على رجله فصاح . فقال : بسم الله !

قال : القصاب يذبح ويقول بسم الله . وكان يوما على بابه فمر به رجل فسلم عليه وقام يتشى معه . فقال : لا تعن يا أبا عبد الله . فقال : ما عننا من أبعذك عن داره . وقال له المتوكل : لا تكثر الوقعة في الناس . قال : إن لي في بصرى لشغلا . قال : ذاك أشد خنقك على أهل العافية . وقال له المتوكل يوما : هل رأيت طالبيها قط حسن الوجه ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أحدا يسأل أعمى عن هذا !! قال : لم تكن ضريرا فيما ساف ، وإنما سألتك عما تقدم . قال : نعم ! رأيت ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه ، ولا لطف شمائل . فقال المتوكل : نجده كان مؤجرا وكنت تقود عليه . فقال أبو العيناء : معاذ الله يا أمير المؤمنين أتراني أترك موالى . وأقود على الغرباء . فقال له المتوكل : اسكت يا مأبون . فقال له : مولى القوم منهم . وكان ولاء ابن العيناء لابن العباس . فقال المتوكل : قاتله ! الله أردت أن اشتفى منه فاشتفى منى . وقال له مرة : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : في داء يتمناه الناس . قيل له : وكم سنك ؟ قال : قبضة . يريد ثلاثا وتسعين سنة ، ويقال : إن جده الأكبر لقي على بن أبي طالب رضى الله عنه فأساء مخاطبته فدعا عليه وعلى ولده بالعمي ، فكل من عمى منهم فهو صحيح النسب . وكان قبل العمى أحول . قال : ذكرت لبعض القينات فاستظرفتنى واستحسنتنى على السماع ، فلما رأتنى استقبحتننى . فقلت لها :

وشاطرة لما رأتنى تنكرت وقالت قبيح أحول ماله جسم
فإن تنسكرى منى آحولا لا فإننى أريب أديب لا غي ولا قدم
فقلت : أنا لم أردك لأوليك ديوان الزمام .

وهذا مجلس له مع المتوكل من طريق الصولى ، وله مجالس يدخل الرواة بعضها في بعض . قال الصولى حدثنى أبو العيناء قال : أدخلت على المتوكل فدعوت له وكلمته فاستحسن كلامى . وقل : بلغنى أن فيك بداء . قلت : يا أمير المؤمنين إن يكن الشر الذى بلغك عنى ، ذكر الحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته فقد ، رضى الله تعالى وذم . فقال : نعم العبد إنه أواب . وقال : همار شاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم . وقال الشاعر :

إذا أنا لم أمدح على الخير أهله ولم أذمم الجنس اللئيم المذمما
فنيهم عرفت الخير والشر بأسمه وشق لي الله المسامع والفما

وإن كان الشر الذي بلغك عنى كفعول العقرب الذي تلدغ النبي والذمي بطبع
لا يتميز ، فقد صان الله عبدك عن ذلك . قال : بلغني أنك رافضي . قال : وكيف
أكون رافضيا وبلدي البصرة ، ومنشئ في مسجد جامعها ، وأستاذي الاصمعي .
وليس يخلو القوم إن كانوا أرادوا ديننا أو ديننا ، فإن كانوا أرادوا الدين فقد أجمع
المسلمون على تقديم من أخروا وإيمان من كفروا . وإن كانوا أرادوا الدنيا فأنت
وآباؤك أمراء المؤمنين لادين إلا بكم ، ولا دنيا إلا معكم . قال : فكيف ترى داري
هذه ؟ قال : رأيت الناس بنوا دارهم في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك . قال :
فما تقول في عبد الله بن يحيى ؟ قال : نعم العبد لله ولك يقسم بين طاعته وخدمته ،
يؤثر رضاك على كل فائدة ، وما عاد بصلاح مملكك على كل لذة . قال : قد
أردت لك المجالستي . قال : أنا رجل محجوب - وقد تقدم هذا - قال : فوصلني بعشرة
آلاف درهم .

وكان نجاح بن سلمة قد ضمن الحسن بن مخلد وموسى بن عبد الملك بنال
عظيم المتوكل ، فاحتال عبد الله بن يحيى حتى تضمناه بذلك وعاد عليه الأمر ،
ثم اغتاله موسى بن عبد الملك فقتله ، فبلغ الأمر بالمتوكل فأكبره وعظم بالايقاع بموسى
فتناطف عبيد الله بن يحيى وعمه الفتح بن خاقان حتى سكن غضبه ، واتفق ذلك
في ولادة المعتز فاشتغل باللهو والسرور بذلك ، فدخل أبو العيناء بعد ذلك على
المتوكل . وكان واجدا على موسى بن عبد الملك ؟ فقال : ما تقول في نجاح بن
سلمة ؟ قال ما قاله الله عز وجل : فوكره موسى فقتل عليه . واتصل ذلك بموسى
فلقى عبيد الله بن يحيى . فقال : أيها الوزير أردت قتلى فلم تجد حيلة إلا ادخال أبي
العيناء على أمير المؤمنين مع عداوته لي ، فعاتب عبيد الله أبا العيناء على ذلك .
فقال : ما استعذبت الوقعة فيه حتى ذمت سريره فيك ، فأمسك عنه . ثم دخل

بعد ذلك على المتوكل . فقال له : كيف كنت بعدى ؟ فقال : فى أحوال مختلفة خيرها رؤيتك ، وشرها غيبتك . فقال : قد والله اشتقتك : قل : إنما يشاق العبد ربه لأنه يتعذر عليه لقاء مولاه ، وأما السيد متى أراد عبده دعاه . فقال له : من أسخى من رأيت ؟ قل ابن أبى دواد . فقل له المتوكل : تأتى الى رجل قد رفضته فتنسبه الى السخاء . قل : إن الصدق يا أمير المؤمنين ليس فى موضع أنفق منه فى مجالسك ، وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه الى الجود ، لأن جود البرامكة منسوب الى الرشيد ، وجود الحسن والفضل ابنى سهل منسوب الى المأمون ، وجود ابن أبى دواد منسوب الى المعتصم ، وإذا نسبت الناس الفتح بن خاقان وعبيد الله بن يحيى الى السخاء فذلك سخاؤك يا أمير المؤمنين . قل : صدقت ! فمن أبخل من رأيت ؟ قال : موسى بن عبد الملك . قل : وما رأيت من أبخله ؟ قل : رأيت يجرم القريب كما يجرم البعيد ، ويعتذر من الاحسان كما يعتذر من الاساءة . قل : قد وقعت فيه عندى مرتين وما أحب ذلك لك فائقه واعتذر اليه ، ولا يعلم أنى وجهت بك . قال : يا أمير المؤمنين تستكتمنى بحضرة الف . قال : ان تخاف . قل : على الاحتراس من الخوف ، وسار الى موسى فاعتذر كل واحد منهما الى صاحبه وافترقا عن صلح ، فلقيه بعد أيام بالجعفرى فقال له : يا أبا عبد الله قد اصطالحنا فما لك لا تأتينا ؟ قال : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس . قال موسى : ما أرانا إلا كما كنا . وقال له المتوكل : ابراهيم بن نوح النصرانى واجد عليك . فقال : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . وقال له : إن جماعة السكتاب يلومونك . فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على أئامها

ووقف به رجل من العامة فأحس به . فقال : من هذا ؟ قال : رجل من بنى آدم . قال : مرحبا بك أطل الله بقاءك وبقيت فى الدنيا ، ما أظن هذا النسل إلا قد انقطع . وزحمه رجل على حمار بالجرس ، فضرب بيده على آذان الحمار . وقال : يا انسان قل للجرار الذى فرقك يقول الطريق . وسئل أبو العيناء عن مالك بن

طوق . فقال : لو كان في بنى اسرائيل ونزل ذبح البقرة ما ذبح غيره . قيل : فأخوه
عمر ؟ قال : كسر اب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . قيل :
فما تقول في محمد بن مكرم والعباس بن رستم ؟ قال : هما الخمر والميسر إثمهما أكبر
من نفعهما . وقال له ابن مكرم : إن ابن السكبي تعجبه الرائحة الخبيثة . قال : ياسيدي
لو وجدك لترشفك . ودعا ضريراً يعشيه فلم يدع شيئاً إلا أكله . فقال له : يا هذا
دعوتك رحمة ، فصيرتني رحمة . وقدم إليه أبو عيسى بن المتوكل سكباجة ، فجعل
لا تقع يده إلا على عظم . فقال : جعلت فداك هذه قدر أو قبر ؟ وهذا كما ذكر
ابن طباطبا العلوي وقد دعاه بعض اخوانه فتأخر عنه الطعام إلى أن اشتد به الجوع ،
ثم قدم إليه جدياً هزيراً فقال ^(١) :

يادعوة مغبرة قائمه كأنها من سفرة قادمه
قد قدموا فيها مسيحية أضحت على إسلامها نادمه
وبعد شطرنجية لم تزل أيدٍ رأيدٍ حولها حاتم
فلم نزل في لعبها ساعة ثم رفعناها على قائمه

(١) في ديوان المعاني لأنبي هلال العسكري خبر طريف لهذه الدعوة . قال : ومن جيد
ما قيل في ذم الدعوة ، قول ابى الحسن بن طباطبا وقد دعاه الكراريسى ف قرب اليه
مائدة عليها خيار وفي وسطها جامات عليها قطر ولم يصحبها بوارد فسمها مسيحية ،
لأنها اشبهت موائد النصارى ، وقدم سكباجة بعظام عارية فسمها شطرنجية ، ثم
قدم مضيرة في غضارة بيضاء فسمها معقدة لأن البياض لبس المعقد وهي لا تمس
الدهن والطيب ، ثم زيرباجة بأطراف جدى صفراء لعل زعفرانها فسمها عابدة
لأن الوان العباد صفر ، ثم قدم لونا بقضبان مخلولة فسمها قنية ، ثم قدم لونا
بزيب اسود فسمها موكبية ثم قلية بعظام الاضلاع فسمها حسكية لتشبه لحما ،
ثم قرب زعفرانية فسمها سالحية صفراء ، ثم قرب فالودجة قليلة الزعفران والحلاوة
فسمها صابونية ، ثم اعتل على الجماعة بان ابنه خليل فلولهم من منزله الى بستان قد طرق
بالكرات ، واحضر لهم جرة مثلمة يمزجون فيها شراهم ، واذا ضرب احدهم

وكرر الأرز ، نقل :

أرزٌ جاء يتبعه أرزٌ هو الأيطاء يتخذ اتخاذاً
فايطاء القريض كـ علمد وإيطاء الضمير يكون هذا
فدعا الرجل جماعة من الشطرنجيين . وقل : تعلوا حتى تروا الشطرنجية ،
فكتب اليه :

ورقعة كنا رفعناها نشرتها لنا طويئها
أعددت للعب شطرنجها لو أمكن القمر قمرناها
والله لو أحضرتها زيريا ماميز الفرزان والشاهها

والإيطاء تكرار القوافي بتكرار معانيها . كقول امرئ القيس :
عظيم طويل مطمئن كأنه بأسفل ذي ملوان سرحة مرقب
وليس بإيطاء ، قول الأثير بن الفضل عبید الله الميكالى :
وكل غنى يتيه به غنى فترجع بموت أو زوال
وهب جدى طوى لى الأرض طراً أليس الموت يزوى ما زوى لى
وقوله :

أخوك من إن كنت فى يؤسى ونعمى عادلك

الغائط نقلها معه ، وربط الأفكار بخدائهم عجلة تخور عليهم خواراً شبيهاً بغناء فاطمة .
فقال : (وذكرا الأبيات وهى قصيدة طويلة) اقتصر المصنف منها هنا على هذه الأربعة ،
ولم يذكر العسكرية الأرز . ثم قال ان التكرار يسي لما سمعها حلف لا يدخل ابداً الحسن
ولا احداً من اصحابه داره ، واتخذ دعوة دعا قوماً من الشطرنجيين . فقال ابو الحسن :
إنما دعاهم لينظروا فى الشطرنجية التى كنا نقضناها على قائمة هل يمكن فيها من حيلة ؟
وكتب اليه من وقته ابياتاً منها :

طمعت يا احق فى قمرها لو أمكن القمر قمرناها
فان اقاموها فما ذنبنا كنا على ذاك نقضناها

وإن يدك منعماً بالبر منه عادلك

وقوله :

جمال الناس في المزا ح وخل المراحة
وتفاسح وقل لمن يتعالي المراح مة ؟

وعلى ذكر الطعام . قال الجار : جاءنا فلان بمائدة كأنها زمن البرامكة على

العفافة ، ثم جاءنا بشراب كأنه دمنة اليتيم على باب القاضي .

قد جن أضيافك من جوعهم فاقراً عليهم سورة المائدة

وقال ابن الرومي — يصف طعاماً آكله عند أبي بكر الباقطاني :

وسميطة صفراء دينارية ثمننا ولونا زفها لك حذور

عظمت فكادت أن تكون أوزة وهوت فكاد أهابها يتفطر

ظلمنا نقشر جلدها عن لحها وكأن تبراً عن لجين يُقشر

وتقدمتها قبل ذاك ثرائد مثل الرياض بثلين يُصدر

ومدققات كلهن مزخرف بالبيض منها ملبس ومدنر^(١)

وأنت قطائف بعد ذاك لطائف ترضى اللهاة بها ويرضى الخنجر

ضحك الوجوه من الطبرزد فوقها دمعُ العيون من الدهان تعصر

ومن مباح ما قبل في القطائف ، قول علي بن يحيى بن منصور بن المنجم :

قطائف قد حشيت باللوز والسكر الماذي حشو الموز

(١) في ديوانه النسخة العتيقة التي بدار الكتب المصرية رقم ١٣٩ ادب .

ملبس ومدنر . وفي ديوان المعاني : ملبس ومدنر ، وقوله : ضحك الوجوه . البيت

هذا التصحيح من نسخة ديوانه وكذا في ديوان المعاني وفي نسختنا

ضحك الوجوه من الزبرجد فوقها دمعُ العيون من الدهان يقصر

والطبرزد : السكر وربما قالوا : طبرزد

تسبح في آذى دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزي
سرور عباس^(١) بقرب فوز

ولم يقل أحد في الموزينج أحسن من قول ابن الرومي :

لا يخطئ منك لوزينج إذا بدا أعجب أو أعجبا
لم تغلق الشهوة أبوابها إلا أبت زلفاه أن يحجبا
لو شاء أن يذهب في صخرة لسهل الطيب له مذهبا
يدور بالنفخة في جامه دوراً ترى الدهن له لولبا
عاون فيه منظر مخبراً مستحسن ساعد مستعذبا
مستكثف الحشو ولكنه أرق قشراً من نسيم الصبا
كأنما قدت جلايبه من أعين القطر إذا قتبنا
يخال من دقة خرسائه^(٢) شارك في الأجنحة الجندبا
لو أنه صور من خبره ثغر لكان الواضح الأشنبا
من كل بيضاء يود الفتى أن يجعل الكف لها مركبا
مدهونة زرقاء مدفونة شبيهة تحكى الأزرق الأشنبا
مأذ عين وفم حسات وطابت حتى صبا من صبا
ذيق له اللوز فما مرة مرت على الذائق إلا أبى
وانتقد السكر نقأه وشاوروا في تقده المذهبا
فلا إذا العين رآته نبت ولا إذا الضرس علاه نبا
لا تنكروا الأدلال من وامق وجهه تلقاكم المطلبا

(١) عباس : هو ابن الاحنف الشاعر . وفوز صاحبه

(٢) كذا في الأصل . وفي ديوانه : يخال من رقة خسر شايه . ولم اهتم الى معناه . والبيت الذي يليه في ديوان المعاني هكذا :

لو أنه ثغر لرومية لكان منه الواضح الأشنبا

هذه الأبيات يقولها في قصيدة طويلة يمدح بها أبا العباس أحمد بن محمد
ابن عبيد الله بن بشر المرثدي ويهنيه بابن له ولد أولها :

بدر وشمس ولدا كوكبا أقسمت بالله لقد أنجبا
وقال أبو عثمان الناجم : دخلت على أبي الحسن وهو يعمل هذه
القصيدة . فقلت له : لو تفاعلت لأبي العباس بسبعة من الولد ، لأن عباس يجيء
منكوسا سابع ، فلو تصور ذلك لجاء المعنى ظريفاً . فقال بديهاً :

وقد تفاعلت له زاجراً كنيته لازاجراً تعلما
إني تأملت له كنية إذا بدا مقلوبها أعجبا
يصوغها العكس أنا سابع وذاك قال لم يعد معطبا
وقد أتاه منهم واحد فلننتظر ستة غيبا
في مدة تعمرها نعمة يجعلها الله له ترقبا (١)
حتى تراه جالسا بينهم أجل من رضوى ومن كبكبا
كالبدروا في الأرض من نوره بين نجوم سبعة فاختبا
وليشكر الناجم عن هذه فأنها من بعض ما بوبا
أسدى وألحت قتي لم أزل أشكر ما أسدى وما سببا
وقال يصف الرأس والرغفان (٢) :

ما إن رأينا من طعام حاضر نعتده لفجأة الزوار

- (١) قوله : ترقبا في ديوانه : ترتبا والبيت الأخير في ديوانه هكذا :
- أسدى وألحت أخ لم أزل أحمد ما سدى وما سببا
- (٢) في ديوانه : يصف الرأس وأرغفة الحوارى وأتى بالأبيات هكذا :
- ما إن علمنا من طعام حاضر نعتده لفجأة الزوار
كمهين من الطعام فيهما شبه من الأبرار والفجار
هام وأرغفة وضاء فخمه قد أخرجنا من جاحم فوار

كهيئين من الطعام أصبحا شيمًا من الأبرار والفجار
روس وأرغفة ضخام فخمه قد أخرجت من جاحم فوار
كوجوه أهل الجنة ابتسمت لنا مقرونة بوجوه أهل النار

ومن تشابهه العقم :

ما أنس لا أنس خبرًا مررت به يدحو الرقعة وشك الملح بالبحر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر
وكان ابن الرومي منهومًا في الماء كل وهي التي قتلته ، وكان معجبًا بالسماك ،
فوعده أبو العباس المرئدي أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة لا يقطعها فبعث ، إليه
منه يوم سبت ثم قطعه فكتب إليه :

ما حيتنا جفتنا وأنى أخاف الزائرون منتظرهم
قد أرحنا اعتقالهم وجعلنا سبتهم جمعة فإيشكيم^(١)
جاء في السبت زورهم فأتينا من حفاظ عاييم ما يكفيهم
وجعلناه يوم عيد عظيم فكاننا اليهود أو نحكيم
وأراهم مصممين على الهجر فلم يسخطون من يرضيهم
قد سبتنا فما أتينا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيم
فاتصل ذلك بالناجم فكتب إليه :

أبا حسن أنت من لا ترا ل محمد في الفضل رجحانه
فكم تحسن الدن بالمرئدي وقد قاتل الله إحسانه
ألم تدر أن وعده كالسرا ب إذا وعد الخير إخوانه
وبحر السراب يفوت الطالب فقل في طلابك حيتانه

(١) هذا البيت من ديوانه . وقوله : قد سبتنا فما أتينا وكانوا . في ديوانه
سبتنا وإنما كان قوم . البيت

وخرج ابن الرومي مع بعض إخوانه في حديثه إلى بعض المنزهات ، وقصدوا
كرماً رازقياً ، فشرّبوا هناك عامة يومهم ، وكانوا يتهمون في الشعر . فقالوا : إن كان
ما تشدنا لك فقل في هذا شيئاً فقال : لا تريموا حتى أقول ، ثم أنشد بديها :

ورازقٍ مخطف الحصور	كأنه مخازن البلور
قد ضمنت مسكا إلى الشطور	وفي الأعلى ماء ورد جوري
لم يبق من وهج الحرور	إلا ضياء في ظروف نور
لو أنه يبقى على الدهور	قُرط آذان الحسان الحور
بلا مزيد وبلا شذور	له مذاق العسل المشور ^(١)
وبرد مس الخصر المقرور	ونكهة المسك مع الكافور
ورقة الماء على الصدور	باكرته والطير في الوكور
بفتية من ولد المنصور	أملأ للعين من البدور
حتى أتينا خيمة الناطور	قبل ارتفاع الشمس للذور
فانحط كالطاوى من الصقور	بطاعة الراغب لا المقهور ^(٢)
والحر عند الحلب المشطور	حتى أتانا بضروع ضور
مملوءة من عسل محصور	والطل مثل اللؤلؤ المنثور
ينساب مثل الحية المذعور	بين سماطى شجر مسطور
ناهيك للعنقود من طهور	فنيلت الأوطار في سرور

(١) في ديوانه : بلا فريد وبلا شذور . والشذور : حبه . ولم يتبين لى معنى
المزيد أو الفريد . والشطور الأربعة في ديوانه هكذا :

ونكهة المسك مع الكافور	ورقة الماء على الصدور	—
وبرد مس الخصر المقرور	باكرته والطير في الوكور	—

(٢) في ديوانه :

فانقض كالطاوى من الصقور	بطاعة الراغب لا المجبور
-------------------------	-------------------------

وكل ما يقضى من الأمور تعلقة من يومنا المنظور

ومتعة من متع الغرور

قال الناجم : جلست معه على باب داره وقد أبلّ من علة. فمر بنا الحاجب . فقال : قوما عندي نتحدث اليوم ، وعندى مصوص وأشياء لطيفة لاتضرك وأشرب مع أبي عثمان بحضرتك وثمّ أنس يومنا . فقال : إنا نأتيك الساعة وأبو عثمان فامض ونحن في أثرك ، فمضى ولحقناه فحجب عنا ، فانصرفنا وأبو الحسن مغضب ، فدخلت على أبي الحسن في ذلك اليوم ، فوجدت بين يديه قصيدة طويلة جدا أولها :

نحاك يا ابن الحاجب الحاجب وأين ينجو مني الهارب

فعجبت من سرعة عمله . وقلت : أعزك الله متى عملتها ؟ قال : الساعة . قلت : وأين مسودتها ؟ قال : هي هذه . قلت : وما فيها حرف مصلح . قال : قد استوت بديهي وفكرتي ، فما أعمل شيئاً فأكاد أصلحه .

وكان سبب موته أنه كان منقطعاً الى القاسم بن عبيد الله بن وهب ، وكان القاسم مغرمًا بشعره مستظرفاً له محسناً اليه . فقال له أبوه : قد أردت أن أرى من روميك هذا ؟ فأحضره وحضر أبوه فلما انقض المجلس . قال له : كيف رأيتك ؟ قال أرى ما يسوءني ولا يسرنى ، أرى رجلاً صحيح الشعر سقيم العقل ، ومثل هذا لاتؤمن بوادره ، وأقل غضبة بغضبها تبقى في أعراضنا مالا يغسله الدهر ، والرأى ابعاده . قال : وكيف ذلك بعد اتصاله ، أخاف أن يظهر ما أضمره . قال : يا بني اتبع فيه قول أبي حية :

يقلن لها في السر هديك لا يرّح صحبها وإلا تقتليه فالمم

فأخبر القاسم بقول أبيه ابن فراس . وكان أشد الناس عداوة لابن الرومي . فقال : إنما أشار عليك باغتياله ، وأنا أكفيك أمره ، فسم له لوزينجة وقدم له الحمام وهي في أعلاه ، فلما تناولها أحس بالموت ونهض قائماً . فقال له : الى أين

يا أبا الحسن ؟ قال : الى حيث أرسلتني . قال : اصرفوه فقد غلب عليه السكر ، فخرج وهو لما به ، فلقى الناجم فقال :

أبا عثمان أنت عميد قومك وجودك للعشيرة دون لومك
تنتفع من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك

وكان شديد التغير ، سريع الانقلاب ، ضيق الصدر ، قليل الصبر ، مفرط الطيرة غالبا فيها ، وكان عظيم التخوف ، كثير التجسس ، يراه من يلقاه كالمتوجس المدعور . ذكر بعض أصحابه . قال : كنت أسايره ونحن سائرون ، فلم أنشب أن تراءيته قد ترجل عن دابته بسرعة ، ولجأ إلى بعض الدكاكين وأسلم الدابة . فأمرت من أمسكها وأتيت إليه . فقلت : ما بالك يا أبا الحسن ؟ وإذا هو يضطرب اضطرابا شديدا ، فأمسكت عنه حتى سكن وقام فركب الدابة . فقلت له : ما الذي هاجك ؟ قال : أما ترى ذلك ، وإذا برجل من العامة يحمل ذو بينا - وهي عصا في طرفها حديد - بشعبتين . فقلت : أراه . فقال : أو ما ترى البركار الذي بيده ، ما يؤمنني أن يلويه على عنقي فيقتله .

وحكى عنه : أنه سأل الموفق أو غيره في قدح محكم رآه فأعجبه فوهبه إياه . قال بعض إخوانه : وكنت معه وقد خرج من دار السلطان فوضعه على رأسه ثم أزاله بسرعة ثم وضعه على ركبته ثم رمى به فكسره . فقلت له : ما هذا الخاطر الفاسد ؟ قال : وصل إلى هذا القدح وما على وجه الأرض أحب إلى منه ، فوضعت على أشرف أعضائي ! ثم ذكرت قول بعض الحكماء : إن الصاعقة إذا قابلت الشيء الشفاف انحدرت إليه ، فخفت أن تقع على صاعقة قهلكني ، ثم وضعت على ركبتي فخفت أن تصدمني دابة فينكسر فيدخل في جسمي فيكون سبب علة مزمنة ، وخفت أن يكون الذي دعاني إلى طلبه ما أراد الله بي ، فرأيت الراحة في كسره .

وكان أبو الحسن على بن سليمان الأخفش غلام ابني العباس المبرد في أيام ابن

أبى أوفى شاباً مترفاً ، وأديبا مستظرفاً ، وكان يعيث به فيقرع عليه الباب . فيقال له : من بالباب ؟ فيقول : قولوا لاني الحسن مرة بن حنظلة ، فيتطير لقوله ويقم أياًماً لا يخرج من داره . وكان ذلك سبب هجائه إياه . وقرع عليه الباب يوماً وقيل إن البحترى وجه اليه من قرع عليه بابه . فقال : من هذا ؟ فقال : سخطه الحى القيوم ، والمهل والغسلين والزقوم ، والشيطان الرجيم . وكل بلاء كان أو يكون إلى يوم الدين . فأقام مدة لم يخرج ، فسأل عنه الموفق . فقيل هو في حبس البحترى . وتخلف أياًماً عن بعض الأشراف سبب طيرة عرضت له ، فبعث إليه غلاماً جميلاً فقرع الباب . فقيل من ؟ قال : إقبال ، فخرج فرأى وجهها مستحسن الصورة حسن الهيئة . فقال له : مولاي يرغب في حضورك ، فمشى معه ثم توجس وبقى باهتاً مطرقاً لا ينصرف ، ثم مشى قليلاً فلما قارب الجسر انفتل بسرعة شديدة ثم مضى على وجهه إلى داره فأغلق الباب على نفسه ، وكتب إلى الرجل : تحلفت أطال الله بقاءك عن حظي من لقائك لأعدمته . لى أياًماً وأنا أتقلى على جماجم الضجر ، بما جرى به القدر ، من كلام سمعته وأمر توقعته ، فاتانى غلام جميل اسمه إقبال . فقلت : هذا حسن ، فخرجت معه ثم فكرت أن إقبالا إذا نكس كان لا بقاء . فقلت : هذا من ذاك ، فمشيت معه مقدماً رجلاً ومؤخراً أخرى حتى صرت بالجسر ، فرأيت حبلاً مفتولة قد التوت فصار كل واحد منها في صورة لام الف . فقلت : هذه تحقق ما ظننت من لا بقاء بقولها : لا لا ، فما حصلت في الدار . إلا بعد خوف مضى المقدار ، فابسط العذر في التأخر والسلام .

وقال على بن ابراهيم كاتب مسرور الباغى : كنت بدارى جالساً بباب الشعير على أسرة نصبت لى في صحن الدار ، فاذا حجارة قد سقطت على فبادرت هارباً وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح والنظر إلى كل ناحية من أين تأتينا ؟ فقال لى : امرأة من دار ابن الرومى الشاعر قد أشرفت وقالت : اتقوا الله فينا واسقونا جرة من الماء وإلا هلكنا ، فقدمت من عندنا عطشنا ، فتقدمت إلى امرأة عندنا

ذات عقل ومعرفة بأن تصعد إليها وتخطاها ففعلت . وبادرت بالجرة وأتبعها بشيء من المأكول . ثم عادت وقالت : ذكرت المرأة أن الباب مقفل عليها منذ ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي ، وأنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ثم يصير إلى الباب والفتاح بيده ثم يضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع على جاره له كان نازلاً بأزائه وكان أعور يقعد كل غداة على بابه ، فاذا رآه رجع وخلع ثيابه . وقال : لا يفتح أحد الباب ، فعجبت من حديثها . وبشت بخادم لي كان يعرفه فأمرته بأن يجلس بأزاء بابه ، وكانت العين تميل إليه . وتقدمت إلى بعض غلمانى أن يدعو الجار الأعور ، فلما حضر عندى أدى الغلام إلى ابن الرومي رسالتى يستدعيه الحضور ، فأتى الجالس وعننى الأعور إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسى ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتضد ، ودخل ابن الرومي فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع شمع نعله فدخل مذعوراً ، وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حاله ، فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه . فقلت له : يا أبا الحسن مالك ؟ أليكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل . فقال : قد لحقنى ما رأيت من العثرة لأنى فكرت أن به عاهة وهى قطع أنثيه . فقال : برذعة وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم ! ويفرط . قال : ومن هو ؟ قلت : أبو الحسن ابن الرومي . قال : الشاعر ؟ قلت : نعم ! فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه	بتفريق ما بينى وبين الحباب
رجعت على نفسى فوطئتها على	ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صعب الدنيا على جور حكمها	فأياهم محفوفة بالمصائب
فخذ خلصة من كل يوم تعيشه	وكن حذرا من كائنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر وأطرح	تطير دار أو تفاؤل صاحب

فبقى ابن الرومي باهتا ، ولم أدر أنه شغل قلبه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة وبرذعة معه ، فخلف ابن الرومي أن لا يتطير أبدا من هذا ولا من

غيره ، وأوماً الى جاره . فقلت : وهذا الفكر أيضاً من التطير ، فأمسك وعجب من جودة الشعر ومعناه في حسن مآناه . فقلت له : ليتنا كتبناه . فقال : اكتبه فقد حفظته ، وأملأه على .

ومن الدليل على شدة حذره ، وعظم تطيره ، قوله لأبي العباس احمد بن محمد ابن ثوبة ، وقد ندبه الى الخروج وركوب دجلة (١) :

لئلا الخير تحذيري شرار الحطاب	حضضت على حطبي لناري فلا تدع
من الشوك يزهد في الثمار الأطايب	ومن يلق ما لاقيت من كل مجتنى
الى وأغراني برفض المطالب	اذا قنتي الأسفار ما كره الغنى
رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب	ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة
على من التفرير بعد التجارب	وصبري على الإقتار أيسر محلا
لقيت من البحر أبيضاض النوائب	لقيت من انهر التباريح بعدما
شغفت لبغضها بحب المجادب	سقيت على ري به الف مطرة
تحامق دهر جد بي كالملاعب	ولم أسقها بل ساقها لمكيدتي
برحلى أتاها بالغيوث السواكب	أبي أن يغيث الأرض حتى اذا أرمت
تمايل صاحبها تمايل شارب	سقى الأرض من أجلى فاضحت مزلة
مميل غريق الثوب لهفان لائب	فلت الى خان مرث بناؤه
وفي سهر يستغرق الليل واصب	فما زلت في خوف وجوع ووحشة
من الوكف تحت المدجنات الهواضب	يؤرقني سقف كأنى تحته
تصر نواحيه صرير الجنادب	تراه اذا ما الطين أثقل متنه
كما أنقض صقر الدجن فوق الأرناب	وكم خان سقر خان فانقض فوقهم
بسوطى عذاب جامد بعد ذائب	وما زال صاحي البر يضرب أهله

(١) مظهرها كما في ديوانه :

دع اللوم ان اللوم عون النوائب ولا تتجاوز فيه حد المعاتب

فذاك بلاء السبر عندى شاتيا
ألا ربَّ نارٍ بالفضاء اصطليتها
فدع عنك ذكر البر إني رأيتُه
وما زال يبغي الحتوف مواربا
فطورا يغاديني باصٍ مصلّت
وأما بلاء البحر عندى فإنه
ولو تاب عقلي لم أدع ذكر بعضه
ولم لا ولو ألقيت فيه وصخرة
ولم أتعلّم قط من ذى سباحة
فأيسر إشفاقى من الماء أننى
وأخشى الردى منه على نفس شارب
أظل اذا هزته ريح ولألات
كأنى أرى فيهن فرسان بهيمة
فان قلت لى قد يركب اليم طاميا
لدجلة خبّ ليس لليم إنها
والبحر إنذار بعرض متونه

وكم لى من صيف به ذى مثالب
من الضح يودى لفجها بالحوارب
لمن خاف هول البحر شر المهاب
يحوم على قتلى وغير موارب
وطورا يمسينى بوردر المشارب
طوانى على روع مع الروح واقب
ولسكنه من هوله غير ثائب
لواقيت منه القعر أول راسب
سوى الغوص والمضغوف غير مغالب
أمر به فى الكوز مرّ الحجاب
فكيف بأمنيه على نفس راكب
له الشمس أمواج طوال الغوارب
يلبحون نحوى بالسيوف القواضب
ودجلة عنداليم بعض المذائب
ترأى بحلم تحته جهل واثب
وما فيه من آذيه المتراكب

قيل لقينة : صوم يوم عرفة كفارة ذنوب سنة ، فصامت الى الظهر وأفطرت .
فقيل لها : ما هذا ؟ قالت : يكفينى ستة أشهر . فقد رجل على باب داره فأتاه
سائل يسأله . فقال له : اجلس ، ثم صاح بجارية عنده فقال : ادفعى الى هذا مكوكا من
حنطة : قالت : ما بقى عندنا حنطة . قال : فاعطيه درهما . قالت : ما بقى عندنا دراهم .
قال : فأطعميه رغيفا . قالت : وما عندنا رغيف ، فالتفت اليه وقال : انصرف يا ابن
الفاعلة . فقال السائل : سبحان الله تحرمنى وتشتمنى . قال : أحبيت أن تنصرف

وأنت مأجور . ورأى أعرابي الناس بمسكة وكل واحد يتصدق ويعتق ما أمكنه . فقال : يارب أنت تعلم أنه لا مال لي ، وأشهدك أن امرأتي طالق لوجهك يا أرحم الراحمين / وكان في زمن المهدي رجل ادعى النبوة فأحضره إلى المهدي . فقال له : ما أنت ؟ قال : نبي . قال : إلى من بعثت ؟ فقال له : ما أكثر فضولك ايش عليك . قال : قل وإلا أمرت بقتلك . قال : بعثت إلى أهل خراسان . قال : ولم لم تسافر إليهم ؟ قال : ما معي نفقة ، فضحك منه وأمر له بنفقة . وقال : هذا قد غلبت حيلته المرة .

وجاء رجل إلى أبي ضمضم يستعدي على رجل في دابة اشتراها منه وظهر بها عيب . فقال له أبو ضمضم : وما عيبها ؟ قال : في أصل ذنبها مثل الرمانة ، وفي ظهرها مثل التفاحة ، وفي عجيزتها مثل الجوزة ، وفي بطنها مثل الموزة ، وفي حلقها مثل الاترنجة . فقال له أبو ضمضم : مر عنا يا بارد ، هذه صفة بستان ليست بصفة دابة .

شرب ابن حمدون النديم مع المتوكل وبحضرتة غلام مليح الوجه ، فتأمله ابن حمدون تأملا شديدا وقد حمل الشراب عليه . فقال المتوكل : يا ابن حمدون ما الحكم في الرجل إذا نظر إلى غلام قى ؟ قال : أن تقطع أذنه . قال ليحكم عليك بحكمك ، فأمر أن تعرك أذنه حتى تخضر ثم تقطع ، وأمر بنفيه إلى بغداد . فلقية اسحاق ابن ابراهيم الموصلي بها فسأله عن حاله ، وعن ينادم المتوكل معه . فقال : أحد ندمائه ابن عمرو البازيار ، فسأله اسحاق عن محله من العلم والفهم . فقال له : أكثر ما يقول للخليفة . أبقاك الله يا أمير المؤمنين إلى يوم القيامة وبعد القيامة بشيء كثير . فقال له اسحاق : اعمل على أنه كان لك كراذان فقطعت . أليس ذلك أسهل من حضور مجلس تقاسى فيه ابن عمرو البازيار .

وكان ابن حمدون فأخف الناس روحا وأحلاهم دعاة ، وكان المتوكل يستملحه . فقال يوما : الزئبق من أين يجاء به ؟ فقال ابن حمدون : من الشيز وأنا أعرف

الناس بها . قال : قد وليتك إياها فأخرج إليها ، فضاقت به الدنيا ، وأنشده :

ولاية الشيز عزل والعزل عنها ^(١) ولاية

فولّى العزل عنها إن كنت بي ذا عناية

فضحك المتوكل وأعفاه . وذكر الصولي أن أخاه أحمد عمل له البيتين .

دخل أبو العيناء على محمد بن عبد الملك الزيات الوزير ، فجعل لا يكلمه إلا بأطرافه .

فقال : إن من حق نعمة الله عليك لما قد أهّلك له في هذه الحال الذي أنت

عليها ، أن تجعل البسطة لأهل الحاجة اليك ، فبقضاء الحاجات تدوم النعم . فقال

محمد : أما إني أعرفك فضولياً كثير الكلام ، وترى أن طول لسانك يمنع من

أن أدبك إذا زلت ، وأمر به إلى الحبس . فكتب إليه من الحبس : قد علمت أن

الحبس لم يكن تقدم اليك ولكنك أحببت أن تريني مقدار قدرتك عليّ لأن

كل جديد يستلذ . ولا بأس أن تريني من عفوك مثلاً أريتنا من قدرتك ، فأمر

باطلاقه . وانقطع عنه مدة فلقيه ، فحبس محمد بن عبد الملك دابته عليه . فقال : مالي

لا أراك يا أبا عبد الله تواصلنا حسب إيجابنا لك . فقال له أبو العيناء : أما المعرفة

بعنايتك فناكرة ، ولكنني أحسب الذي جدد استبطاءك فراغ حبسك ممن

كان فيه ، فأحببت أن تغمرني فيه .

/ وكان محمد بن عبد الملك على علمه وأدبه الأمم الناس ، فمن عجيب لؤمه أنه كان

له جار في انخفاض خاله وكان بينهما ما يكون بين الجيران من التباعد ، فلما بلغ

محمد ما بلغ شخص الرجل إلى سر من رأى فورد بابه وهو يتغدى ، فوصل إليه وهو

على طعامه فتركه قائماً لا يرفع طرفه إليه ، فلما فرغ من أكله . قال : ما خبرك ؟

قال قد أصارك الله أيها الوزير إلى أجل الآمال فيك ، وصرف أعناق الناس

(١) في الأصل : عنه في المسكينين والتصحيح من المعجم لياقوت . وقد حكى

ياقوت عن أبي دلف مسعر بن مهلهل الشاعر وجود معدن الذهب في الشيز .

إليك ، وقد علمت ما كنت تنقمه على وقد غير الدهر حالى فوردت إليك مستقبلا
غترانى ، مستعظفا على خلأتى . فقال له : قد علمت هذا فانصرف وعد الىّ فى
غدٍ ، فولى الرجل . فلما صار فى صحن الدار دعا به ، فلما صار بين يديه . قال له :
والله مالك عندى شئ ، ثم أقبل على بعض من كان بين يديه . فقال : إنما وردته
وآيسته بخلا عليه بفسحة الأمل بقية يومه . وهذا كقول بعضهم :

إن قات إنك كالسحاب لكان ذا وصفاً لمثلك زائدا فى الحال
إنّ السحاب لذنو مواعد جمّة ونحلت بالمعوود والأفعال
وكان محمد بن عبد الملك : واحدا فى صناعته ، مفردا فى براعته .

وكان أبو السمراء العلاء بن عاصم بن عصمة العسكرى نديم عبد الله بن طاهر
يأنس به ، ويجاريه الشعر فكتب اليه :

تقول لما جعلت أبكى سلوه بالله ممّ يبكى ؟
فقلت أبكى لما أراه عمّا قليل يكون منك
قالت فلا تخش قلت مالى قلب على الدهر يأتى منك
لا غرنى الدهر منك ودّ قالت ولا غرنى التبكى

فوقع ابن طاهر فى ظاهرها بديها :

لا أشتكى من هواك إلّا إليك لو ينفع التشكى —
حلفت جهد اليمين أن لا أزول إلّا إليك عنك
كلفتنى السعى فى طريق وعن قليل الأنيس ضحك
فرعت [بى] فى إسار قلبى ثم تشاغلّت عند فكى^(١)

ومن جيد شعره فى جارية توفيت له :

يقول لى الخلان لو زرت قبرها فقلت وهل غير القواد لها قبر —

(١) فى الأصل :

فرحت فى أسار قلبى ثم تشاغلّت عند فكى

على حين لم أحدث فأجهل فقدتها ولم أبلغ السن التي معها صبر
وهذا مأخوذ من قول أبي مسلم عبد الرحمن بن سلم ، في فصل من كتاب
كتبه الى عبد الله بن علي عند محاربته إياه ، لما خلع أبا جعفر المنصور : ولأبدلنك^(١)
موارد ضيقة ، حتى أبداك بالخلاوة علقما تمج من تطلقها دما ، أمنت صولتي ،
وقد كبرت عن صغر ، وصغرت عن كبر ، فأنا كما قال الأول :
وهل يخشى وعيد الناس إلا كبر السن والضرع الصغير
قال ابن حمدون النديم : أهدى إلينا محمد بن عبد الملك — ونحن بالبدندون —
شرا باعتيقا وكتب رقعة فيها :

ما إن ترى مثلي أخا أندى يدا وأدر جودا
أسقى الصديق بيلدة لم يسق فيها الماء عودا
صفراء صافية كأن على جوانبها العقودا
فإن استقل بشكرها أوجبت بالشكر المزيديا
فاذا خشيت على الصنيعة بالتقادم أن تبيدا
أنشئت أخرى غيرها فتركها غصا جديدا
خذها إليك كأنما كسيت زجاجتها فريدا
واجعل عليك بأن تقسيم بشكرها أبدا عهدا

وكان المعتصم : أمر بأن يعطى الواثق عشرة آلاف درهم ، يستعين بها على
أمره فيصلح بها ما يحتاج الى إصلاحه ، فدافعه بذلك مدافعة متصلة أحوجته الى
شكايته الى المعتصم ، فأنكر عليه تأخر المال . فقال : يا أمير المؤمنين العدل أولى
بك وأشبه بقولك وفعلك ، ولك عدة أولاد أنت في أمرهم بين خاتين ؛ إما أن
تسوى بينهم في العطية فتجحف بيت المال ، وإما أن تخص بعضهم فتجحف على
الباقيين . فقال : قد رهننت لساني فما تصنع ؟ قال : تأمر لباقي ولدك باقطاعات

(١) كذا ، ولعله : ولاوردنك . أو هناك سقط في العبارة

وصلات وتطلق لهارون صدرا من المال ، فأدفعه بياقيه ويتسع الأمير قليلا وتدبر الأمر بعد ذلك بما تراه . فقال له : وفقك الله فما زلت أعرف الصواب في مشورتك ، وتأدى الخبر الى هارون ، فخاف بعثق عبيده ومماليكه ، وبحبس عدة خيل ، ووقف عدة ضياع ، وصدقة مال جليل ، لئن ظفر بمحمد ليقنتله . وكتب اليين بخطه وجعلها في درج وأودعها دايته ، ومرت مدة وأفضى الأمر الى هارون ، وكان ذا أناة وعقل وكره أن يعاجله فيقول الناس بادر بشقاء غيظه ، ثم عزم على الإيقاع به ، فتقدم بأن يجمع له من وجوه الكتاب من يصلح لولاية الدواوين والوزارة فجمعوا ، ودعا بواحد منهم . وقال له : اكتب كذا في أمر رسمه له ، فاعتزل وكتب وعرض الكتاب عليه فلم يرضه حتى امتحن الجميع ، فأمر حاجبه فقال : أدخل من الملك مضطراً إليه محمد بن عبد الملك ، فحجى به وهو واجم مضطرب ، فلما وقف . قال له : اكتب الى صاحب خراسان في كذا وكذا ، فأخرج من كه نصفا ومن خفه دواة وابتدأ يكتب بين يديه حتى فرغ من الكتاب ، ثم أخرج خريطة فيها حصا فأترب الكتاب وأصلحه وتقدم فناولها إياه ، فوجده قد أتى على جميع ما في نفسه ، فأعجب به جدا . وقال : اختمه فأخرج من الخريطة طينا فوضعه عليه وتناوله فحتمه وأنفذه من ساعته . فقال الوائق للخادم له : امض الى دايي وقل لها توجه الى بالدرج الفلاني ، فمضى الخادم فجاء به فأخرج الرقعة فدفعها اليه . فقال : يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك . إن وفيت يمينك فأنت محكم ، وإن كفرت وصفحت كان أشبه بك . قال : لا والله ! ما يمنعني من الوفاء بيمينى إلا النفاسة على أن يخلو الملك من مثلك ، وأمر بمتق من حلف بعته ، ووقف الضياع ، وحبس الخيل ، وأخذ صدقة المال .

وقد فعل أبو شجاع فناخسرو قريبا من هذا بأبي اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي ، وذلك أنه كان بمختيار بن معز الدولة أحمد بن بويه الديلمي^(١) بن عمر بن

(١) كذا في الأصل ولم يستقم لي المعنى

أبى شجاع وبين بختيار منافسة بالرياسة ، فلما خلع الفضل بن جعفر وهو المطيع لله وأقيم ابنه أبو بكر عبد الكريم الطائع لله سنة أربع وستين وثلاثمائة استولى علي جميع أموره فناخسرو وصار اليه تدير المملكة وليس للخليفة سوى الاسم . وقتل بختيار ومحي أمره فأحضر أبو شجاع عضد الدولة أبا اسحاق . وقال : قد علمت ما كنت تعاملني به من قبيح المكاتبة ، وقد أحفظي ذلك ودعاني إلى قتلك ، فرأيت قتلك من الفساد في الأرض إذ كنت مقدما في صناعتك ولكن لاتعمل لي عملا ، واستصفي أمواله وحبسه وولى ديوان الانشاء مكانه أبو منصور بن المرزبان الشيرازي وكان غاية في البلاغة والفصاحة وحسن آلات الكتابة . وكتب أبو اسحاق من الحبس إلى بعض إخوانه نحن في الصحبة كالنسرين لكنني واقع ، وأنت طائر وعلى الطائر أن يغشى ويراجع . وزاره أبو الفرج البيهقي الشاعر زورة ثم قطعه ، فكتب إليه :

أبا الفرج أسلم وأبق وأنعم ولا تزل
مضت مدة أشتام ودك غاليا
وأنستني في محبسي بزيارة
ولكنها كانت كحسوة طائر
وأحببك استوحشت من ضيق محبسي
من المنسر الأشقي ومن حزة المدى
ومن صعدة فيها من الريق لهزم
فهذه دواهي الطير وقيت شرها
فأجابه أبو الفرج :

أيا ماجدا قد تم المجد ما نكص
ستخلص من هذا السرار وأيما
بدولة تاج الملة الملك الذي
وبدر تمام قد تكامل ما نقص
هلال تواري في السرار فماخلص
له في أعلى قبة المشتري حصص

تقنصت أنصافى وما كنت قبل ذا أظنّ بأن المرء بالبر يقتنص
وبعد فلا أخشى تقنص جارح ورأيتك لى وكر وقلبك لى قفص
وقال أبو اسحاق الصابى :

جملة الانسان جيفة وهيولاه سخيفه
فلماذا ليت شعرى قتل النفس الشريفة
إنما ذلك فيه قدرة الله اللطيفة

وقال :

واحق من نكسته بالصفير من درجاته
من مجده من غيره وسفاله من ذاته

أخذه من قول سقراط ، وقد مر به بعض الملوك فركله برجله . وقال : قم ! فقام غير مرتاع منه ولا ملتفت إليه . فقال الملك : أما عرفتى ؟ قال : لا ! ولكن أرى فيك طبع الكلاب فهى تر كل بأرجلها ، فغضب . وقال : أنتقول لى هذا وأنت عبدى . فقال : لا ! بل أنت عبدى . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن شهواتك ملكتك وأنا ملكتها . قال : فانى الملك بن الأملاك السادة ، ولنا كذا وكذا ألف فيل ، وكذا وكذا ألف ركوب ، وأقبل يعدد عليه ما يملكه من العروض والجواهر والعقار . فقال : اراك تفخر على بما ليس من جنسك ، وإنما سبيلك أن تفخر على بنفسك ، ولكن تعال نخلع ثيابنا ونلبس جميعاً ثوبا من ماء فى هذا اليم ونتكلم ، فحينئذ يتبين الفاضل من المفضول ، فانصرف خجلا .

واهدى الصابى إلى عضد الدولة فى يوم مهرجان اصطر لآبا بقدر الدرهم ، وكتب معه وكان حينئذ معتقلا :

أهدى إليك بنو الحاجات واحتشدوا فى مهرجان جديد أنت تبليه
لكن عبدك ابراهيم حين رأى سمو قدرك عن شىء يساميه

لم يرض بالأرض يهديها إليك فقد أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه
فرضى عنه وأخرجه من السجن .

وقال الصابي لأبي القاسم اسماعيل بن عباد الصاحب :

الله حسبي فيك من كل ما يعوذ العبد به المولى
وأسلم وعش لازلت في نعمة أنت بها من غيرك الأولى

قال مزيد : لامراته ، أنت غير شقيقة على ، ولا راعية لى . فقالت : والله لأننا
أرعى بك من التى كانت قبلى وأشفق . قال : أنت طالق ثلاثا لقد كنت آتيها
بالجرادة فتطبخ لى منها أربعة ألوان وتشوى جنبها . فدعته الى القاضى فجعل
القاضى يطالب له الخرج فقال : أصلحك الله ! لا عليك ان أشكلت المسألة فهى
طالق ثلاثين . قال محمد بن حرب : أتيت بمزید وامرأة ورجل أصيبا فى بيته
وأنا على شرطة المدينة ، فحبسته وخليت سبيلهما ، ثم دعوت به وقلت : ما خبرك؟ قال
أطلقتم الزوج حمام وحبستم الزاجل . وكان أبو حبيب مضحك المهدي يحفظ
نوادير مزيد ويحكىها له فيصلاه . فقال له مزيد : بأبى أنت أنا أزرع وأنت تحصد .
ولقى مزيدا رجل كان صديق لأبيه . فقال : يا بنى كان أبوك عظيم اللحية ، فما بالك
أجرودى . فقال مزيد : أنا خرجت لأمى . وكسا امرأته قميصا فشكت اليه غلظه
وخشونته . فقال : أترينه أحسن من الطلاق ؟

ناظر سعيد بن حميد الدهقان بعض آل أبى هب . فقال : من فضلنا نحن
الفرس إن لنا بيوت النيران . فقال الهبى : وجهنم قطيفة لجدى . رمى فضولى فى
النار . فقال : الحطب رطب .

وقال بعض البخلاء لعلامه : هات الطعام واغلق الباب . فقال : يا مولاي
هذا خطأ ، إنما يقال : أغلق الباب وهات الطعام . فقال له : أنت حر نوجه الله

لمعرفتك بالحزم . قال جهنم بن خلف : أتينا الخيامة فزلنا على مروان بن أبي حفصة فأطعمنا تمرًا . ثم قال لغلामه : خذ هذا الفلاس فاشتر به زيتنا ، فأتى الغلام به . فقل له : ختني . فقال : وكيف أخونك في فاس . قال : أخذته لنفسك واستوهبت الزيت . وقال الأخنف بن قيس : يا بني تميم أتبخلونني وربما أشرت عليكم برأى خير من مائة ألف درهم . فقال بعض من سمعه : تقويمك الرأى عليهم غاية البخل . ومن أظرف ما قيل في بخيل :

وأخ مسه نزولى بقرح مثلما مسنى من الجوع قرح
قال إذ زرت وهو في شدة السكر بالهم طافح ليس يصحو
لم تغربت قلت قال رسول الله والقول منه نصح ونجح
سافروا تغنموا فقل وقد قال لتمام الحديث جوعوا تصحوا

مر رجل بانسان وعلى عاتقه عصا في طرفها زنبيلان قد كادا يحطمانه ، في أحدهما بر وفي الآخر تراب . فقال : لم فعلت هذا ؟ قال : عدت البر بالتراب لأنه كان قد أمالى الى أحد جنبي ، فأخذ الرجل زنبيل التراب وقلبه وقسم البر نصفان في الزنبيلين . وقال : الآن فاحمل فحمله فخفف عليه . فقال : ما أعقلك من شيخ . وشرب احمد بن أبي طاهر مع أبي هفان حتى فنى مامعهما وكانا بجوار المعلى بن أيوب . فقال ابن أبي طاهر : لأبي هفان تماوت حتى أسأل المعلى في كفنك ، فسجاه ومضى الى المعلى فقال : أصلحك الله نزلنا في جوارك فوجب عليك حقنا ، وقد مات أبو هفان وليس له كفن . فقال لو كيله : امض إليه لتشاهده وادفع له كفنا فأتى فوجده مسجى فقرأ نفيه فضرط ، فقال له : ما هذا ؟ قال ابن أبي طاهر : أصلحك الله بقية روحه كرهت نكته فخرجت من دبره ، فأخبر المعلى فضحك وأمر لها بدنانير كثيرة .

وكان احمد بن طولون قد نابذ الموفق وباينه بالعداوة وخلعه وكان قد

ضبط مصر من الجواسيس وكان متيقظا فهما ، فأشرف من قصره يوما فاذا بجنازة قد مرت عليه . فقال : على بالنعش ومن فيه ، فأحضره ، فقال : قم يا متماوت ثم دعا بالسياف وقال اضربه ، فقام الميت من نعشه ، فقال له : أنت متجسس من ناحية احمد . قال نعم ! قال : لو لم أتقدم اليك لقتلتك وقتلت من معك ، وأمر من أخرجهم عن عمل مصر . فقيل له : من أين علمت ذلك ؟ فقال . رأيت القوم ليس عليهم كآبة من مات له ميت ، ورأيتهم يطوفون بالقصر ، ونظرت اليه في النعش فرأيت رجله قائمتين ، ورجل الميت تسترخى . فحكمت أنه حي فلما حضر رأيت يسه يسارق النفس فصحت القضية .

وحضر على بن بسام مع جحظة البرمكي دعوة فنفرك الجماعة الحاد وبقي جحظة . فقال : مالكم لا تدفعوا الى مخدة ؟ فقال له ابن بسام : عن قليل تصير اليك كلها . واشتد البرد سنة . فقال أبو العيناء : إن دام هذا كانت بيوتنا التناير . قال رجل لامرأته : الحمد لله الذي رزقنا ولدا طيبا . قالت : ما رزق أحد مثلهما رزقنا ، فدعياه فجاء فقال له الأب : يا بني من حفر البحر ؟ قال : موسى بن عمران . قال : من بلطاه ؟ قال : محمد بن الحجاج . فشقت المرأة جيبها ونشرت شعرها وأقبلت تبكي . فقال أبوه : مالك ؟ فقالت : ما يعيش ابني مع هذا الذكاء . رأى عبد الصمد بن المعدل مختثا ليلة أربعة عشر من شهر رمضان ، وهو مضطجع على ظهره يخاطب القمر ويقول : لا أمانى الله منك بحسرة ، أو تقع فى الحاق ، فلما كانت ليلة سبعة وعشرين رأى عبد الصمد الهلال . فقال :

يا قرا قد صار مثل الهلال من بعد ما صيرنى كالخلال
الحمد لله الذى لم أمت حتى أرايك بهذا السلال

وقال أبو عون الكاتب :

جاءنا الصوم فى الربيع فهلاً اختار ربعا من سائر الأرباع
وتولى شعبان إلبقايا كالعقاييل من دم المرتاع

فكان الربيع في الصوم عقد فوق نحر غطاءه فضل قناع
وقال البحتري :

لاحت تباشير الخريف وأعرضت قطع الغمام وشارفت أن تهطلا
فترو من شعبان إن وراءه شهرا يمانعنا الرحيق السلسلا
وقال :

وممادها الفتيان أنهم أتوا بأخر شعبان على أول الورد
وكتب كشاجم الى بعض إخوانه في يوم شك^(١) :

هو يوم شك ياعلى وأمره مذكأن يحذر
والجو حلتة ممسكة ومطرفه مغنبر
والماء قضى القميص وطيلسان الأرض أخضر
نبت يصعد نوره في الأرض قطر ندى تحدر
ولنا فضيلات تكو ن ليومنا قوتا مقدر
ومدامة صفراء أد رك عمرها كسرى وقيصر
فانهض بنا لنحت من كاساتنا ما كان أكبر
أولا فانك جاهل إن قلت إنك سوف تعذر

كانت لرجل من العرب امرأة رغاء ، فدخل عليها يوما وهي مغضبة . فقالت :
مالك لا تشبب بي كما يشبب الرجال بنسائهن . فقال : إني أفعل ! وأنشدها :
تمت عبيدة إلا في ملاحتها والحسن منها بحيث الشمس والقمر
ماخالف الظبي منها حين تبصرها إلا سوافها والجيد والنظر

(١) في ديوانه بين البيت الرابع والخامس هذا البيت :
وأخو الحجى لو كان هـ هذا اليوم من رمضان أفرط
وقوله : فانهض الخ . في ديوانه : فانشط لنا نحتت من الخ .

قل للذي عابها من حاسد حنق أقصر فرأس الذي قد عيب والحجر
فضحكت ورضيت عنه . ومما يشكل هل هو مدح أو هجاء ؟ إن أبا الينبغى دفع
إلى خياط أعور اسمه زيد طيلسانا يقوره له ، فلما جاءه ليأخذه دفعه إليه . وقال له :
قد خطت لك شيئاً لا تدري أهو طيلسان أو دواج . فقال : وأنا أقول فيك شيئاً
لا تدري أهو مدح أو هجاء ؟ وأنشده :

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

يريد بسواء — يكونان صحيحتين أو ذاهبتين . ومن هنا اهتدى أبو الطيب المتنبي
إلى قوله :

فيا ابن كرويس يا نصف أعمى وإن تفخر فيانصف البصير
تعاديننا لأنا غير لُكني وتبغضنا لأنا غير عور

وكان أبو الينبغى ضعيف الشعر ، قلما يصح له الوزن ، إلا أنه كان ظريفاً طيباً .
ودخل عليه وقد حبس . فقيل له : ما كان خبرك ؟ قال : أبو الينبغى قال مالا
ينبغى ففعل به ما ينبغى . ومما يسأل عنه أصحاب المعاني هل هو مدح أو هجاء ؟
تكامل فيه البخل والجود فاعتلى بفضلهما والبخل بالمرء يزرى
وهذا يمدحه - يريد أنه يجود بماله ويبخل بعرضه . وقد قال حماد مجرد : يمدح
محمد بن أبي العباس :

حليم جهول فأما التي يقال له عندها يجهل
فصند الوغى واشتجار القنا إذا الحرب أشعلها مُشعل
جواد بخيل فأما الذي على كل حال به يبخل
فدين وعرض ودين الكـريم ذى الرأى والعرض لا يبذل
وليس بما ملك كفه من البحر في جوده يعدل
يراه الثراء في صفوف الثرى وطعته في الوغى الفيصل

إذا ذكر الناس أهل الندى بأسمائهم فاسمه الأول
محمد أنت الذي إن سمو ت ذى المم لك الخول
يذمك كبش الوغى فى الوغى ويحمدك الرمح والمنصل
وذكر أن هاشمياً قال لعمر بن أبى ربيعة : لولا بغضكم لنا يا بنى مخزوم ماقلت :
بعيدة مهوى القرط إماً لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم
فقدمت علينا بنى نوفل وبنى أمية ، فتوهمه ابن أبى ربيعة عاقلاً . فقال : لا بأس
بتقديم المفضول على الفاضل فى اللفظ . قال حسان بن ثابت :

ومازال فى السادات من آل هاشم مكارم صدقٍ لاتعد وتفخر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير
وأيضاً فالشعر على الميم ، فلم يمكن فى القافية إلا ماقلت لك ، قال : فأعجزتك
الحيلة ؟ قال : وكيف احتال . قال تقول :

بعيدة مهوى القرط إماً لهاشم أبوها وإما عبد شمس ونوفل ميم
فضحك . وقال : وهنا أنت لقد عجزت عن هذا .

ومن عجيب مايتعلق بهذا الباب : أنه وصل إلى حضرة سيف الدولة رجل
من أهل بغداد يعرف بالبحث ، وكان ينقر على العلماء والشعراء بما لم يدفعه الخصم
ولا ينكره الوهم . فتلقيه سيف الدولة باليمين ، وأعجب به إعجاباً شديداً . فقال
يوماً : أخطأ امرء القيس فى قوله :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل نخيلى كرى كرة بعد إجحاف
وهذا معدول عن وجهه لاشك فيه . فقيل : وكيف ذلك ؟ قال : إنما سبيله
أن يقول :

كأنى لم أركب جواداً ولم أقل نخيلى كرى كرة بعد إجحاف

ولم أسبأ الزق الروى للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
فيقترن ذكر الخيل بما يشا كلها في البيت كله ، ويقترن ذكر الشرب واللهو بالنساء .
ويكون قوله : للذة في الشرب أطبع منه في اركوب ، فهت الحاضرون واهتز
سيف الدولة . وقال : هذا التهدي وحق أبى ! فقال بعض الحاضرين من العلماء
للمبحث : أنت أخطأت وطعنت على القرآن إن كنت تعمدت ؟ فقال سيف الدولة :
وكيف ذلك ؟ فقال : قال الله تبارك وتعالى إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ،
وأنت لا تظماً فيها ولا تضحى . وعلى قياسه يجب أن يكون : أن لك أن لا تجوع
فيها ولا تظماً ، ولا تعرى فيها ولا تضحى ، وإنما عطفه امرء القيس بالواو التي
لا توجب تعقيباً ، ولا ترتب ترتيباً ، فنجعل وانقطع

وقال خالد : قدمت على الوليد بن يزيد في مجلس ناهيك من مجلس ، فألفيته على
سريره وبين يديه معبد ، ومالك بن أبى السمح ، وابن عائشة ، وأبو كامل عذيل
الدمشقي . فجعلوا يغنون حتى بلغت النوبة الى فغنيت :

سرى همى وهم المرء يسرى وغاب النجم إلا قيد فتر
أراقب في الحجرة كل نجم تعرض أو على البحرات يجرى
بهيم ما ازال به قرينا كأن القلب أبطن حرّ جمر
على بكر أخى فارقت بكرا وأى العيش يحسن بعد بكر

فقال : أعد يا صام ، فأعدت . فقال : من يقوله ؟ قلت : عروة بن أذينة الليثي .
فقال : وأى العيش يصلح بعد بكر ؟ هذا الذى نحن فيه ، والله لقد تحجر واسعا
على رغم أنفه . وأنشدت سكينه بنت الحسين رضوان الله عليهما هذا الشعر . فقالت :
ومن بكر ؟ فوصف لها . فقالت : ذاك الأسود الذى كان يمر بنا ، والله لقد طاب
كل شيء بعده حتى الحبز والزيت .

قنت انا : وليت شعري اذا كان السماع داعية الأنس ، وعشيق النفس ، الذى ينهكها إذا اسرها هم ، ويبسطها إذا قبضها الغم ، وهو المستأذن على القلب ، المنقذ له من الكرب ، الداخلى عليه من غير تعب ، والوارد اليه بغير نصب ، وقد قال ارسطاطاليس : لما حددنا المنطق وجدنا فيه مالا يبلغه اللسان إلا بآلة ، فركبنا العود على الطبائع ، لاستخراج تلك الودائع ، فلما قابلت النفس استماع ماضى منه عشقته بالعنصر . وقالوا : كل شراب بلا سماع الدن أولى به . فما باله لا تستخرج له الأشعار الرقيقة ، ذات المعانى الدقيقة الأنيقة ، والالفاظ الناعمة الشكوة ، فى الايات الغزلة ، التى تطرب بالتكلم قبل الترنم . ويتجنب ما كان من صفات الجيوش والمقانب ، والفارات والكتائب ، والأحزان والمصائب ، فلأن يسمع من كان مثلاً جذلاً :

ظفرت بقبلة منه اختلاساً وكنت من الرقيب على حذار
الذ من الصبوح على غمام ومن يرد النسيم على خمار
أحب إليه من أن يسمع :

إن السنان وحد السيف لو نطقا لحدثا عنك يوم الروع بالعجب
أنفقت مالك تعطيه وتبذله يامتلف الفضة البيضاء والذهب
إلا أن يكون سامعه كجهل ، وريبعة بن مكدم ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب .
هذا على أن هذا الشعر ليس بتحسين الخط فى فصاحة اللفظ ، ولا قاصى المرمى
عن ادراك المعنى ، بقول مروان بن صرد أخى أبى بكر بن صرد فى يزيد بن يزيد
أما أبوك فاندى الثعالبين يداً وكان عمك معن سيد العرب
عيدانكم خير عيدان وأطيبها عيدان نبع وايس النبع كالغرب
وإنكم سادة أوليتم حساباً وأنتم قالة للشعر والخطب
ولكن لكل مكان ما يليق بموضعه ، ويحسن بموقعه ، فأشبهه أوقات اللهو
والشراب ، ذكر التغزل بالأحباب . وقد قال بعض البلغاء : لولا العشق والهوى ،

لم توجد لذة الصَّبَا ، ولم يكن الطرب والغناء ، ولتقص نعيم أهل الدنيا . وكان ابن الرومي يقول : لو ملكت الأمر وأدركت ملحن هذا الشعر لقتلته :

كَلَيْبَ لَعَمْرِي كَانَ أَكْثَرَ نَاصِرًا وَأَيْسَرَ جَرَمًا مِنْكَ ضَرْجَ بَالِدَمِ
رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فَاسْتَمَرَّتْ بِطَعْنَةٍ كَحَاشِيَةِ الْبَرْدِ الْيَمَانِيِّ الْمُسْتَهْمِ

وقال ثمامة بن أشرس : كنت عند المأمون يوما إذ جاءه الحاجب يستأذن لعمير المأموني ، ففكرت ذلك ورأى الكراهة في وجهي . فقال : يا ثمامة مالك ؟ قلت : يا أمير المؤمنين إنا إذا غننا عمير ذكر مواطن الإبل ، وكشبان الرمل . وإذا غننا فلانة انبسط أملى ، وقوى جذلي ، وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان . كم يا أمير المؤمنين بين أن تغنيك جارية غادة كأنها غصن بان ، بمقلة وسنان ، كأنما خلقت من ياقوتة ، أو خرطت من درة ، بشعر عكاشة القمي ^(١) :

مِنْ كَفٍّ جَارِيَةٍ كَأَنَّ نَمَانَهَا مِنْ فَضَّةٍ قَدْ طُرِزَتْ عَنَابًا
وَكَأَنَّ يَمْنَاهَا إِذَا ضَرَبَتْ بِهَا تَلْقَى عَلَى يَدِهَا الشَّمَاءَ حَسَابًا
وَبَيْنَ أَنْ يَغْنِيكَ رَجُلٌ مَلْتَفٍ اللَّحِيَّةِ ، غَلِيظِ الْأَصَابِعِ ، خَشَنَ الْكَفِّ ، بِشَعْرِ
وَرَقَاءَ بْنِ زَهِيرٍ :

رَأَيْتَ زَهِيرًا تَحْتَ كُلِّ خَالِدٍ فَأَقْبَلْتُ أَسْعَى كَالْعَجُولِ أَبَادَرِهِ ؟

وكم بين مَنْ يحضرك ماتشتهى النظر إليه ، وبين من لا يقف طرفك عليه ؟ فتبسم المأمون . وقال : إن الفرق لواضح ، وأن المنهج لفسيح ، يا غلام : لا تأذن له ! واحضر قينة . قال : فظللنا في أمتع يوم

وقد كتبت جزءا مما قيل في طيبات الأغاني ومطربات القيان ، وأنا أعيد منها هنا قطعة ترتاح إليها الأرواح . أشهد أبو العباس أحمد بن محمد الأنباري الناشئ في مثل قول عكاشة :

وَإِذَا بَصُرْتَ بِكَفِّهَا الْيَسْرَى حَكَتْ يَدُ كَاتِبٍ يَلْقَى عَلَيْكَ صَنُوفًا

(١) في ديوان المعاني نسبهما للناشئ

وكانما المضرب في أوتاره قلم يمجج في الكتاب حروفا
وتجسه أبهامها فكأنه في النقد ينفي بهجراً وزيوفا
أخذ هذا البيت من قول أبي شجرة السلمي وذكر ناقته :

يطير عنها حصا الصوار من بلد كما توقد عند الجهبذ الورق
وأصله من قول امرئ القيس :

كان صليل المرى حين تطيره صليل زيوف ينتقدن بعقره
وقال ابن المعجاج :

كان أيديهن بالقاع القرف أيدي صيارف يتوقدن الورق
وقال أبو نواس :

وأهيف مثل طاقة ياسمين له حظان من دنيا ودين
يمرك حين يشدوسا كنات وتنبعث الطبائع للسكون
وهذا مليح : يريد حركة الجوارح للغناء ، وسكون الجوارح للاستماع
ومن عجيب ما قيل في صفات القيان والعيدان قول ابن الرومي :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنينا حوائى
مطولات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقات أطفالهن ثدياً ناهدات كأحسن الرمان
منعمات كأنها حافلات وهى صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمة دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنا عن الترجمان

وأنشد أبو على الحاتمي لأبي بكر الصولي :

وغناء أرق من دمة الص ب وشكوى المتيم المهجور
يشغل الفهم عن تظن وفهم فهو يصفى بظاهر وضمير
صافح السمع بالذى يشتهيه فأذاق النفوس طعم السرور

ليس بالصائل الضعيف إذا ما راض نعماً ولا الشنيع الجهير

يجتنى السمع منه أحسن مما تجتنى العين من وجوه البدور

قال ابراهيم الموصلي : استأذنت الرشيد في أن يهب لي في كل أسبوع يوماً ،
أخلو فيه مع جوارى ، فأذن لي في يوم الأحد . وقال : هو يوم استنقله ؛ فلما
كان في بعض الآحاد أتيت الدار فدخلت وأمرت الحجاب أن لا يأذنوا لأحد
عليّ وأغلقت الأبواب ، فلما هو إلا أن جلست حتى دخل عليّ شيخ حسن
السمت والهيئة ، على رأسه قلنسوة لاطية ، وفي رجله خفان أحمران ، وفي يده
عكاز مقمعة بفضة ، وعليه غلالة سكب ، فلما رأيته امتلأت غيظاً . وقلت : ألم
أمر الحجاب أن لا يأذنوا لأحد ، فسلم . فافكرت وقلت : لعالم علموا من الشيخ
ظرفاً وهيئة فأحبوا أن يؤنسوني به في هذا اليوم ؟ فلما أمرته بالجلوس جلس . وقال :
يا ابراهيم ألا تغنني صوتاً ؟ فامتلات عليه غيظاً ولم أجد إلى ردّه سبيلاً لأنه في
منزلي ، وحملته منه على سوء أدب العامة . فأخذت العود وضربت وغنيت
ووضعت العود . فقال لي : لم قطعت هزارك ؟ فزادني غيظاً . وقلت : لا يسيدني
ولا يكذبني ولا يقول أحسن ؛ فأخذت العود فغنيت الثانية . فقال لي : أحسنت !
فكدت والله أشق ثيابي ، فغنيت تمام الهزار فقال : أحسنت ياسيدي ! ثم قال :
ناولني العود فوالله لقد استجابه فوضعه في حجره ، ثم جسّه من غير أن يكون
ضرب بأمله ، فوالله لقد خلت زوال نعمتي في جسّه ، ثم ضرب وغنى :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد
أن هتفت ورقاء في رونق الضحى على فنن غصّ النبات من الرند
بكيت كما يبكي الوليد ولم أكن جليداً وأبديت الذي لم أكن أبدي
وقد زعموا أن الحب إذا دنا يملّ وأن النأي يسلى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد

فوالله لقد خلت كل شيء في الحضرة ، يتغنى معه حتى الأبواب وانستور ، ثم ضرب وغنى :

ألا يا حمامات اللوى عدنى مودة فأتى إلى أصواتكن حزين
فأذن فلما عدن كدن يتننى وكدت بأسرارى لهنّ أئين
دعوت بترداد المدير كأنما شربن حميا أو بهنّ جنون
فلم تر عيني مثلهنّ حماما بكين ولم تدمع لهنّ عيون
ثم ضرب وغنى :

فقا ودعا نجدا ومن حل بالحمى وقلّ لنجدٍ عندنا أن يودعا
وأذكر أيام الحمى ثم أثنى على كبدى من خشية أن تصدعا
فليست عشيات الحمى برواجع إليك ولكن خل عينك تدمعا
واعذر فيها النفس إن حيل دُونها وتأبى إليها النفس إلا تطلعا

فوالله لقد تغنى كل شيء معه بالحضرة ، حتى التمارق والوسائد وقيصى الذى على بدنى . فقال : يا أبا اسحاق ! هذا الغناء الماخورى ، تعلمه وعلمه جواريك ، ثم وضع العود من حجره وقام إلى الدار فلم أره ، فدفعت أبواب الحرم فأذا هى مغلقة . فقلت : ويحك هل سمعتن ماسمعت ، أو رأيتمن مارأيت ؟ قلن : نعم ! سمعنا وأعدن الأصوات على وقد لقمها ، فسألت الحجاب عن الرجل . فقالوا لى : لم يدخل عليك أحد حتى يخرج ، فأمرت بدابتى فأسرجت فركبت من فورى إلى دار الخليفة واستأذنت ، فلما رآنى . قال : ألم تنصرف آنفاً على نية المقام فى منزلك والخلوة بأهلك . قلت : ياسيدى جئت بغريبة وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها ، فضحك حتى رفع الوسائد برجليه . وقال لى : كان نديمك اليوم أبو مرة ، وددت أنه لو متعنا بنفسه كما متعك . واشتهر ابراهيم بهذا الطريق واشتهته الناس فلم تبق جارية لقنته من ابراهيم إلا زيد فى ثمنها . قال اللاحق :

لا جزا الله الموصلى أبا اس محاق عنا خيراً ولا إحسانا

جاءنا برسلا بوحي من الشيطان أغلى به علينا القيانا
من غناء كأنه سكرات الحباب يصنى القلوب والآذان

ومن مליح هذا المعنى قول أبي فراس ، وكان سيف الدولة لا يشرب النبيذ ولا يسمع القيان ويحظرهما ، فوافقت ظلوم الشهرامية وكانت إحدى المحسنات ، وكان بحضرته ابن المنجم أحد المحسنين ، فتأقت نفسى إلى سماع ظلوم فسألت الأمير أن يحضرها لأسمعهم مجتمعين ، فوعدنى باحضارهما مجلسه من يومه ، فانصرفت وأنا غير واثق بذلك لعلمى بضعف نيته فى مثله ، ووجهت إلى ظلوم أتقدم إليها بالاستعداد ، وحصلت عندى ابن المنجم وأقمت أنتظر رسوله إلى أن غربت الشمس . فكتبت إليه :

مهلك الجوزاء بل أرفع وصدرك الدهناء بل أوسع
وقلبك الرحب الذى لم يزل للجد والهزل به موضع
رفقه بقرع العود سمعا غدا قرع العوالى جل ما يسمع

فبلغت هذه الأبيات أبا محمد الحسن بن محمد بن هارون المهلبى ، فأمر بها فلحنت وغنى بها ، فلم يشرب بقية يومه ذلك إلا عليها
وأبو فراس : هو الحارث بن سعيد بن حمدان ، وفى أبي فراس يقول القاضى ابن الهيثم :

أيقنت أنى ما بقيت رهين شكر الحارث
فإن المنية أشرفت ورثت ذاك لوارثى
رقى له من بعد سى دنا وليس لثالث

قال أبو فراس : فحاولت جوابه على هذه القافية فما أمكنى شئ ، أرتضيه ، فكتبت إليه :

لئن جمعتنا غدوة أرض بالس فأن لها عندى يدا لا أضيعها

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ أَرْضٌ تَحْمِلُهَا إِلَى وَدَارِ تَحْتَوِيكَ رُبُوعُهَا
أَفَى كُلِّ يَوْمٍ رَحْلَةً بَعْدَ رَحْلَةٍ تَجْرَعُ نَفْسِي حَسْرَةً وَتَرْوِعُهَا
فَلَى أَبَدًا قَلْبٌ كَثِيرُ نَزَاعِهِ وَلَى أَبَدًا نَفْسٌ قَلِيلُ نَزْوِعِهَا
لَحَى اللَّهُ قَلْبًا لَا يَهِيْمُ صَبَابَةَ إِلَيْكَ وَعَيْنًا لَا تَفِيضُ دُمُوعِهَا
وَكَانَ أَبُو فِرَاسٍ : حَسَنَ الشَّعْرِ ، جَيِّدَ النَّمَطِ ، لَقْوَتَهُ مِنَ الطَّلَاوَةِ وَالْحَلَاوَةِ
مَا يَشْهَدُ بِهِ مَا أَنْشَدَ لَهُ . وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الصَّاحِبُ . يَقُولُ : بَدَأَ الشَّعْرَ بِمَلِكٍ ، وَخَتَمَ
بِمَلِكٍ ، بَدَأَ بِأَمْرِ الْقَيْسِ ، وَخَتَمَ بِأَبِي فِرَاسٍ . وَكَتَبَ أَبُو فِرَاسٍ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ
وَقَدْ سَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ : كِتَابِي أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْأَمِيرِ مِنْ مَنْزِلِي ، وَقَدْ وَرَدَتْهُ وَرُودَ السَّالِمِ
الْغَانِمِ مَوْقِرَ الظُّهْرِ ^(١) وَفَرَأَ وَشَكَرَأَ ؛ فَاسْتَحْسَنَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِلَاغَتَهُ فَقَالَ :

هَلْ لِلْفَصَاحَةِ وَالسَّامَةِ حَقٌّ وَالْعَلَى غَنَى مُحَمَّدٍ
فِي كُلِّ يَوْمٍ اسْتَقْدِيدٌ مِنَ الْعِلَاءِ وَأُسْتَفِيدُ
وَيَزِيدُ فِي إِذَا رَأَيْتُكَ فِي الْإِنْدَى خُلُقٌ جَدِيدُ
وَأَهْدَى النَّاسَ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ فِي بَعْضِ الْأَعْيَادِ فَكَثُرُوا ، فَاسْتَشَارَهُمُ
أَبُو فِرَاسٍ فِيمَا يَهْدِيهِ إِلَيْهِ ، فَكُلُّ أَشَارَ بِشَيْءٍ ، فَخَالَفَهُمْ وَكَتَبَ إِلَيْهِ :
نَفْسِي فِدَاؤُكَ قَدْ بَعَثْتُ بِمَهْجَتِي بِيَدِ الرَّسُولِ
أَهْدَيْتُ نَفْسِي إِنَّمَا يَهْدِي الْجَلِيلُ إِلَى الْجَلِيلِ
وَجَعَلْتُ مَا مَلَكَتْ يَدِي بَشَرِي الْمُبَشِّرَ بِالْقَبُولِ
وَوَقَعَ بَيْنَ أَبِي فِرَاسٍ وَبَيْنَ بَنِي عَمِّهِ عَدَاءٌ وَهُوَ صَغِيرٌ ، فَفَرَحَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ مَعَهُ
بِالتَّعَصُّبِ عَلَيْهِ ^(٢) فَقَالَ :

(١) فِي دِيْوَانِهِ الْمَطْبُوعِ : مَوْقِرَ الظُّهْرِ وَالضَّمِيرِ وَفَاءً وَشَكَرَأً . وَفِيهِ بَعْدُ
الْبَيْتُ الْأَوَّلُ :

إِذْ كُنْتُ سَيِّدِي الَّذِي رَيْتُنِي وَأَبَى سَمِيدُ
(٢) فِي دِيْوَانِهِ : فَفَرَحَ مَعَهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِالتَّعَصُّبِ . وَذَكَرَ جُمْلَةَ آيَاتِ هَذِهِ
الْثَلَاثَةِ مِنْهَا . وَالشَّطْرُ الْآخِرُ هَكَذَا : يَغْضَى عَلَى الْمِ لَضَرْبِ الْوَالِدِ .

قد كنت عدتّى التي أسطوبها
فرميت منك بضد ما أملت
فصبرت كالولد التقى لبره
وقال ينفخر :

لنا بيت على طنب الثريا
تظله الفوارس بالعوالى
وقال يصف السبي :

وخريدة كرمت على آباءها
خطبت بحد السيف حتى زوجت
راحت وصاحبها بعرس حاضر
وقال :

ما كنت مذ كنت لإطوع خلاني
يحنى الصديق فاستحلى جنائته
ويتبع الذنب ذنبا حين يعرفى
يحنى على فأحنو صالحا كرما
وقال :

فوالله ما أضمرت في الحب سلوة
وإنك في عيني لأبهى من الغنى
فياحكمى المأمول جرت مع الهوى
وقال :

سكرت من لحظه لا من مداوته
وما السلاف دهنتى بل سوافه
ألوى بصبرى أصداع لوين له
ومال بالنوم عن عيني تمايله
ولا الشمول ازدهنتى بل شمائله
وغل صدرى بما تحوى غلائله

وقال :

وظي غريـر في فؤادي كناسه إذا كنت عين الفلاة وحورها^(١)
فمن خلقه لبائها ونحورها ومن خلقه عصيانها ونفورها

وقال :

الزمني ذنبا ولا ذنب لي ولج في الهجران والعتب
أحاول الصبر على هجره والصبر محذور على الصب
من لي بكمآن هوى شادن عني له عين على قلبي
عرّضت صبري وعلّوت له^(٢) فاستشهدا في طاعة الحب

وقال :

لبسنا رداء الليل والليل راضع إلى أن تردى رأسه بمشيب
وبتنا كغصني بانه عطفتهم مع الصبح ريحا شمأل وجنوب
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه مبادئ نصول في عذار خضيب
فياليل قد فارقت غير مذمّم وياصبح قد أقبلت غير حبيب

وقال :

قل لأحبائنا الجفاة رويداً درجونا على احتمال الملل
إن ذاك الصدود من غير جرم لم يدع في موضعا للوصال
أحسنوا في هواكم أو اسيثوا لاعدمناكم على كل حال

وقال :

ومغض للمهابة عن جوابي وإن لسانه العضب الصقيل
أطلت عتابه عتتاً وظلما فدمع ثم قال كما تقول

(١) في ديوانه :

وظي غريـر في كناسة امه إذا اكتسبت عون الفلاة وصورها

(٢) في ديوانه على كثرة ما فيه من التصحيف : وساوى له ، ولعل ذلك احسن

وقال :

بتنا نعلل من ساق أغن لنا بخمرتین من الصهباء والحد
كأنه حين أزكى نار وجنته سكرًا وأسبل فضل الفاحم الجعد
يعدّ ماء عناقيد بطرته بماء ما حملت خداه من ورد

وقال :

أياسافراً ورداء الخجل مقيم بوجنته لم يزل
بعيشك رد عليك اللثام أخاف عليك جراح المقل
فما حقّ حسنك أن يجتلى ولا حق وجهك أن يبتذل
أمنت عليك صروف الزمان كما قد أمنت على الملل

وقال :

لا غرو إن فتنك بالاد ألحاظ فآثرة الجفون (١)
فصارع العشاق ما بين الفتون إلى الفتون
أصبر فمن سنن الهوى صبر الضنين على الضنين

وقال :

سقى ثرى حلب مادمت ساكنها يابدر غيثين منهل ومنبجس
كأنما البدر والولدان موحشة وربعها دونهنّ العامر الأنس
أسير عنها لأمر ما فزعجنى حتى يعود إليها الخدر الكنس
مثل الحصاة التى يرمى بها أبدا إلى السماء فترقى ثم تنعكس

وقال أبو فراس : فى رسول ملك الروم إذ جاء يطلب الهدنة فأمر سيف الدولة
بالركوب بالسلاح ، فركب من داره ألف غلام مملوك بألف جوشن مذهب على ألف

(١) فى ديوانه :

لا غرو أن فتنك بالخطات فآثرة الجفون
فصارع العشاق ما بين الفتور الى الفتون

فرس عتيق بألف تجفاف ، وركب الناس والقواد على تبعيتهم وسلاحهم وراياتهم ،
حتى طبق الجيش جبل جوشن وما حوله . فقلت :

علونا جوشنا بأشد منه وأثبت عند مشتجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى ظننت البر بجرأ من سلاح
فالسنة من العذبات حمر تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جسمه ليل بهيم وغرته عمود من صباح
صفوح عند قدرته كريم قليل الصفح ما بين الصفاح
كأن ثباته للقلب قلب وهيبته جناح للجناح

وعلى ذكر المهلبى أذكر طرفاً من ظريف أخباره ، وشريف آثاره ،
وإنما أسلسل أخبار أمثاله من أشرف العصر ، وأفراد الدهر ، تعمداً للذة الجدة ،
ورونق الحداثة ، إذ كان مالم يقرع الأذان ، أدعى إلى الاستحسان ، مما تكرر حتى
تكدر . والمهلبى : هو أبو محمد الحسن بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد بن
حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ، وكان المطيع لله الفضل بن جعفر المقتدر ،
لما ولي الخلافة بعد المستكنى قام بجميع أموره معز الدولة أحمد بن بويه الديلمى
وصحبه أجمل صحبة من أول ولايته إلى سنة موته وهى سنة ست وخمسين وثلاثمائة ،
وعقد الديلمى امر وزارته للمهلبى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة . وكان المهلبى من
سروات الناس وأدبائهم وأجوادهم وأعزائهم ، وفيه يقول أبو اسحاق الصابى :

نعم الله كالوحوش وما تأ لف إلاً أخيراً نساكا
نقرتها أيام قوم وصير ت لها البر والتقى أشراكا

وفيه يقول :

قل للوزير أبى محمد الذى قد أعجزت كل الورى أوصافه
لك فى المجالس منطق يشفى الجوى ويسوغ فى أذن الأديب سلافه

وكانَ لفظك لِؤاؤٍ -متنحلٍ وكأَنما آذاننا أَصدافه
وفيه يقول أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن نباتة السعدي :

أنا عبد من لو قال للشمس اغربي غربت وقد طلعت على الأشهاد
المستقل من الوزارة رتبة إشراقها فوق الخلافة بادي
عقّ الكماة لخوفه هيجاءهم وهم لطاعته من الأولاد
وتقنعوا بالنذر من أيامهم حتى ظنناهم من الزهاد
ومن التراب عجاجهم وعجاجه مما يحطّم من قنا وجياد
القائد الخيل العتاق كأنها أسد يخالبها نسور صعاد
كذب الحدث بالشجاعة والندى عن خندف وربيعة وإياد
لو أبصرت عينك آل مهلب والخيل راوية النحور صوادي
يخرجن من رهج العجاج كأنما أسيافهم خرجت من الأغناد
أو مارأيت جنابهم متدققا متوسعا لتضائق الرواد
ووجوههم للبذل من إشراقها قد قنعت شمس الضحى بسواد
لأريت أو كادت جفونك أن ترى لجج البحار وآنف الأطواد
وعلمت أنهم على رغم العدى ذهبوا بكل ندّى وكل جلاذ
يا من نصره إذا قلنا له ملك الملوك وماجد الأجداد
وذباب سيفك انه قسم الوغى والموت في ثوب من الفرصاد
لأطرزن بك الزمان مداخا تختال بين الشدو والانشاد
تدع المسامع والقلوب لحسنها عند الرواة تشدّ بالاصفاد

وقال فيه :

ألكنى إلى آل المهلب أنهم لأرفع من زهر النجوم وأثقب
إذا سلبوا الأموال من شن غارة أغار عليها المجتدون ليسابوا
فلا زالت الأملاك تطلب رفدهم فتدنى وتعطى فوق ما تتطاب

ولا برحت حمر المذايا وسودها
فما استمطروا للوجود إلا تدققوا
إليك أمين الله في الأرض شمرت
يرى حظه مستأخراً وهو أول
وأنت شباب للذي شاب مقبل
تقود آيات الأمور كأنها
وتطعن في صدر الكتائب معلما
نداؤك أُملى والحياد منابر
اذم زيادا في ركافة رأيه
وهل يحسن التهذيب منك خلائقا
تكلم والنعمان بدر سمائه
ولو أبصرت عيناه شخصك مرة
إذا ذكرت أيامك الفرأظلمت
لقد صرّحوا بالمال لي وهو مبهم
ولي همة لا تطلب المال للغنى
فإن كان قولي دون قدرك قدره
إذا كانت الأشياء دونك قدرها

إلى بأسهم يوم الوغى تتحرب
ولا استعرضوا للطعن إلا تلبّسوا
عزيمة صبح بالدجى تتجلبب
وآماله مغلوبة وهو أغلب
إليه وجداً للذي خاب ملحب^(١)
إليك أسارى في الأزمة تجنب
كأنك في صدر الدواوين تكتب
وأبطالها بالمشرفة تخطب
وفي قوله أي الرجال المهذب
أرق من الماء الزلال وأعذب
وكل ملك عند نعمان كوكب
لأبصر منه شمسه وهي غيب
تيم وقيس والرباب وتغلب
وقد عرضوا بالقول لي وهو موجب
ولكنها منك المودة تطلب
فما أنا فيه في امتداحك مذب
فغير ملوم أن يقتصر مسهب

(١) في الأصل : ووجه والتصحيح من المختارات للبارودي . وقوله : ملحب . في ديوانه منجب . والآيات التالية في ديوانه هكذا

تقود آيات الخطوب بصارم
وتطعن في صدر الكتائب معلما
ثم بعدهما آيات تركها الحصرى ثم قال :
فداؤك أهلي والهاج منابر

من الرأى يخشى الغيب منه ويرهب
كأنك في صدر المجالس تكتب
وابطالها بالمشرفة تخطب

زياد : هو النابغة الذبياني ، وإنما عنى قوله في اعتذاره للنعمان بن المنذر :
ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب
ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب ، إذا طلعت لم يبد منها كوكب
وإنما أخذ النابغة هذا من قول شاعر من كندة قديم :

تكاد تميد الأرض بالناس أن رأوا لعمر بن هند غصبة وهو غائب
هو الشمس وأفت يوم دجن فأفضلت على كل نور والملوك كواكب

والمدح فى أبى محمد المهلبى كثير ، وإنما يؤخذ من كل شىء ما اختير . وكان
قبل تعلقه بمجمل السلطان سائحاً فى الأرض على طريق الفقر والتصوف . قال أبو على
الصوفى : كنت معه فى بعض أوقاته ، أماشيته فى بعض طرقاته ، فضجر لضيق
الحال . فقال :

— ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه

— ألا رحم المهين روح حر تصدق بالوفاة على أخيه

قال : فاشتريت له رطل لحم وطبخته له ، ثم تصرف بنا الدهر وبلغ المهلبى مبلغه
قال أبو على : فاجتزت البصرة فاجتزت بمساران ^(١) فاذا أنا بنا شطيات وحراقات
وذباب وطيارات فى عدة وعدة . فقلت : لمن هذا ؟ فقبل للوزير أبى محمد المهلبى ،
فنفعتوا لى صاحبه ، فتوصلت إليه حتى رأيته ، فكتبت رقعة واحتلت حتى دخلت ،
فسلمت وجلست . حتى اذا خلا المجلس رفعت إليه الرقعة ، وفيها :

ألا قل للوزير بلا احتشام مقال مذكر ما قد نسيه

(١) كذا فى الأصل : مساران . ولم أقف عليها فى محال البصرة وخططها وإنما
وجدت المسارية قطيعة مسمار مولى زياد بن أبيه . ومن اصطلاح أهل البصرة :
أن يزيدوا فى اسم الرجل الذى تنسب إليه القرية ألفاً ونوناً نحو قولهم : طلحان ،
وخيرتان ومهلبان ، وجبيران ، وروادان . كل ذلك أسماء خطط وقرى من البصرة

أذكرك أن تقول لضيق عيش ألا موت يباع فأشتريه
فنظر إلى . وقال : نعم ! ونهض وأهضني معه في مجلس أنسه ، وجعل يذكر لي
كيف توافت حاله . وقدم الطعام فأطعمنا ، وأقبل ثلاثة من الفلمان على رأس أحدهم
ثلاث بدر ، ومع آخر نخوت وثياب رفيعة ، ومع آخر طيب ونجور ، وأقبلت بغلة
رائعة بسرج ثقيل فقال لي : يا أبا علي تفضل بقبول هذه ، ولا تتأخر عن
حاجة تعرض لك ، فشكرته وانصرفت ، فلما عمت بالخروج من الباب ، استردني
وأشدني بديها :

رقّ الزمان لفاقي ورثي لطول تحرق
فأنا لى ما أرتجى وأجار مما أتقى
فلا غفرن له اتقدي من الذنوب السبق
إلا جنايته لما فعل المشيب بتمفرق

ولما مات المهلبى ، وجد عليه أحمد بن بويه وجداً شديداً ولم يستورز أحداً بعده ،
وبلغ منه أبو الفضل العباس بن الحسين بن عبد بن فاخر بعد المهلبى مبلغاً عالياً
المصاهرة التى كانت بينه وبين المهلبى ، ولأنه كان يخلفه فى الدواوين ، فكان
يخطب درجة المهلبى فى الوزارة فلم يبلغها

وكان العباس ممن تعظمه الملوك وتعرف قدره فى الفرس وسبقه ، وكان بنو بويه
يخاطبونه بالشيخ ، ولما حصلوا بأرض العراق استدعوه من فارس اشتياقاً إليه ،
وحاجة إلى رأيه ، لما كانوا يعرفونه من ثقته ، وكان يتخذ من الزى وتفخيم شأن
الملك ، ما كان يحسن به فى عين احمد بن بويه إذ كان يحب من أصحابه ذلك .

وكان مما عمله العباس : المفيض الذى بظاهر السندية ، الذى ينزع من نهر عيسى
ابن مومى الهاشمى النازع من الزاب الأعظم بناحية البشق المعروف ببشق الروبانية
وهو الذى تعمده ملوك العراق ، وتحوط به الأموال التى يرد إلى كل ناحية حفظها
من الشرب الذى تكون به عماراتها واستقامه بوعها ووفور أموالها وأتمام خراجها .

وهذا المفيض عملته الأَكْاسِرَة لينتفع به عند زيادة المياه وكثرتها ، فإنها حين تحشى البثق المتقدم ذكره وغيره من البثوق أن تزيد المياه عليها فتخرقها فينصرف الماء عن سائر الضياع . فإذا خشي ذلك فتح هذا المفيض فانصرف ما يزيد من الماء عن قدر ما ينتفع به إليه ، حتى يصب في نهر يعرف بصرصر حتى يفرغ في دجلة ، فعمل هذا المفيض من ماله بعد فساد ما كان قبله . وسائر هذه البثوق والفائض تسترم بعد خمسين عاماً من بعد عمارتها إلى السبعين أكثره على ما يذكرون

ثم عمر الدار المعروفة بخاقان ، وهى فى ملك ولده وما يليها من الدور التى كانت تجاورها بشاطىء دجلة ، وهذه الدار معروفة عند الملوك معظمة فى نفوسهم ، وهى دار لها حدّان فالجبلى ^(١) منها ينتهى إلى دجلة ، والشرقى منها ينتهى إلى نهر العسرة النازع من نهر عيسى النازع من الفرة الأعظم ، حتى يلقى بهذان النهران . وقد كان فى قديم الزمان بلغ أمرها بعض ملوك الروم ، وُصف له أن بالعراق داراً يجتمع فيها دجلة والفرات ، فأعظم ذلك وأكبره ، وأكذب من أخبره به . ثم كشف عن ذلك لعظمه عنده فوجده حقاً ، فعمر العباس هذه الدار على أحسن مما كانت عليه بل أزيد من ذلك ، وانتهى خبرها إلى أحمد بن بويه فأحب النظر إليها ، فاصطنع له طعاماً ورتب الناس على أحسن ما يكون من ترتيب مثله ، وفرش مجالسها وقبابها ومحالها وخبائنها ورحابها وخورتقاتها وجيرياتها ، بألوان الفرش وأصناف الأمتعة ، من الديباج السندسى المنسوج لها بقدر أطوالها وأعراضها المثقل بالذهب ، والأرمنى الرفيع على أصنافه ، والخز المقطوع المرقوم المثقل بالذهب على أجنابه وألوانه ، والمحفور الدجلى القديم والمحفور الأرمنى ، وغير ذلك من أصناف الفرش مما أحدثه العراقيون

وكان ذلك على حين طيب الزمان ، واجتماع خيرات كل أوان ، فى زمن

(١) قوله : فالجبلى كذا فى الاصل هنا وفيما يأتى من صفحة ٢٧٦ والذى يظهر أنه يريد الغربى

الورد ووقت النيروز الفارسي ، وهو حين تكامل النبت وزيادة المياه ، وطلوع الثمار ، وزهر الأشجار . واصطنع في البستان الأعظم على البركة التي يجتمع بفنائها الجبلى والشرقى دجلة والفرات قصرأ مبنياً من السكر على أربع طبقات ، بأبواب تدور به ، وأبواب تغلق عليها من فوقها طبقة فطبقة ، تطلع من تلك الأبواب صور من السكر على هيئة الجوارى والغلمان ، بصنوف الملاحى فى أحسن الملابس والحلل . وجعل على شرافاتها وطبقاتها وخباياها صور أنواع الطير والحيوان والوحش ، وجعل من ورائها رجالا تنفخ بالبوقات والمزامير كل صنف يخرج منه صوت يليق بصورته صوت مثله ، وكل ذلك من السكر المموه بصنوف الأصباغ والنقوش والذهب

ثم نصب القيان وأصحاب الملاهى على طبقاتهم متفرقين^(١) فى تلك المجالس . وحضر احمد بن بويه وولده بختيار و ابراهيم ومحمد ، كل منهم فى قواده وجنده وكتابه ووجوه رجاله وحاشيته ، وأمر بعرض دجلة ، فمد من جانبها الغربى الذى هو الركن المجتمع فيه دجلة والفرات إلى الجانب الشرقى الذى بأزائه جبل مفتول ، ونثر على الماء من الورد ماغطى دجلة من الجانب إلى الجانب الآخر ، إلا ماخرقته أنواع المراكب من الطيارات والزلاّلات والحديديات والذيارب والسماريات التى ركبها أحمد وأصحابه الى من سواهم من العامة ، وانتظمت هذه المراكب جانبي دجلة من حد هذه الدار وما بأزائه من الجسر الذى بباب الطاق ، وصار المسلوك من دجلة فى وسطها ، وصار ذلك الورد مستقبل المنحدر إلى الدار يمنعه الجبل المعترض من الجرى مع الماء من تحته

ثم تلقى احمد وبنيه بما أعد لهم من الكرامة والحباء ، فكان من صنوف ذلك دنانير ودرهم ضربها فى كل دينار منها ودرهم خمسة دنانير وخمسة دراهم عليها صنوف الصور فى أوانى الذهب والفضة ، الفضة فى الذهب ، والذهب فى

الفضة ، وأنواع البز من صنوف الحرير والنسيج والخز والشرب^(١) وأصناف المتاع ، وأعد من الخيل والمراكب والعلمان بصنوف الملابس بقدر ما يقتضيه ما قدمنا ذكره

ثم أخذ في اطعام الجميع ؛ حتى عمّ سائرهم صغيرهم وكبيرهم ، إلى أن وصل ذلك بأصحاب السفن فأتى على سائرهم طعاماً وشراباً

ولمّا حضر الانصراف ؛ قدم بين يدي أحمد من تلك الصواني الذهب والفضة من كل صنف صنيّتين^(٢) ، في كل واحدة ألف دينار وألف درهم ، ومن الخلع والدواب والمراكب ما يشاء كل ذلك وجعل لبختيار بن أحمد ما يشاء كل ذلك ، ولكل واحد من اخوته نصف ذلك ؛ وعمّ سائر القواد والرؤساء على أقدارهم من كسوة وغيرها كل إنسان بقدره . ثم أمر بنهب القصر السكر ، فنهب الحشم والعلمان والعامة حتى أتوا على آخره

وقد حكى منصور بن عيسى بن سودة الكاتب ، وكان يلي دواة العباس وكان خصيص به قديم الصحبة له خبيراً بأمره . قال : قدّم سيدنا أبو الفضل مقدار ما لزمه على إصلاح المغيض ، وبناء الدار . وما أنفقته في الدعوة من ماله سوى ما عضده به الكتاب والعمال والصناع ، فكان مبلغه ستمائة ألف دينار ، فسئل عن مقدار ما كان أعانه من قدمنا ذكره . فقال : هو والله أكثر من أن أحصيه ! ولم يكن للعباس علم ولا ضرب في الكتابة بسهم . ولكن كانت له دراية بالأعمال ، وتصرف في أمور السلطان ، وكانت له همة عالية . ويقال : أن جده فاخراً كان إسكافاً .

وكان العباس تزوج زينة بنت المهلبى ، وكانت قد بلغت بها الحال إلى أن

(١) والشرب كذا في الاصل ولم اقف عليه في صنوف الاثمنة وأهل مصر يطلقون على الجورب شراب ويقولون : اشربه . (٢) صنيّتين كذا بتقديم النون وهى لغة المصريين فان العامة منهم لا يحققون الياء أولاً

اتخذت الجوارى الأتراك حجاباً في زى الرجال على ماجرى به رسم السلطان ، وكان لها كتاب من النساء : مثل سلمى النوبختية ، وعائشة بنت نصر القسورى حاجب المقتدر ، وغيرها من القهارمة . ومن يتصرف في الأعمال تصرف الرجال ، وكان لها كرم وجود في الأموال . فلما قبض على زوجها أبي الفضل بعد وزارته الثانية لبختيار بن احمد ، وقد صارت الوزارة لمحمد بن بقية . اختفت زينة ابنة الحسن وسائر أسباها ، فجعلت عليها العيون في كل مكان ، واستقصى على أبي الفضل زوجها . وسلم إلى محمد بن عمر بن يحيى بعد طاهر العلوى ، فخرج به من بغداد إلى الكوفة ، فأقام عنده مدة يسيرة ثم مات ودفن هناك في النجف بجوار قبر على بن أبي طالب كرم الله وجهه

ولم يزل بختيار ، يطلب زينة وأسباها ، فعثر على أكثر أسباها فلم يجد لها موضعاً . وكان سبب اختفائها منه أنه راسلها في حين القبض على أبي الفضل ، وأعلمها أنه يسومه الترك لها ليتزوج بها ، فردت أقبح رد وأنكرت ذلك ، فكان ذلك سبب اختفائها ، وكان لها من الذخائر والودائع في أيدي جماعة مما كان يغني كثيراً من الناس ، فلما بلغ بها الأمر طمع كل واحد فيما في يده والغدر به ولما كان بعد اليأس من وجودها ، ظهر بظاهر الخلد بقرب محلة تعرف بالدسترقين فرد محل مغطى ، فيه امرأة في أخلاق وعند رأسها رقعة مكتوب فيها زينة بنت الحسن بن محمد المهلبى الوزير ، فاشتهر ذلك عند الخاصة والعامة ، ووافى القاضى أبو تمام الحسن بن محمد الهاشمى المعروف بالزبني ، فاحتملها لداره وتولى من أمرها ما يجب مثلها ودفنها في مقابر قریش ، وقد كانت أختها تحت ولديه أبي الحسن وأبي القاسم .

وكان أبو الحارث حسين : يظهر لجارية من المحبة أمراً عظيماً فدعته وأخرت الطعام إلى أن ضاق . فقال : يا سيدتى مالى لأسمع للغداء ذكرراً . فقالت : يا سبحان

الله ! أما يكفيك النظر إلى ، وما ترغبه في من أن تقول هذا ؟ فقال : يا سيدتي لو
جلس جميل و بئينة من بكرة إلى هذا الوقت لا يأكلان طعاماً لبصق كل واحد
منهما في وجه صاحبه . أراد قوم من البصرة الجمع . فقال : أحدهم على الطعام .
وقال : أحدهم على الشراب . وقالوا : ما عليك أنت يا أبا اسحاق فقال : لعنة الله
على إذ لم آكل وأشرب معكم ، فضحكوا منه ومضوا به .

قال أبو عبيدة : أجريت الخيل في الحلبة فجاء فرس من الخيل سابقاً ، فجعل
رجل من النظارة يكثر الفرح ويكبر ويصفق . فقال له رجل إلى جانبه : يا فتى
الفرس لك ؟ قال : لا ! ولكن اللجام لى .

دخل طفيلي عرساً فلم يقدر على الدخول ، فأخذ قرطاساً وأدرجه ولم يكتب
فيه شيئاً ، وسأل عن العروس هل له قرابة غائب . فقيل : أخوه . فكتب عنوان
الكتاب من فلان ابن فلان إلى أخيه ، وجاء فدى الباب . وقال : معى كتاب
من أخى العروس فخرج العروس مبادراً فأدخله وأحضر له الطعام ، فلما قرأ العنوان
قال : سبحان الله ! تراه نسى اسمى إذ لم يكتبه على الكتاب . فقال : الطفيلي
وأعجب من هذا انه لم يكتب داخله شيئاً من العجلة ، فلم مراده وأدخله ^(١) .
وأنشد بعضهم لابی محمد بن وكيع :

بيننا أنازل امرى أن يحجى فرج	مقدما فيه بين السوف والليت
إذا بصرت بباب الدار مستلما	فلت مستمعا أصغى إلى الصوت
فقلت من جا بباب الدار يقرعه	نادى أنا فرج زن لى كرى بيتى
عوتب طفيلي على التطفيل . فقال : والله ما بنيت المنازل الا لتدخل ، ولا	

(١) ذكر الخطيب البغدادي في كتابه حكايات الطفيلين هذه الحكاية وفيها اختلاف
في الالفاظ .

نصبت الموائد إلا لتؤكل ، وإني لأجمع في التطفيل خللا ، ادخل مجالسا ، وأقمده مستأنسا ، وأنبسط وإن كان رب الدار عابسا ، ولا أتكلف مغرما ، ولا أنفق درهما ، ولا أتعب خادما .

قال أبو دراج الطفيلي لأصحابه : لا يهولنكم غلق الأبواب ، ولا شدة الحجاب ، ولا عنف البواب ، وتحذير العقاب ، ومبارزة الألقاب ، فإن ذلك صائر بكم إلى محمود النوال ، ومغن لكم عن ذل السؤال ، واحتملوا الوكرة الموهنة ، واللطمة المزمطة ، في جنب الظفر بالبغية ، والدرك للأمنية ، وألزموا الطورجة ^(١) للعاشرين ، والخفة بالواردين والصادرين ، والتلق للمهيين والمطربين ، والبشاشة بالخدم والموكلين ، فاذا وصلتم إلى مرادكم فكلوا محتكرين ، وادخروا لغدكم مجتهدين ، فإنكم أحق بالطعام ممن دعى إليه ، وأولى ممن صنع له . فكونوا لوقته حافضين ، وفي طلبه متمسكين ، واذكروا قول أبي نواس :

ينخس مال الله من كان فاجر وذى بطنة للطيبات أكل

جلد بعض الشرط رجلا وكان الجلاد قصيرا دميما والمجلود طويلا . فقال له الجلاد : تقاصر لينالك الضرب . فقال : ويلك ! إلى أكل الفالوذح تدعونى ، والله لوددت أن تكون أنت أقصر من ياجوج وماجوج ، وأنا أطول من عوج . دخل إعرابى من ثقيف على خالد بن عبد الله القسرى ، فشكا إليه قلة المطر ، وجفوف الشجر وكثرة العيال ، وعدم المال . وكان خالد مبغضا لثقيف ، فقال : أما ما ذكرت من قلة المطر ، فوددت أن الله جل اسمه ضرب بينكم وبين السماء صفائح من حديد . وجعل مسيلها مما إلى البحر ، فلا تصل إليكم قطرة من مائها . وأما ما ذكرت من يبس الشجر فوددت أن الله أحرق ما لديكم من ذلك ، وأما ما ذكرت من قلة المال وكثرة العيال ، فوددت أن الله قطع يديك ورجليك ولم يجعل لأهلك

(١) كذا في الاصل ، ولعله من الطازج

كاسب غيرك . فقال : أيها الأمير أصلحك الله ، وطئت أرضك ، وأملت رفقك ، فلا تصرفني بحسرة الحرمان ، واجعل قرأى منك بقدر أملى فيك ، لا بقدر نسي عندك قال : يا غلام أعطه بكرة ، ثم زاده أخرى .

وجلس مالك بن طوق في قصره في شباك مطل على رجبته ، ومعه جلساؤه إذ أقبل اعرابي تحبُّ به ناقته . فقال : إياي أريد ، ونحوي قصد . ولعل منه أدبا ينتفع به ، ثم أمر بادخاله ، فلما مثل بين يديه . قال : ما أقدمك يا أعرابي ؟ قال : سيب الأمير ورجاء نائله قال : هل قدمت أمام رغبتك وسيلة ؟ قال : نعم ! أربعة أبيات قتلها بظهر البرية ، فلما رأيت ما يبأ الأمير من الهيبة والجلال ، استحققتها واستصغرتها . قال : فهل لك أن تنشدا أبياتك على أن نجيزك عليها ألف درهم ، فإن كنت ممن أحسن ربحنا عليك ، وإلا فقد نلت مرادك ، وربحت علينا . قال : رضيت وأنشده

وما زلت أخشى الدهر حتى تعلقت يداي بمن لا يتقى الدهر صاحبه
فلما رآني الدهر تحت جناحه رأى مرتقى صعباً منيعاً مطالبه
رآني بحيث النجم في رأس باذخ تظل الوري أكنافه وجوانبه
فتى كسواء الغيث والناس حوله إذا قحطوا جادت عليهم سحائبه

فقال : قد والله ظفرنا يا أعرابي ، ورزقنا الفلج عليك ، والله ما قيمتها إلا عشرة آلاف درهم . قال : فإن لي صاحباً شاركته فيها ، وما أراه يرضى بيدي . قال : اتراك حدثتك نفسك بالنكث ؟ قال : نعم ! وجدت النكث في البيع خيراً من خيانة الشريك ، فأمر له بعشرة آلاف دينار .

وركب المتوكل زلالا ومعه قضاة وعبادة المحنثين . وكان قضاة طويلاً جداً . فجعل ينفى إلى أن هبت ريح شديدة وثار دجلة ، فأمسك عن الغناء . فقال له المتوكل : مالك ؟ قال : ياسيدي أفرغني مأري ، فرفع عبادة يده وصفعه . وقال : يا ابن الفاعلة ! تنوهم أن في دجلة ماء يطولك .

لما أراد لبید بن ربیعۃ أهله على إحضاره مجلس النعمان ، ومباهلة ابن زياد العباسی على ما خاطب به أهله بمحضرة النعمان . أراد أهله أن يختبروه لأنهم استصغروه ، فنظر عمه إلى بقله لاصقة بالأرض - وهى جذیر الأرض . فقال : صف لنا هذه البقله حتى أسمع . فقال لبید : إن هذه البقله رذلة دقيقة الخيطان ، ذلیلة الأغصان ، لا تذكى نارا ، ولا تستر جاراً ، ولا توهل داراً ، عودها ضئیل ، وخیرها قلیل ، وبلدها شاسع ، ونبتها خاصع ، وآكلها جائع . والمقيم عليها قانع ، أقصر البقول فرعاً ، وأخبثها مرعى ، وأصعبها قلعا ، فخر بها لجارها وجدعا ، فأتقوا بی إلى أخا عبس ، ارجعه عنكم بتعس ، وأتره من أمره بلبس . فقال له : سر ! فلما قدم على النعمان وعنده الربیع أنشده :

نحن بنو أم البنین الأربعة الضاربون الهام تحت الخيمضمه
والمطعمون الجفنة المدعده

وكان بشار جالسا على باب داره ، فمر به ابن أخيه مع أصحاب له . فقال : أصحاب ابن أخى هؤلاء ، أتراك . قيل : من أين علمت ؟ قال : لأنى لا أسمع لهم حس نعال . قيل لبشار : إن فلانا يزعم أنه لا يبالى بقاء واحد أو ألف فقال : صدق لأنه يفر من الواحد كما يفر من الألف .

حكى المدائنى . قال : كان فى المدينة امرأة جميلة عفيفة ذات زوج ، وكان قفى من أهل المدينة يتبعها كلما خرجت ويعرض لها ، فلما أذاها شكته إلى زوجها . فقال لها : فما عندك فى أمره حيلة . قالت : قد فكرت فى شىء إن ساعدتنى عليه . قال : فأنا أساعدك . فبعثت جاريتها إليه تقول : إن الذى بقلبي منك أكثر مما بقلبك منى ، ولكنى امرأة مستورة ولا أعرف الفساد ، فكنت أمتنع عليك وفى قلبى النار ، فلما بلغته الرسالة استطار فرحاً ، وقال للجارية : ما أدرى كيف أودى شكرك إذ جرى هذا الأمر على يدك ، فبلغها السلام وقولى لها : إني صائر

إليك غدا ووهب للجارية ديناراً ، وطالت ليلته حتى أصبح وجهه إليها بجدى .
وفاكهة . فقالت الجارية : قد وجب على شكرك لاجابتك إياى فى حاجة مولاتى ،
وأنا أتيّر عليك بحيلة بها يتم أمرك . قال : وما هى ؟ قالت : سيدتى فيها حشمة
وخجل وانقباض عن الرجال ، فإذا جلست معك فلا تتعرض لها بكلام ولا بغيره ،
حتى تشرب معك أقداحاً . قال : نعم ! وصعدت الجارية فعاونت سيدتها على
إصلاح الجدى والطعام ، فلما احكته نزلت الجارية وبسطت لسيدتها مصلّى
وجاءت فسدت وقعدت ، وجاءت الجارية بالطشت والماء فغسلت أيديهما ،
ووضعت المائدة بينهما ، وجاءت بالجدى والطعام . فحين أخذ الخذول اللقمة فوضعها
فى فمّه جاء الزوج فقرع الباب ، فوضعت المرأة يدها على رأسها وقالت : افتضحت .
وهلكت . فقال : دعى الجزع واحتالى فى موضع أكن فيه إلى خروجه . قالت :
ما أعرف موضعاً يخفى عليه إلا أن تحل الحمار الذى فى الدهليز وتقوم فى مكانه .
فقال : افعلى ! فجاءت الجارية إلى حمار يطحن فى الدهليز مشدود العينين فنحته .
وربطت المغرور مكانه . وقالت : اطحن مكان الحمار ولا تمسك فيفطن بك ،
فإنى أرجو أن يخرج سريعاً وترجع إلى سرورك ، ثم فتحت الباب ودخل الزوج .
فقالت له : خرجت على أن تقيم أياماً فما الذى جاء بك الساعة ؟ قال : كنت
عزمت على ذلك فمر بى إخوان فعرضت عليهم المقام فى الضيعة . فقالوا : لا يمكننا
اليوم ولسكننا إن شاء الله تعالى نصير إليك غدا ، فأردت أن يكون مجيئهم إلى
البيت أسهل على ، فبادرت إليك لتصلحى ما يحتاجون إليك وخاصة الدقيق ،
فينبغى أن لا يفتر الحمار فى الدقيق ، فجلسا يأكلان والخذول يطحن ، ثم وضعنا
نبيذا وجعلا يشربان ، والزوج يقول ساعة بعد ساعة ، هاتى العصا لكى أقوم
لهذا الحمار الملعون فإنى أراه كسلان ، ونحن نحتاج إلى الدقيق كثيرا ، فتقوم
الجارية فتقول له الله الله ! فى نفسك لا تفتر ، فإنى أخاف أن يقوم فيراك ، فلم
يزل يطحن دائماً والرجل يشرب مع امرأته إلى أن طلع الفجر ، فقام الرجل قهياً

للصلاة وخرج إلى المسجد ، فحلت المغرور وقالت : طر إلى بيتك لئلا يراك إنسان فتفتضح ، فخرج يمدو على وجهه عريان ويده على سوائه ، فدخل إلى منزله وبقى مسبوتا مطروحا على وجهه لا يحرك عضوا ، فلما كان بعد مدة قالت المرأة لزوجها : قد بقي علينا شيء من الومع بالخذول . قال : شأنك ، فبعثت إليه وقالت : مولائي تقرئك السلام وتقول لك الله يعلم ما تداخل قلبي مما نزل بك ، ولوددت أني أقيك بنفسى ، ولكن المقادير تنزل من السماء ، وإني إليك لمشتاقة فأحب أن تصير إلينا فان زوجى قد خرج إلى موضع له فيه مقام شهر ، فنستأنس جميعاً ونسترجع ما فاتنا ، فالتفت إليها سريعا . وقال : عسى قد فرغ دقيقتكم

ودخل بشار على المهدي ينشد شعرا وعنده خاله يزيد بن منصور الحميرى وكان مغفلا . فقال : ما صنعتك أيها الشيخ ؟ قال : أنظم اللؤلؤ . فقال المهدي : أهزأ بى خالى ؟ قال : وما أقول لمن يرى شيخاً أعشى ينشد شعرا فيسأله عن صناعته . وقالت جوارى المهدي له : إن بشاراً لأطيب الناس مفاكة ، وهو ضرير البصر ولا غيره بك علينا معه إذ لايرانا ، فلو أدخلته إلينا ؟ فنقل ! فبادرته وطأينه وقان إنك أبونا . فقال : ونحن على دين كسرى ، فباع ذلك المهدي فمنعه فيما بعد من الدخول عليهن . أخذه المتنبي فقال :

ياأخت معتنق الفوارس فى الوغى لأخوك ثم أرق منك وأرحم
يرنو اليك مع العفاف وعنده إن المجوس تصيب فيما تحكم
وبشار بن برد ، أحد الأعاجيب خلق اكه ، وهو يشبه التشايبه التى لم يسبق إليها مما لا يدركه البصير ، وهو أول من فتق البديع للمحدثين . وقتله المهدي سنة سبع وستين ومائة ، وكان سبب قتله أن المهدي قدم البصرة فأعطى الشعراء ولم يعط بشاراً شيئاً ، فأتى بشار إلى مجلس يونس النحوى . فقال : أههنا أحد يحتشم منه ؟ قاوا : لا ! فأنشده :

فليت ما أنفقت فى مصرنا كان جميعا فى حر الخيزران

فبلغ ذاك يعقوب بن داود مع ما بلغه من هجائه إياه ، فدخل على المهدي . فقال له :
يا أمير المؤمنين قد بلغ من هذا الأعمى المشرك أن يهجو أمير المؤمنين . قال : ويحك
وما قال ؟ قال تعفني يا أمير المؤمنين من إنشاد ذلك ، فأبى عليه فأنشده ما قال
فوجه في حملاه ، فخاف يعقوب أن يقدم على المهدي فيمدحه فيعفو عنه ، فوجه إليه
من لقيه في البطيحة فضربه بالسياط حتى مات ، وجعل يقول ويلك أزعجتني ؛
أما علمت أني شاعر وليا العهد موسى وهارون . فقال له : يا زنديق تضرب ولا تقول
بسم الله ! قال : ويلك أتريد هو فأسمى الله عليه . قال : فأرسل المهدي إلى منزل
بشار من يفتشه وهو يقول : لعننا نجد شيئا تقام به الحجة . قال : فوجد صندوقا
مقفلا بقفل وثيق ، فظنوا أن فيه بعض ما أتتهم به ، فلما فيه طومار مكتوب فيه :
بسم الله الرحمن الرحيم . أردت هجاء آل سليمان بن علي لاساءتهم إليّ وطلبهم لي ،
ثم ذكرت قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فتركتهم لله ولرسوله .
ولكني قد قلت وأنا أستغفر الله تعالى .

دينار آل سليمان ودرهمهم
كالبايليين حقا بالعفاريت
لا يبصران ولا يرجى لقاءهما
كما سمعت بهاروت وماروت

ومن جيد شعره قوله :

أمن تجني حبيب بات غضبانا
أصبحت من سكرات الموت سكرانا
يا قوم أذني لبعض الحى عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قلت بمن لا ترى تهوى فقلت لهم^(١)
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
ياليتني كنت تفاحا براحتها
أو كنت من قُضب الريحان ريحانا
حتى إذا استنشقت ريحي وأعجبها
ونحن في خلوة حوَّلتُ أسنانا
لا تعذلوني فأني تذكرها
نشوان هل يعزل الصاحون نشوانا

(١) كذا في الاصل وكتب الشيخ حفي المهدى : لعله قالوا . وفي مجموعته التي جمعتها
الفاضل القرني : قالوا بمن لا يرى تهذى فقلت لهم . الخ .

لم أدر ما وصفها يقظان قد علمت وقد لهوت بها في النوم أزمانا
باتت تناولي فاها فآله جنية زوجت في النوم إنسانا
وقال :

يا قرّة العين إني لا أسمىك أكنى بأخرى أسمىها وأعنيك
أخشى عليك من الجيران واحدة أو سهم غيران يرميني ويرميك
يا أطيب الناس ريقاً غير مختبر إلا شهادة أطراف المساويك
قد زرتنا مرة في الدهر واحدة عودي ولا تجعلها بيضة الديك
يا رحمة الله^(١) حلّى في منازلنا حسبي برائحة الفردوس من فيك
إن الذي بات مغبوطاً بنعمته كف تمسك أو كف تعاطيك
يسرني وجهك المعشوق مقبله وإن توليت راعني تواليك
كان مسكا وريحانا وغالية ما بين حجلك أو أعلى دفاريك

وقال :

لم يطل ليلى ولا كن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم
رفهني يا عبد عنى وأعلى أننى يا عبد من لحم ودم
إن لي جسماً ضعيفاً ناعلاً لو توكت عليه لا نهدم
ختم الحب لها في عني موضع الخاتم من أهل الذم
وإذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت من لا ونعم

قال مروان بن أبي حفصة : أنشدني بشار هذه القصيدة فلما بلغ هذا البيت .

قلت له : جعلني الله فداك أبا معاذ ! هلاً قلت : خرس ، قال لي : فصر الله فاك
إني إذا لقي عقلت ، أتظنّ عليّ من أن أجيب بالحرس

وبشار مولى لعقيل بن كعب وهو يفتخر في شعره بالمضرية . ولما دخل

(١) اسم لقينة يتشعب بها .

على المهدي في أوّل دخلاته . قال : فيمن تمتد ؟ قال اما اللسان فعرّبي ، وأما الأصل فكما قلت :

ونبتت قوما لهم أحنّة^(١) يقولون ماذا وأنت العَلَمُ
ألا أيها السائل جاهلا ليعرفني أنا أنفُ الكرمِ
نمت في الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قرّيش العجم
وانى لاغنى مقام الفتي وأصبي الفتاة ولا تعتصم
البيت الأول يشبه قول جميل :

فليت رجلا فيك قد نذروا دمي وهموا بقتلى يا بُنَيْنِ لقونى
يقولون لى أهلا وسهلا ومرحبا ولو ظفروا بى ساعة قتلونى
إذا مارأونى مُقبلا من ثنية يقولون من هذا ؟ وقد عرفونى
وفى هذه القصيدة يقول بشار :

أصفراء ليس الفتي صخرة ولكنه نصب همّ وغمّ
صبت هواك على قلبه فباح وأعلن ما قد كنتم
ويضاء يضحك ماء الشبا ب فى وجهها لك إذ تبسم
دواء العذارى إذا زرنها أطفن بحوراء مثل الصنم
وفيهما يقول يمدح عمرو بن العلاء :

إذا أيقظتك حروب العدى فنبه لها عمراً ثم ثم
فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بسم
دعاني الى عمرو جوده وقول العشيرة بحر خضم
ولولا الذى ذكر والمأكن لا مدح ريحانة قبل شم
يلذ العطاء وسفك الدما ، ويندو على نغم أو نعم

(١) فى المجموعة :

ونبتت قوما بهم جنة يقولون من ذا وكنت العلم

تطوف العفاة بأبوابه طواف الحجيح ببيت الحرم
إذا عرض اللهو في صدره بدا بالعطايا وضرب البهم
وجال اللواء على رأسه يدوم كالمصرجي القدم
وقال بشار :

حيّا صاحبيّ أم العلاء واحذرا طرف عينها الحوراء
عذبتني بالحبّ عذبها الله بما تشهى من الأهواء
إنّ في عينها دواء وداء لمحّب والداء قبل الدواء
يقول فيها يمدح عقبة بن سلم الهنائي :

مالكيّ ينشق عن كفه الجو د كما أنشقت الدجا عن ضياء
إنما لذة الجواد ابن سلم في عطاء لراغب أو لقاء
ليس يُعطيك للرجاء ولا الخو ف ولكن يلدّ طعم العطاء
يسقط الطير حيث يلتقط الح ب وتغشى منازل الكرماء

وكان بشار : شجاعاً^(١) خطيباً صاحب منشور ومزدوج ورجز ورسائل مختارة
على كثير من الكلام . ودخل على عتبة بن سالم : وعنده عقبة بن ربيعة بن
المعجاج فأنشده أرجوزة ثم أقبل على بشار . فقال : هذا طراز لا تحسنه يا أبا معاذ .
فقال : والله لأنا أرجز منك ومن أيك ومن جدك ، ثم عدا على عقبة من الغد
فأنشده أرجوزة أولها :

يا طلل الحى بذات الصمد بالله خبر كيف كنت بعدى
بدت بخد وجلت عن خد ثم أنشت كالنفس المرتد
وساحب كالرمل الممتد حملته في رقعة من جلدى
حتى اغتدى غير فقيد الفقد وما درى ما رغبتى وزهدى
الحري لى والعصا للعبد وليس للمحف مثل الرد

(١) كذا في الأصل : ولعله سجاعا .

يقول فيها :

اسلم وحييت أبا المكد وألبس طرازاً غير مُسترد
لله أيامك في معد

وهي طويلة فأجزل صلته ، فلما سمع ابنُ رُوبة ما فيها من الغريب . قال :
أنا وأبي وجدتي فتحنا الغريب واني خلّيق أن أسدّه عليهم ، فقال بشار : إرحمهم
رحمك الله ! قال : اتستخف بي وانا شاعر ابن شاعر ابن شاعر . قال : فاذا أنت من
أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا

كان جامع بن وهب الصيدلاني من أكبر الناس دنيا ، وأعظمهم غفلة ، اشترى
مرة ثلجا كثيرا . فقيل له : إنه كثير . فقال : أريد أن أمصه وأرمي بتفله .
وأعطى يبغل له ثمنا خسيسا . فقال : ماللعقار ببغداد قيمة ؟ . ودخل بستانا له . فقال
لوكيله : أغرس لي بصلا بجمل ، فانه نافع للصفراء . وكتب إليه بعض الكتاب كتابا ،
فأجابه عنه ، وعنوانه : من ذاك الذي كتب إلى . وعثرت به البغلة . فقال
لغلامه : أنظر هل سال من أصبعها دم ؟ . وكتب إلى ابنه — وقد خرج من
مكة — : يا ولدي ان قدرت أن تضحي عندنا فافعل ، لنفرح بك في العيد .
وسقطت ابنته في البئر . فقال : يا بنية لا تبرحي من مكانك حتى أجي . بمن
ينخرجك منها !

وتبخر مغفل في ثياب نفيسة فاحترقت ، فحلف بالطلاق لا يتبخر بعدها
إلا عريانا . وأتى آخر ليكسر لوزة فزهقت عن الحجر . فقال : كل شيء يفر من
الموت حتى البهائم أيضا

وكان بمصر واعظ يقال له أبو عبد الله الخواص ، من أشد الناس غفلة ، وقف
به رجل من العامة يقال له محمد القمقياني الخباز . فقال له : أصاحك الله لي نفس
معلولة لا تجيب إلى شيء من الخير ، فما يصلحها لي ؟ قال : اقرأ القرآن وأكثر منه .
قال : ما أحفظ غير الحمد وقل هو الله أحد ، وقد قرأتها مرات كثيرة ونفسي

بها . قال : فاذا ذكر الموت . قال : اليك الله ! قد فعلت فما خشعت ، ولا جاء منها شيء . قال : فاكثر حضور مجالس الذكر . قال : من أين أجد ؟ وقد تركت شغلي ولزمت المجالس ونفسي كما هي . قال : لعن الله نفسك فانها مشؤمة ملعونة كما قلت ، والرأى أن تمضى بها إلى جرجان بن مطهر صاحب الشرطة يؤدبها لعله يجيئ منها بشيء .

كان هشام بن عبد الملك : أحول قبيح المنظر ، فعرضت عليه خيل الجند ، فعرض رجل من أهل حمص فرساً نفوراً . فقال له هشام : ما هذا ؟ قال : أصابك الله هو فاره ، ولكنه ظن أنك حيزون البيطار . فقال : أعزب في لعنة الله ! . أصاب حمصى جملاً . فقيل له : عرفه ! قال : أبيعه وأعرف ثمنه .

قال علي بن عيسى الوزير : كان يبلغني عن أهل حمص تغفل ، فأظن أكثره تشنيعاً ، حتى دخلتها ، فإذا برجل بين يدي حجام وقد مص عنقه بمحجمتين لم أر أكبر منهما ، وهو يشرط في وسط عنقه ، فلما رأيته أقبلت في موكب . قال : من هذا ؟ فقال الحجام : هذا الوزير علي بن عيسى ، فقام والمحجمة في عنقه والدم يسيل على كتفيه وظهره . وقال : السلام عليك إيش كان خبرك أيها الوزير ؟ قلت : خيراً ، وانصرفت فحلفت أن لا أدخل حمص ونزلت بظاهرها حتى أنجزت ما أتيت فيه .

وأتى رجل بقرديبيعه ، فجاء عبادي فنظر إليه . فقال صاحبه له - وقد دنا من رجله : احذر لئلا يرمحك ، فدنا من يده . فقال : احذر لئلا يخطبك ، فدنا من فمه . فقال : احذر لئلا يعضك ، فتباعد العبادي ناحية فقيل له لم تباعدت ؟ فقال : احذر لئلا يرميني بحجر . قعد عبادي وأعراني يأكلان . فقال العبادي للأعرابي : كيف مات أبوك ليشغله بالكلام عن الأكل ؟ فقال : أصابه كذا وكذا ، فأخذ في حديث طويل والعبادي يأكل ، ثم قال الأعرابي : وأنت كيف مات أبوك ليشغله

بالكلام عن الأكل ؟ فقال : انتخم فمات . ودخل عبادى الماء إلى الكعب
فصاح الغريق الغريق !! قيل له : مادعاك إلى هذا . فقال : أردت أن آخذ بالخرم .
ومر عبادى برجل ومع الرجل رمح . فقال : أتبيعه ؟ قال : نعم ! قال : فبكم
تريده ؟ قال : برغيف . قال : سبحان الله تطلب هذا برغيف . قال : أخزى الله
شرهما فى الجوف

حمل عبيد الله بن يحيى بن خاقان أبا العيناء على دابة ، فأخذها منه ابنه . وقال :
أبعث إليك بخير منها ، فتأخر عنه ذلك ، فلقية . فقال : ما خبرك ؟ فقال : بخير ،
يامن أبوه يحمل وهو يرسل . فقال : أنا أنفذ إليك بغلا فارها بغير تأخر ، فتأخر
عنه ثم لقية . فقال : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟ قال : راجل أصلحك الله !
فضحك وأنفذ إليه بغلا زعم أبو العيناء أنه غير فاره . فكتب إلى أبيه : أعلم
الوزير أعزه الله ! أن أبا على محمداً أراد أن يبرنى فعقنى ، وأن يركبني فأرجلني ،
أمرلى بدابة تقف للنثرة ، وتعثر بالبعرة ، كالتضيب اليا بس عجفا ، والماشق المجهود
دنفا ، قد أذكرت الرواة عروة العذرى ، والمجنون العامرى ، مساعداً أعلاه لأسفله .
حباقة مقرورة سبالة^(١) فلو أمسك لترجيت ، ولو أفرد لتعريت ، ولكنه يجمعهما
على فى الطريق المعمور ، والجلس المشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ،
يضحك من فعله النسوان ، ويتناغى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح داؤه
بالطباشير ، وقائل يقول نقوا له الشعر ، قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق
العلماء بالأمصار . فلو أعين بنطق ، لروى بحق وصدق ، عن جابر الجعفى ، وعامر
الشعبى ، وإنما أنيت من كاتبه الأعور ، الذى إن اختار لنفسه أطاب وأكثر ،
وإن اختار لغيره أخبث وأنزر ، فإن رأى الوزير أن يبدلنى عنه ، ويرينى منه ،
بمركوب يضحكى كما ضحك منى ، يمحو بحسنه وفراسته ، ماسطره العيب بقبحه

(١) كذا فى الأصل ولم أقف عليها فى غيره

ودمامته ، ولست أذكر أمر سرجه ولجامه ، لأن الوزير أكرم من أن يسب ما يهديه ، أو ينقض ما يميضيه .

فوجه اليه عبيد الله يبرذون من براذنيه بسرجه ولجامه . ثم اجتمع مع عبيد الله عند ابنه . فقال عبيد الله : شكوت دابة محمد وقد أخبرني أنه يشتريه الآن منك بمائة دينار ، وما كان هذا ثمنه لا يشتكي ؟ فقال : أعز الله الوزير لو لم أكذب مستزيداً ، لم أنصرف مستفيداً ، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ، فضحك عبيد الله . وقال : يا أبا عبد الله حجتك الداحضة بملاحتك وظرفك ، أبلغ من حجة غيرك البالغة . ويشبه هذه : رسالة لأبي الخطاب الصابي ، أجاب بها عن أبي العباس بن سابور المستخرج أبا الخير بن سبرة ، عن رقعة وصلت منه في صفة حمل أهداه ، كتبتها على اختصار .

وأبو الخطاب هذا هو عم أبي اسحاق إبراهيم بن هلال الصابي — وصلت رسالتك ففضضتها عن خط مشرق ، ولفظ موق ، وعبارة مصيبة ، ومعان غريبة ، واتساع في البلاغة يعجز عنها عبد الحميد في كتابته ، وسجبان في خطابته ، وتصرف بين جد أمضى من القضاء والقدر ، وهزل أرق من نسيم السحر ، وتقلب في وجوه الخطاب ، الجامع لغنوت الصواب ، إلا أن الفعل قصر عن القول ؛ لأنك ذكرت حملاً جعلته بصفتك حملاً ، وكان كالمعدي تسمع به لا أن تراه ، وحضر فرأيت كبشاً متقادماً الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفتته الدهور ، وتعاقبت عليه العصور ، فظننته أحد الزوجين اللذين حملهما نوح في سفينته ، وحفظ بهما جنس النعم لذريته ، صغر عن الكبر ، ولطف عن القدم ، فبانت دمامته ، وتقاصرت قامته ، وعاد ناحلاً ضئيلاً ، باليا هزيباً ، بادي السقام ، عارى العظام ، جامعا للمعائب ، مشتملاً على المثالب ، يعجب العاقل من حلول الحياة به وتأتى الحركة له ، لأنه عظم مجلّد ، وصوف ملبّد ، لا تجد فوق عظامه سلباً ، ولا تلقى يدك منه إلا خشباً ، لو ألقى للسبع لأباه ، ولو طرح للذئب لعافه وقلاده ، وقد طال للكلأ فقده ،

و بعد بالمرعى عهدہ ، لم ير القت إلا نائما ، ولا عرف الشعر إلا حالما .
وقد خیرتنی بین أن أقتنيه فيكون فيه غنى الدهر ، أو أذبحه فيكون فيه خصب
الرحل ، فملت إلى استبقائه لما تعرفه من محبتي للتوفير ، ورغبتي في التشمير ، وجمي
للولد ، وادخاري للغد ، فلم أجد فيه مستمتعا لبقاء ، ولا مدفعا لغناء ، لأنه ليس بأني
تحمل ، ولا بفتى ينسل ، ولا بصحيح يرعى ، ولا بسليم يتيق ، فملت إلى الثاني من
رأيتك ، وعملت على الأخير من قوليك ، وقلت أذبحه فيكون وظيفة للعيال ، وأقيم
رطباً مقام قديد الغزال ، فأنشدني وقد أضرمت النار ، وحدثت الشفار ، وشمر الجزار :
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما الفائدة لك في ذبحي . وأنا لم يبق في إلا نفس خافت ، ومقلة إنسانها باهت ،
ولست بذى لحم فأصلح الأكل ؛ لأن الدهر قد أكل لحمي ، ولا جلدي للدباغ
يصلح ؛ لأن الأيام قد مزقت أديمي ، ولا صوفي يصلح للغزل ؛ لأن الحوادث قد
حصت وبرى ، فإن أردتني للوقود فكف حطب أبقى من ناري ، ولا تفي حرارة
جمري بريح قتاري ، فلم يبق إلا أن تطالبني بدخل ، أو بيني وبينك دم . فوجدته
صادقا في مقاتله ، ناصحا في مشورته ، فلم أعلم من أي أمره أعجب ؛ من مماطلته
الدهر بالبقاء ، أم صبره على الضير والبلاء ، أم قدرتك عليه مع إعوازي مثله ، أم
تأهيلك الصديق به مع خساسة قدره ، وياليت شعري إذ كنت والى الغنم
وأمرك ينفذ في الضأن والمعز ، وكل كبش سمين وحميل بطين مجلوب إليك ،
مقصود عليك ، تقول فلا ترد ، وتريد فلا تصد ، وكانت هديتك هذا الذي
كانه ناشر من القبور ، وقائم عند النفخ في الصور ، فما كنت مهديا لو كنت
رجلا من عرض الكتاب ، كأبي علي وأبي الخطاب ، ما كنت تهدي إلا كتابا
أجرب ، أو قردا أحذب .

• • •

وقال الحدوني في اضية أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جوسبنداد :
أسعيد قد أهديتني اضية مكثت زمانا عندكم ما تطعم

نضاً تغامزت الكلاب بها وقد
فاذا الملا ضحكوا بها قالت لهم
مرت على علفٍ فقامت لم ترم
وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
وقال :

أبا سعيد لنا في شاتك العبر
وكيف تبعر شاة عندكم مكثت
لو أنها أبصرت في نومها علفاً
ياماننى لذة الدنيا بما رحبت
وقال :

شاة سعيد في أمرها عبر
وهي تغنى لسوء حالتها
مرت بقطف خضر ينشرها
فأقبلت نحوها لتأكلها
وأبدلتها الظنوف من طمع
كانوا بعيداً وكنت آملهم

وقال :

لسعيد شويهة
قد تغنت وأبصرت
بأبي من نكبة بر
فأناها مطعما
فتولى فأقبلت
ليته لم يكن وقف
سلكها الضر والعجف
رجلا حاملاً علف
ودآبي من الدنف
فأنته لتعتلف^(١)
تتغنى من الأسف
غذب القلب وأنصرف

(١) في الأصل : فأناه لتعتلف

ومن الظريف في هذا الباب ما أنشده أبو علي الخاتمي في حكاية اللص :
 يعجبني أنك لا تربط من خيل ولا تركب إلا النجبا
 لما رأيت الشقر خيلا سبّقا ملكت منها أشقرا مجنبا
 به سمات من قرون سكفت يعرف من أقربها المهلبا
 فللكلاب قوله مهاوش لما دعاهم أجل قد قربا
 لا تياسن ماعشت في تشيعه مستعملا فيه العزا والعقبا
 خطناه تحت الجمل إذ حلتاه قرون ضأن جعلت ملء العبا
 في كل رجل ويد زاندة وهو على جردانه قد شطبا
 كم مرة رأيته في بجرمه^(١) فخلته يربط طنا حطبا
 وخاف أن يسقط من ضعف به فشد بالحائط منه القبقبا
 تحير البيطار لما أن رأى في رأسه مرقعا معتصبا
 مقيرا موصلا كأنما قد رم منه زورقا أوزيزبا
 فهو لنار شعلة لو لصقت طاقة كبريت به لالتها
 كم فيه من فائدة قد صححت كتب التباريح^(٢) لمن تطيبها
 قد خلق الله لنا من برّه ومن نبات البحر خلقا عجبا
 يمشى الى الاسراج مشى القهقري لكن إلى الملعف ينزو جنبا
 من كثرة القردان في صهوته تحسبه مجدرا محصبا
 لو أن سلطانا رأى راكبه لم يأل أن عذره وأدبا
 أقام طول الصيف في الماء إلى أن أنبت الماء عليه الطحلبا
 ظننته والشمس لم تبيض من شمس الضحى ولم تحمل الغيبا
 من بعض أكواخ النواطير سرى بالريح إذ هبت له ريح الصبا
 بالغ فيه الجوع حتى أنه إذا رأى ألفت بكى وانتحبا
 وجاذب المقود مجهودا وما كاد له المقود أن ينجذبا

رحم للقت وقد مرَّ به ثم تغى طرباً واطرباً
يا أيها الباخل بالوصل أما ترحم صباً كلفا معذباً
دخل أبو العيناء على بعض الرؤساء بكرة، فاستسقى ماء . فقال له الرجل :
أفى هذا الوقت تعطش ؟ قال : أصلحك الله هذا أمان لك من الغدا .

وكان أبو عباد وزير المأمون ضيقاً جداً ، قيل له : إن لقمان قال : ما شئ أشد
من حمل الغضب . فقال : ولكنه عندي أخف من الريشة . قيل له : إنما عني
لقمان أن احتمال الغضب ثقيل . فقال : والله ما يقوى على الغضب أحد من الناس
إلا الجمل . وغضب يوماً على بعض أصحابه ، فشجبه بدواة كانت بين يديه . فقال :
صدق الله حيث يقول : والذين اذا ما غضبوا هم يفترون ، فبلغ ذلك المأمون
فضحك . فقال : ويلك ! لا تحسن تقرأ آية من كتاب الله تعالى . قال : يا أمير
المؤمنين والله إنى لأحسن أقرأ من سورة واحدة ألف آية ، فضحك المأمون وأمر
باخراجه . ولم يكن جاهلاً وإنما كان يجرى عليه الغلط لفرط غيظه .

وقال المأمون لأحمد بن أبي خالد : صف لى ثابت بن يحيى - يُريد أبا عباد .
فقال : هو والله أحد من سيف سعيد بن العاص . فقال : والله ما أتيت من هذا
شيئاً ؟ فقال : إن حركته تبين لك الأمر ، فعرض أبو عباد يوماً عليه كتاباً
وخرج ، فلما قرب من الباب أمر المأمون برده ، فرجع وقد تغير لخطبه وتركه
ينصرف . فلما كاد يركب أمر برده ، فلما عرف الرسول تناول الدواة من غلامه .
وقال : الساعة والله أضرب بها وجهك يا ابن الخبيثة ، كان ينبغي لك أن تقول :
قد ذهب الى النار ورجع . فقال له المأمون : أعرض فيما تعرض على حوائج
الهاشميين . قال : نعم ! وقل كلما تريد فلست أرجع اليك اليوم بعد هذا ولوقت أنت
بنفسك ! ! فضحك المأمون . وقال قاتل الله دعبلاً - يُريد قوله :

أولى الأمور بضيعة وفساد أمرٌ يدبره أبو عباد
وكأنه من دبره رقل خارج حرجاً يجر سلاسل الأقياد

وقيل للمأمون : إن دعبلاً هجاك فقال :

أيسومنى المأمون خطّة ظالم أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يربى على رأس الخلائق مثلاً تربي الجبال على رؤس القرد
إني من القوم الذين همُّهم قتلوا أخاك وشرّفوك بمقعد
شادوا بكرك بعد مول خوله واستنقذك من الحضيض الأوهـد

فقال : هو يهجو أبا عباد ولا يهجونى - يريد أبا عباد حرج حديد ، والمأمون
حليم متساهل . وقال المأمون - لما سمع هذا الشعر : ما فى الدنيا أصفق وجهاً من
دعبل ولا أبهت ، كيف يستنقذنى هو وقومه من الحضيض الأوهـد ، وأنا فى حجر
الخلافة زيت ، وبدرّها غذيت ، وإنما قال هذا دعبل : لأن طاهر بن الحسين
قتل أخاه ، وطاهر مولى خزاعة قوم دعبل

أنشد شاعر أبا عباد قصيدة طويلة ، فضاقت ضيقاً عظيماً ، ثم تجمل معه
فى استماعها حتى أنما ، فقام رجل من أصحابه يعرف بالغالبى . فأنشد قصيدة أخرى
فسمعها ، وقد بلغ الضيق به منتهاه . فقال فيها :

ثبنت رضى ملك الامام بثابت وأفاض فينا العدل والاحسانا
يقرى الوفود طلاقه وبشاشة والناس كثير مهنداً وسنانا

فقال أبو عباد : مهلاً مهلاً ، إنما أنا كاتب ليست هذه صفى ، هذه صفة
حميد الطوسى ، فضحك الحاضرون وزاد ضيق أبا عباد لضحكهم وخجل الرجل . فقال :
ما زلت للعافين غيثاً مُمرّعاً متخرقاً فى جوده وأنسى من الدهش من غيظ
أنى عباد باقى البيت ، فأقبل يردد متخرقاً فى جوده . فقال : قل قرنانا صفناً وودعنا
نستريح . فقال : يا سيدى - معوانا - وخرج مولياً ، فأمر له بمشراة ألف درهم .
قال ابراهيم بن العباس الصولى : لو وزنت كلمات النبى صلى الله عليه وسلم
« انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » بكلام أهل الأرض لرجعت ،
هذا أبو عباد لم يكن فى زمانه أكرم منه ، وما يكاد يرى له شاكراً لسوء خلقه .
كان أبو عباد يقول : ما جلس أحد بين يدي ، إلا ظننت أنى سأجلس بين يديه .

وكان سليمان الأعمش من الضجر بحيث اشتهر وانتشر. قال له الامام أبو حنيفة النعمان : لولا أخاف أنى أشق عليك لأكثر زيارتك . فقال: لا تفعل ! فأنت تشق على الله وأنت في دارك. وقيل له عمن: أخذت الحدة؟ قال: عن يحيى بن وثاب . وسأله رجل عن اسناد حديث ، فقام وأخذ بحلقه وأسندته إلى الحائط يخنقه . وقال : هذا سنده . وأتى الأعمش رجل من أصحابه يدعوه إلى طعام صنع له ، فأدخله الحمام قبل ذلك ، وأتاه بماء حار فسكب عليه . فقال : أحرقتني أحرقتك الله ! والله لا أدخل إليك ، ولا آكل طعامك اليوم ؛ ثم صنع له طعاماً بعد ذلك ومضى يقوده ، فوقعت إبهام رجله في مسداة في الدار يلعب فيها الصبيان بالبندق . فقال : أردت أن تقلبني في بئر الله على إن أقت عندك أو أكلت طعامك . وسلم عليه رجل من أصحابه وقد وجد آلة . فقال : كيف بت يا أبا محمد؟ فرد عليه . ثم قال له آخر : كيف بت ، فأخرج مضربته ومخذه فوضع رأسه عليها . وقال : كذا بت .

نازع بعض التميميين رجلاً من بنى عمه في حائط بينه وبينه ، فبعث إلى قوم ليشهدهم فأتاه جماعة من القبائل ، فوقف بهم عليه . وقال : أشهدكم جميعاً أن نصف هذا الحائط لى . وقدم رجل آخر إلى القاضى فى شىء يدعيه عليه فأنكر . فقال للقاضى : أكتب لى أصلحك الله إنكاره . قال : ذلك فى يدك متى شئت . قال عبد الله بن المبارك : كان عندنا رجل يكنى أبا خارجة . فقلت : له لم كنوك أبا خارجة ؟ قال : لأننى ولدت يوم دخل سليمان بن على البصرة . قال الاصمعى : حدثنى إبراهيم بن القعقاع قال رأيت أشعب بسوق المدينة ومعه قطيفة يبيعها وهو يقول من يشتري منى الوصيدة ، فأتاه رجل يساومه . فقال : أبرأ إليك من عيب فيها . قال : وما هو ؟ قال : أخاف أن تحرق أن لبستها فضحك ، واشتريت بثمان جديدة دعا رجل ابن احمد فلما صار إلى منزله . قال الرجل لغلامه : امض فاشترى لحماً بدائنين وبدائنين خبزاً ، فإنه ليس من صديقنا ابن أحمد حشمة فقال ابن

أحمد : يا ابن أم ولا كل هذا الاستئناس بكرة . وقال رجل لصديق له : صر إلى نأكل خبزاً وملحاً ، فقام معه وهو يظن هذا الكلام على مجاز مايقول الناس ، فقدم إليه خبزاً وملحاً ، ووقف سائل بالباب . فقال له : بورك فيك ، فألح السائل بالمسألة . فقال له : والله لننقت إليك لأوجعك ضرباً . فقال له : الضيف . إذهب فوالله لو علمت من صدق إيعاده ما علمت أنا من صدق وعده لم تقف ساعة اشترى مزبد رأسين فوضعهما بين يدي امرأته . وقال : أقعدى ، نأكل فأخذت رأساً فوضعت خلفها . وقالت : هذا لأُمى ، فأخذ مزبد الرأس الآخر ووضعه خلفه . وقال : هذا لأبى . قالت : فاذا نأكل ؟ قال : ضعى رأس أمك وأضع رأس أبى . دخل أشعب على بعض الولاة وكان بخيلاً ، وذلك في أول ليلة من شهر رمضان فأفطر عنده ، فقدم جدى فأمعن فيه أشعب وضاق الوالى . فقال : يا أشعب إن أهل السجن سألونى أن أوجه إليهم من يصلى بهم في هذا الشهر ، فامض وصل بهم واغم ثوابهم . فقال : أيها الأمير أوخلة أخرى ؟ قال : وما هي ؟ قال : أحلف بالطلاق والعتاق أن لا آكل جديا ما عشت ابداً ، فضحك منه واعفاه .

وهذا كاذكروا أن بعض الملوك أتته سليل خبيص فظنها فأكهة فبعث إلى مساكين المسجد فحضرُوا ، ثم فتح السِّل فوجد فيها خبيصاً فندم وبقى متحيراً ، ثم أمر بهم إلى السجن . فقالوا : ما ذنبنا ؟ فقال : بلغنى أنكم تنامون في المسجد ثم تقام الصلاة فتصلون على غير وضوء . فقالوا : خل سبيلنا فوالله لا أكلنا خبيصاً ابداً ، فضحك وعلم أنهم علموا بأمره فأمر لهم بدراهم وخلي سبيلهم . قال : رجل لآخر ممن تكون ؟ قال : قرشى والحمد لله ! قال : بأبى أنت التحميد ها هنا ريبة . ومن ظريف ما قيل في الأدعياء ، قول مخلد بن بكار الموصلى في أهل بلده :

هم قعدوا فابتغوا لهم نسباً	يجوز بعد العشاء في العرب
حتى إذا ما الصباح لاح لهم	مبـير ستوقهم من الذهب
والناس قد أصبحوا صيارفة	أعرف شىء بهرج النسب

وقال في أبي تمام الطائي :

أنت عندي عربي ال	أصل ما فيك كلام
شعر ساقيك وفخدي	ك خزامي ونعام
وضلوع السلو من صد	رك نبع ونعام
وقذي عينيك صمم	ونواصيك نعام
وظباء خاضبات	ويراييـع عظام
أنا ما ذنبي إذا كذ	بنى فيك الأنام
وبدت منك سجايا	نبطيات لثام
وقفا يخلف ما أن	عرفت فيه الكرام
كذبوا ما أنت إلا	عربي ما ترام
بيته في وسط سلمى	وحواليه سلام
عربي	عربي والسـلام

وقال في محمد بن البعيث :

لمحمد بيت بناه بسيفه	أطناب حجرته النجوم الكئس
جعل السبيل إلى العلاء محمد	بيضا تسيل على ظباها الأنفس
إيماضها هندية ونجومها	خززية منها النية تفرس
ألقي الأمان على حياض محمد	بولاء محرفة وذنب أطلس
لأذا يخاف ولا لذلك جرأة	تهدى الرعية ما استقام الرئيس
قد شذب الأعداء عن عرصاته	سيف يمج دماً وعز أقفس
وإذا تناضت الملوك بفخرها	فسهام فحرك كلهن مقرطس
وإذا صرفت الطرف عن ذي نحوه	فاللوت في قسبانه يتفرس
متملق القيباح يمنع هاربا	في البعد منك ولا الشناء الأشرس
ظهرت أشعارى بعرضك بعد ما	كانت بأشعار اللثام تدنس

وهو القائل :

يطلع النجم على صعدته ، فاذا واجه بدرًا أفلا
معر إن ظمئت أرماحهم ، اوردوهن مجاجات الكلى
تحسن الألوان منهم فى الوغى ، حين يستنكر للرعب الحلى
سخط عبد الله يدنى الأجلا ، ورضاه يتعدى الأملا
يعشب الصلد إذا ساله ، وإذا خاذل روضا أمحلا
حط رحلى فى ذراه جوده ، وتمشى فى نداه الخيزلى

وقال فى الرقيق :

أقول لنضو أنفذ السير نبيها ، فلم يبق منها غير عظم مجلد
خدى لى ابتلاك الله بالشوق والهوى ، وساقك تجتاز الحمام المفرد
فمرت سريعاً خوف دعوة عاشق ، تشق بها المومة فى كل فدفد
فلما ونت بالسير ثبتت دعوتى ، فكانت لها سوطا إلى ضحوة الغد

وبعثت عائشة بنت سعد بن أبى وقاص ، مولاهما فنداً يأتيا بنار وهى
بالمدينة ، فمضى إلى مصر فأقام بها سنة ثم جاء بنار وهو يعدو مسرعا ، فمثر
فتبدد الجمر . فقال : تعست العجلة

ما رأينا لغراب مثلاً ، إذ بعثناه يحجى بالمشمله
غير فند أرسلوه قابساً ، فتوى حولاً وسب العجله
صعد ابن زهير الخزاعى جبلا ، فأعيا وسقط كالمغشى عليه . فقال : يا جبل
ما أصنع بك ؟ أأضربك لا يوجعك ، أأشتمك لا تبالي ، يكفيك يوم تكون
الجبال كالعمن المنفوش . وهذا ضد قول أعرابى آخر ، سرى فى قر فلما غاب ضل
الطريق . فقال يخاطب بعيره :

اسق ما أسأرتة الأكما ، أن عسينا أن نرى علما
كيف لاتقوى هداية من ، عاد طفلا بعد ما هرما

يقول له : أسرع بي حتى تعرق قستى الأكم بسؤر عرقك ، وهو بقيته —
لعلنا نرى علما نهتدى به ، ويريد بقوله : عاد طفلا بمد ماهر ما يريد القمر لأنه في
أول الشهر يكون كالطفل ينشأ حتى يتكامل ، ثم يدخله النقص حتى يمحى ، ثم
يعود كأول نشأته : يذمه بذلك . ومن عجيب ما في هذا المعنى قول رجل من
بنى الحارث بن كعب يصف الشمس :

مخبأة أما إذا الليل جنبها	فتخفى وأما بالنهار فظهر
إذا انشق عنها ساطع الفجر وأنجلي	دجا الليل وأنجاب الحجاب المستر
والبس عرض الأرض لو نأ كانه	على الأفق الغربى ثوب معصر
تجلت وفيها حين تبدو شعاعها	ولم يعمل للعين البصيرة منظر
عليها كردغ الزعفران يشبه	شعاع تلالا فوق أبيض أصفر
فلما علت وأبيض منها اصفرارها	وجالت كما جال النسيج المشتر
وجالت الآفاق ضوءاً وأسعرت	بحر لها منه الضحى يتسعر
ترى الظل يطوى حين تبدو وتارة	تراه إذا زالت عن الأرض ينشر
كما بدأت إذ أشرقت في مغيبها	تعود كما عاد الكبير المعمر
وتدنف حتى ما يكاد شعاعها	يبين إذا وآت لمن يتبصر
وأفنت قروناً وهي في ذاك لم تزل	تموت وتحى كل يوم وتنشر

وكان كيسان مستملى أبى عبدة ، موصوفاً بالبلادة . قال الجاحظ : كان
يكتب غير ما يسمع ، ويقول غير ما يكتب ، ويستملى غير ما يقرأ ، ويعلى غير
ما يستملى ، أملت عليه يوماً :

قلت لمعشر عدلوا بتعتمر أبا عمرو

فكتب أبا بشر ، وقرأ أبا حفص ، واستملى أبا زبد ، وأملى أبا نصر . أكره
أبا عبدة في شيء . فقال : والله ما فهم ولو فهم لوهم

نوادر تحكى عن غير الناس ، قيل لا بليس لعنه الله : ماذا لقيت من المتعلمين ؟
قال : البلغم ينسيهم وهم يلعنونى . قيل للعقرب : لم لاتشمسين فى الشتاء مع الناس ؟
قالت : من كثرة إحسانى إليهم فى الصيف . كانت أفعى نائمة على حزمة شوك
فحملها السيل والأفعى عليها إذ نظر إليها ثعلب . فقال : مثل هذا الملاح يصلح
لهذه السفينة . أراد ثعلب أن يصعد حائطا فتعلق بعوسجة فعقرت يده . فقال :
انا أخطأت لأنى تعلقت بما يتعلق بكل شىء . وقف جدى على مكان
فمر به ذئب فشمته . فقال له : لم تشمنى إنما شمتنى المكان الذى أنت فيه . قالت
ألخنفساء لأمها ما مررت بأحد إلا بصق على . قالت : يا بنية لحسبك تعوذين .
نظر كلف إلى رغيغ . فقال له : إلى أين ؟ قال : إلى النهروان . قال : فان تركتك
فأبلغ إلى مرو . وقف كلب على قصاب فأذاه . فقال له القصاب : والله أنى قت
إليك لأرمينك بهذا الكرش ، فلم يرح فتغافل عنه القصاب ، فلما طال وقوف
الكلب . قال للقصاب : ترمينا بالكرش أو نتصرف . قيل للبغل : من أبوك ؟
قال خالى الفرس . وهذا كقول القائل :

سألته من أبوه ؟ فقال خالى شعيب

وما كنى عن أبيه إلا وثم سيب

قال مؤلفه هذا آخر الكتاب والله أعلم بالصواب وبالله المستعان ونعوذ بالله

من الزيادة والنقصان

قد أتممت أكرمك الله لهذا الكتاب جميع شروطه ، ولم أخل بتحريره
وضبطه ، وجعلته كالسامر الذكى ، والمنادر اللودعى ، الذى إذا هزل عزف ، وإذا
جد رمز ، فأمضى بك فى العجائب المضحكة ، والغرائب المونقة ، ثم أصلها ولا أفصلها ،
من تعلق بأخبار ظريفة ، وأشعار شريفة ، وقد خفت أن أكلفك نصبا ، وأحملك
تعبا ، فقطعت إذ الزيادة فى الحدود ، نقصان فى الحدود ، ورب ربح أدى إلى
خسران ، وزيادة أفضت إلى نقصان ، فنعوذ بالله ونستغفره مما جرى به اللسان ،
ونصلى على سيدنا محمد سيد ولد عدنان ، وعلى آله وأصحابه السادة الاخيار
والأعيان ، صلاة دائمة بدوام الأزمان ، آمين .